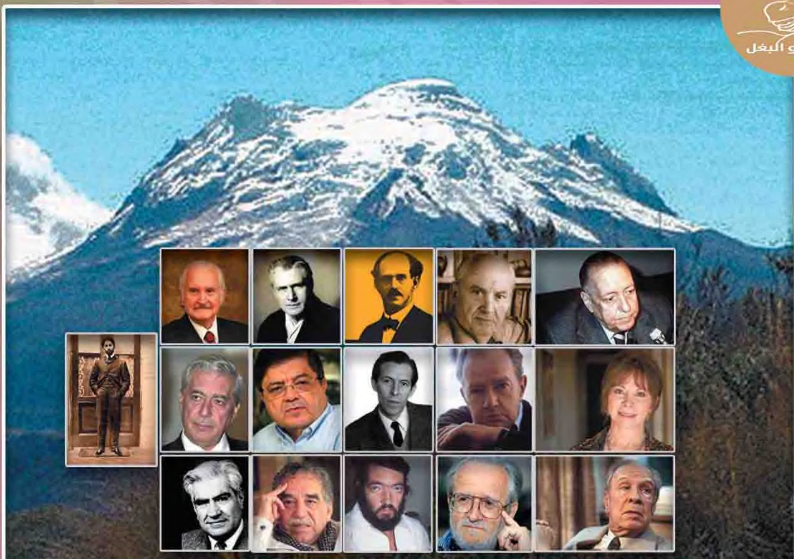
وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

قصص من أمريكا اللاتينية



آفاق ثقافية
١٠٦

ترجمة: صالح علماني

قصص
من أمريكا اللاتينية

آفاق ثقافية

قصص

من أمريكا اللاتينية

ترجمة: صالح علماني

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٢م

آفــاق ثقافيــة

العــدد (١٠٦)

شـباط ٢٠١٢م

ظهـرت هـذه القـصص مـع غيرهـا في كتـاب بعنـوان (مـوت في الـشارع: قـصص مـن أمـريكا اللاتينيـة) منــشورات وزارة الثقافــة بدمــشق سنة ٢٠٠٥م

قصص من أمريكا اللاتينية / ترجمة صالح علمـــاني .- دمشق : الهيئة العامة السورية للكتـــاب، ٢٠١٢م.- ٣٠٤ ص؛ ٢٠ سم.

(آفاق ثقافية؛ ١٠٦)

١- ٨٠٨,٨٣ ع ل م ق ٢- العنوان
٣- علماني ٤- السلسلة

مكتبة الأسد

هذه قصص لأعلام الأدب في أمريكا اللاتينية نضعها بين يدي قراء **آفاق ثقافية** راجين أن تجد لديهم اهتماماً، فهي تقدم نبذة مصغرة من إبداعات هؤلاء الكتاب، الذين لا نفتأ نعجب بأدبهم كلما قرأنا لهم، فمن الذي لم يقرأ ماركيز فاغراً فاه مدهوشاً بالعوالم التي ينقله إليها هذا المبدع؟ ومن الذي لم تصبه رجفة المسحور أمام عوالم بورخيس الغامضة؟

تخلّق أدب أمريكا اللاتينية بشكل مدهش في النصف الأخير من القرن العشرين حتى أصبح منبعا للثقافة الإنسانية. ويتبين لقارئ أعمال كبار أدباء أمريكا اللاتينية، أن كتباتهم تجعل أذهاننا أكثر انفتاحاً على الواقع مع مرّ الأيام، عبر عالم خيالي، وواقعي وسحري، وهذا طبعا يجعلنا نبني تصوراً آخر للعالم الحقيقي المحيط بنا، بل وتتولد لدينا ملكة إعادة الإدراك ومعها المقدرة الفعلية على نقد الواقع الذي يصنعه الإنسان ليضنى أو يسعد فيه.

ولا مراء أن هذا الأدب جدليّ، وثوري ومناضلٌ عرّى كل أشكال استعباد الإنسان، لهذا فقراءة تاريخية لواقع أمريكا اللاتينية انطلاقا من ملاحم روائية بضخامة أعمال غابرييل غارسيا ماركيز

وكارلوس فوينتس وأوكتافيو باث... هي مشروع شديد الإغراء. وحقيقة العالم الروائي الذي أقامه أعلام أدب أمريكا اللاتينية تحتاج إلى الأشعة تحت الحمراء لسبر أغوارها، وكشف الحيل والمهارات الأدبية والإبداعية التي استخدموها لفضح الفساد وما يخلفه من حياة تعسة للإنسان.

أدب أمريكا اللاتينية، يمنح المطالع انطباعات شديدة الصدق، فقصص غابرييل غارسيا ماركيز وأليخو كاربينتر وخورخي لويس بورخيس وغيرهم ممن نقرأ لهم في هذا الكتاب تعلمنا أن هذا الفن الرقيق الجميل يستطيع فعلاً أن يتجاوز العوائق كلها ليحلّق عالياً وينتشر مع كل التيارات الهوائية التي تلف الأرض ليدخل معها إلى كل بيت ، ويسحر القراء فيجعلهم يسيرون مع شخصيات القصص في شوارع بيونس أيرس أو يعيشون في حي شعبي من أحياء كارتاخينا دي اندياس أو حتى يسجنون مع المعذبين في سجن يعلو الصدأ أقفاله. ولابد أن يشعروا برائحة الأطعمة المتبلة الحارة مع الفقر والتبغ وجمال الخلاسيات والسمروات، ويتذكروا ضحكة ماركيز المتحشرجة، وكل كلمة من كلماته التي يمكن ان تسكن أرواحهم وذواكرهم أمداً طويلا.

لن أطيل كثيراً، وأدع القارئ الكريم وجهاً لوجه مع هذه القصص.

رئيس التحرير

أليخو كاربينتير

Alejo Carpentier[١]

الهاربان

Los fugitivos

I

الأثر يتلاشى عند أصل شجرة. صحيح أن رائحة زنجي

---

(١) ولد أليخو كاربينتير في هافانا عام ١٩٠٤. سافر في طفولته إلى فرنسا وبلجيكا وروسيا. درس المرحلة الابتدائية في باريس. وعندما عاد إلى هافانا، بدأ دراسة الهندسة في جامعتها. لكنه ما لبث أن تخلى عن الدراسة، ليشتغل في الصحافة، كناقد أدبي. اعتقل لنشاطه الثوري، وبقي في السجن ستة أشهر. وبعد خروجه من السجن، غادر وطنه سراً، وأقام في باريس، حيث كان على علاقة وثيقة بجماعة السورياليين هناك. شارك في المؤتمر العالمي المناهض للفاشية الذي عقد في مدريد وبلنسيا وبرشلونة، خلال الحرب الأهلية الإسبانية عام ١٩٣٧. أقام في كاراكاس (فنزويلا) منذ ١٩٤٥، وبقي فيها حتى انتصار الثورة الكوبية عامٍ ١٩٥٩. أصبح نائباً لرئيس المجلس الوطني الكوبي للثقافة، ونائباً لرئيس اتحاد الكتاب والفنانين الكوبيين الذي تأسس عام ١٩٦١.

من أبرز أعماله: في الرواية: «إيكوي–يامبا–آو (حكاية آفروكوبية)» (١٩٣٣)، «مملكة هذا العالم» (١٩٤٩)، «الخطى الضائعة» (١٩٥٣)، «عصر الأنوار» (١٩٦٢)، «كونشرتو باروكي» (١٩٧٤)، «ملاذ المنهج» (١٩٧٤)، «تكريس الربيع» (١٩٧٤)، «القيثارة والظل» (١٩٧٩). في القصة: «حرب الزمن» (١٩٥٨). **الدراسات:** «الموسيقى في كوبا» (١٩٤٦)، «لقاءات واختلافات» (١٩٦٤)، «الأدب والوعي السياسي في أمريكا اللاتينية» (١٩٦٩)، «الرواية الأمريكية اللاتينية عشية قرن جديد ودراسات أخرى» (١٩٨١).

قوية كانت تفوح في الجو، كلما استثار الهواءُ الذبابَ الذي يعمل في فجوات ثمار متعفنة. غير أن الكلب – لم يسمه أحد قطّ، بأي اسم آخر، سوى «**كلب**» – كان تعباً. تمرغ بين الأعشاب، ليحك ظهره، ويرخي عضلاته. وبعيداً جداً، كان صياح كلاب الفرقة، يضيع في الغروب. ما زالت تفوح رائحة زنجي. ربما كان العبد الآبق مختبئاً فوق، في مكان ما، ممتطياً أحد الأغصان، منصتاً بعينيه. ومع ذلك، لم يعد «كلب» يفكر في المطاردة. ثمة رائحة أخرى هناك، في الأرض المتدثرة بالقصب، يمكن لأي احتكاك تالٍ أن يمحوها إلى الأبد. إنها رائحة أنثى، رائحة يلتقطها «كلب» وهو مستلق على ظهره، يتلوى، وقوائمه إلى أعلى، ضاحكاً بنابه، كي يرفعه ويتمكن بذلك من مدّ لسان قصير جداً نحو الفجوة التي تفصل بين لوحي كتفيه.

كانت الظلال تزداد رطوبة. انقلب «كلب»، واستقر على قوائمه. نواقيس معصرة القصب المتهادية على مهل، جعلت أذنيه تنتصبان. وفي الوادي، كان الضباب والدخان يشكلان الركود الأزرق نفسه الذي تطفو فوقه أشياء تبدو، أكثر فأكثر، شبحية: مدخنة من الآجر، سقف ذو أفاريز كبيرة، برج الكنيسة، وأنوار تبدو كأنها تشع في قاع بحيرة. كان «كلب» جائعاً. لكن رائحة أنثى تأتي من هناك. أحياناً تطغى عليها رائحة زنجي.

غير أن رائحة نزوته، تستدعيها رائحة نزوة أخرى، تفرض نفسها على كل ما عداها. تمطت قائمتا «كلب» الخلفـيتان، فجعلتاه يمط رقبته. كان بطنه يغور، عند نهاية الأضلاع، على إيقاع لهاث قصير ومتلهف. كانت الثمار المترعة بالرحيق، تحت الشمس، تسقط هنا وهناك، بدوي مبلل، ناثرة على وجه الأرض، دفقاً من اللباب الدافئ.

اندفع «كلب» يعدو نحو الجبل، خافضاً ذيله، كما لو أن سوط رئيس عمال معصرة القصب يطارده، مخالفاً حدسه الخاص في التوجه. صارت لـ «كلب» رائحة أنثى. كان أنفه يتبع أثر رائحة ملتوية، تلتف أحياناً حول نفسها، تغادر الدرب، تزداد حدة في أشواك شجرة أرومو، تضيع بين أوراقٍ زاد التخمر من حموضتها، ثم تتبعث بقوة غير متوقعة، على جزء صغير من الأرض كنسه، للتو، ذيل. وفجأة، انحرف «كلب» عن الطريق غير المرئي، عن الخيط الذي ينحني ويستوي، لينقض على نمس، وبهزتين رنتا مثل صناجات في قفاز، كسر عمود طريدته الفقري، قاذفاً إياها لترتطم بجذع شجرة. توقف «كلب» فجأة، رافعاً إحدى قوائمه. وكانت تنزل إليه، من الجبل، أصوات نباح نائية.

لم تكن آتية من سرب كلاب معصرة القصب. فقد كانت نبرة نباحها مختلفة، أكثر فظاظة وتمزقاً، خارجة من أعماق الحلق،

تزيد أشداق قوية من بحتها. هناك، في مكان ما، معركة تدور بين ذكور لا تحمل، مثل «كلب»، طوقاً ذا أشواك نحاسية، ولوحة مرقمة. حيال هذه الأصوات المجهولة، والأشد ذئبية من كل ما سمعه من قبل. أحس «كلب» بالخوف. واندفع راكضاً باتجاه معاكس، إلى أن رسمت النباتات القمر. لم تعد تفوح رائحة. إنها رائحة زنجي. وهناك كان الزنجي، فعلاً، بسرواله المخطط، منبطحاً، نائماً. كان «كلب» على وشك أن ينقض عليه، متبعاً إشارة أُطلقت في الفجر، وسط هرج ومرج سياط هائل، هناك حيث توجد قدور، وفراش من القش. ولكن في الأعلى، في مكان لا يستطيع تحديده، كان يتواصل عراك الذكور. بقيت بالقرب من الزنجي الآبق، عظام أضلاع مقروضة. اقترب «كلب» ببطء، وبأذنين مرتابتين، وقد صمم أن ينازع النمل بعضاً من مذاق اللحم. وفوق ذلك، كانت تلك الكلاب الأخرى، ذات النباح الضاري، تخيفه. من الأفضل له، في الوقت الراهن، أن يظل قريباً من الإنسان. وأن يتنصت. ومع ذلك، فإن ريح الجنوب، قد حملت معها، في نهاية الأمر، ذلك التهديد. دار «كلب» ثلاث دورات حول نفسه، وتكور منهوكاً. تورطت قوائمه في حلم خبيث. وعند الفجر، أحاطه العبد الآبق بذراعه، بحركة من نام كثيراً مع نساء. التصق «كلب» بصدره، باحثاً عن الدفء. كلاهما كان في ذروة الفرار، تقشعر أعصابهما من الكابوس نفسه.

وكان عنكبوت قد نزل ليرى بصورة أفضل، فالتقط خيطه، وضاع في قمة شجرة اللوز التي بدأت أوراقها تطلع من الليل.

II

بحكم العادة، استيقظ العبد الآبق و«كلب»، عندما دوت أجراس معصرة القصب. وتَبَيُّنُهُما أنهما ناما معاً، جسداً إلى جسد، جعلهما ينهضان قافزين. وبعد أن استندا إلى جذعي شجرتين، تبادلا النظرات مطولاً. «كلب» يعرض نفسه ليتخذ له سيداً. والزنجي متلهف لاستعادة صداقة ما. وكان الوادي يتمطى. ومن برج الأجراس المرهق، الموجه للعبيد، جاء الرد الآن، ببطء أشد من أنغام أرغن الكنيسة التي تهتز أشجارها من الظل إلى الشمس، على خلفية من الخوار والصهيل، كتنبيه متسامح لمن ينامون في أسرة عالية من خشب الكاوبا الثمين. الديكة تدور حول الدجاجات لتعتليها باكراً، بانتظار أن يتأكد خنصر زوجة رئيس عمال المعصرة، من وجود البيض قبل وضعه. وديك رومي يلف ويدور، فوق بيت المعيشة، مشتعلاً في صرخة مع كل لفة ودورة. وتبدأ جياد معصرة القصب، مسيرها الدائري الطويل. والعبيد يرتلون الصلوات أمام قدور مملوءة بالخبز، مع عصير قصب السكر. فتح العبد الآبق فتحة سرواله، وخلّف بركة من الزبد بين جذور شجر ثيبا. ورفع «كلب» قائمته على جذع شجرة جوافة غضة. كانت قد بدأت

تسمع ضربات مناجل المتشيتي في حصاد قصب السكر. وكانت كلاب اصطياد الزنوج تهز سلاسلها، متلهفة للخروج إلى الفناء.

– أتذهب معي؟ – سأل العبد الآبق.

وتبعه «كلب» بوداعة. فهناك في الأسفل، لا وجود إلا للكثير من السياط، والكثير من السلاسل، لمن يرجعون نادمين. لم تعد هناك رائحة أنثى. كما أنه لم يعد يشم رائحة زنجي كذلك. فقد صار «كلب» الآن أشد تيقظاً لرائحة الأبيض، رائحة الخطر. لأن لرئيس العمال رائحة رجل أبيض، على الرغم من رائحة النشاء المكوي في سترته، وبالرغم من رائحة الطلاء النفاذة المنبعثة من حذائه المصنوع من جلد خنزير. إنها رائحة آنسات البيت نفسها، على الرغم من العطر الذي يفوح من ملابسهن. وهي رائحة الخوري، على الرغم من عبق الشموع الذائبة والبخور الذي يجعل جو الكنيسة منفراً، بالرغم من برودته اللذيذة. وهي رائحة عازف الأرغن، على الرغم من أن نفخات منافخ الأرغن، قد أطلقت عليه الكثير الكثير من النفحات المحملة برائحة اللبد الذي نخره العث. لا بد من الهرب الآن من رائحة الأبيض. فقد بدّل «كلب» معسكره.

III

في الأيام الأولى، أحس «كلب» و«آبق» بالحنين إلى الطعام المضمون. كان «كلب» يتذكر العظام التي تُفرغ دلاءً،

في الفناء، عند المساء. بينما كان «آبق» يتشوق إلى «الكونغري»[١]، محمولاً في دلاء إلى أكواخ العبيد، بعد أن تدق ساعة الصلاة، أو بعد أن يخبِّئوا طبول أيام الآحاد. ولهذا، بعد أن يناما طويلاً في الأصباح التي بلا نواقيس ولا ركلات، اعتادا أن يبدأا الصيد منذ الفجر. يتشمم «كلب» رائحة خوتيا[٢] مختبئ بين أوراق شجرة أرز؛ فـيسقطه «آبق» رمياً بالحجارة. وإذا ما عثرا على آثار خنزير بري، فلا بد من قضاء ساعات وساعات في المطاردة، إلى أن تتمزق أذنا الحيوان، ويصاب بالبلبلة من كل ذلك النباح، ولكنه يبقى مستعداً للمواجهة، فـيُحاصَر أسفل صخرة، ويضرب بهراوة إلى أن ينهار. وشيئاً فشيئاً، نسي «كلب» و«آبق» الأزمنة التي كانا يأكلان فـيها بانتظام. وصارا يلتهمان ما يصطادانه، دفعة واحدة، مبتلعين أكبر قدر ممكن منه، وهما يعلمان أنه يمكن للمطر أن يهطل في الغد، وأن يسيل ماء الأعالي بين الصخور، ليغمر الوادي كلّه. ولحسن الحظ، كان «كلب» يعرف أكل الثمار. فعندما يعثر «آبق» على شجرة مانغا أو ماميي، كان «كلب» يخضب وجهه أيضاً بالأصفر أو الأحمر. وبما أنه، فضلاً عن ذلك، كان من أكلة البيوض على الدوام، فإن عش سمانة يعوضه عن ميل سيده، غير المفهوم، إلى الأربيان الذي يرقد عكس التيار، عند

---

(١) – كونغري Congri: طعام شعبي كوبي، يتألف من الرز والفاصولياء.

(٢) – خوتيا jutia: حيوان لبون من فصيلة القوارض، يشبه الفأر.

مخرج النهر تحت الأرضي الذي يشع بفم من حلزونات متحجرة.

كانا يعيشان في كهف مختف جيداً، بستارة من السراخس الكبيرة، حيث تبكي النوازل بإيقاع رتيب منتظم، مالئة الظلال الباردة بدوي أشبه بتكتكة الساعات. وفـــي أحد الأيام، بدأ «كلب» الحفر أسفل أحد جدران الكهف. وسرعان ما انتشلت أسنانه عظم فخذ، وبعض الأضلاع. كانت العظام قديمة جداً، إلى حدّ فقدت معه طعمها، وتفتتت على لسانه إلى غبار معجون لا طعم له. وبعد ذلك، حمل جمجمة بشرية إلى «آبق» الذي كان يصنع لنفسه حزاماً من جلد أفعى. وعلى الرغم من أنه كانت هناك، في الحفرة، بعض البقايا الفخارية، وبعض حجارة الصقل، يمكن له الاستفادة منها، إلا أن «آبق»، المرعوب من وجود موتى في مسكنه، غادر الكهف ذلك المساء بالذات، مردداً ترتيلات، وغير آبه بالمطر.

ناما كلاهما بين جذوع ونباتات، تلفهما الرائحة نفسها: رائحة كلب مبلول. وفـــي الصباح، وجدا مغارة سقفها أكثر انخفاضاً، حيث اضطر الرجل إلى الدخول على أربع. ولم تكن هناك، على الأقل، عظام مثل تلك التي لا تنفع في شيء، ولا تصلح إلا في جلب المفاجآت والرؤى الخبيثة.

ولأنه لم تقع مطاردات منذ وقت طويل، فقد بدأا يجازفان بالاقتراب من الطريق. كان يمر، في بعض الأحيان، حوذي

معروف، أو متدينة ترتدي مسوح يسوع الناصري، أو عازف جيتار، من أولئك الذين يعرفون مالك كل قرية، فـيتأملانهم من بعيد، بصمت. لم يكن ثمة ريب في أن «آبق» ينتظر شيئاً ما. فقد اعتاد أن يقضي الساعات، منبطحاً، بين الأعشاب، يرصد هذا الطريق الذي نادراً ما يرتاده أحد، والذي يمكن لضفدع أن يقطعه بقفزة كبيرة. وكان «كلب» يتلهى، في فترات الانتظار تلك، بتشتيت سرب من الفراشات البيضاء، أو ينهمك، قافزاً، في محاولة مستحيلة لاصطياد عصفور ثونثون مبرقش.

وذات يوم، بينما «آبق» ينتظر على ذلك النحو، شيئاً لا يأتي، دفعه وقع سنابك إلى النهوض، مستنداً إلى معصميه. إنها عربة آتية بأقصى سرعة، تجرها فرس معصرة القصب الزرزورية. كان الحوذي غريغوريو يقف منتصباً في موقعه، ويفرقع بالسوط، بينما الخوري، وراءه، يهز جلجل الزاد الأخير. منذ زمن بعيد لم يلهُ «كلب» بالركض أسرع من الجياد. حتى إنه نسي، في الحال، الحذر المفروض عليه. فنزل ممشوقاً، يعدو على السفح، بقوائمه الأربع، مزرقاً تحت الشمس، ولحق بالعربة، وراح ينبح في عراقيب الفرس، إلى يمينها، وإلى يسارها، ومن أمامها، معترضاً طريقها مرة بعد أخرى، ومظهراً أسنانه للحوذي والكاهن. راحت الفرس تشبّ عالياً، وتهز الغمامة التي تغطي عينيها، ويشد اللجام. وفجأة، انكسرت إحدى العوارض، وانقطع الحزام. وبعد خوف شديد، واهتزازهما

كدميتين، انقذف الخوري والحوذي، وارتطم رأساهما بالجسر الحجري. واصطبغ التراب بالدم.

جاء «آبق» راكضاً. وكان يشهر قصبة ليجلد بها «كلب» الذي كان يتجرجر طالباً الصفح. لكن الزنجي توقف عما كان ينويه، وقد راودته فكرة أنه ليس كل شيء سيّئاً في تلك الحادثة. استولى على رداء الخوري وثيابه، وعلى سترة الحوذي وجزمته العالية. ووجد في جيوب هذا وذاك خمسة دورو[(١)]. فضلاً عن الجلجل الفضي. رجع اللصان إلى الجبل. وفـــي تلك الليلة؛ متدثراً برداء الراهب، راح «آبق» يحلم بملذات منسية. تذكر القناديل المليئة بحشرات ميتة، تلمع حتى وقت متأخر، في آخر بيوت القرية؛ هناك حيث سُمح له، مرتين، بطلب عيدية عيد ملوك المجوس، وإنفاقها على هواه. وقد اختار الزنجي، دون ريب، إنفاقها على النساء.

IV

فاجأهما الربيع كليهما، عند الفجر. استيقظ «كلب» وهو يشعر بتوتر لا يطاق بين قائمتيه الخلفــيتين، وبتعبير خبيث في عينيه. كان يلهث دون أن يشعر بالحر، ويمد من بين أنيابه لساناً تغطيه خطوط طرية لزجة. بينما كان «آبق» يكلم نفسه. كلاهما

---

(١) – دورو: وحدة نقدية تساوي خمسة بيزوات كوبية.

كان معكر المزاج. ودون أن يفكرا في الصيد، مضيا باكراً إلى الطريق. كان «كلب» يركض بصورة غير منتظمة، باحثاً دون جدوى، عن أثر رائحة. وكان يقتل حشرات طالما أثارت اشمئزازه، لكن متعة التخريب كانت تنزف سنابل من بين أسنانه، فكان يقتلع شجيرات غضة. وقد اهتاج عندما بصق ضفدعٍ على عينيه. أما «ابق» فكان ينتظر، كما لم ينتظر من قبل قطٌّ.

ولكن أحداً لم يمر من الطريق، في ذلك اليوم. وعندما خيم الليل، وبدأت تطير أولى الحباحب، مثل أحجار فوق الحقل، انطلق «آبق» ماشياً ببطء، باتجاه بيوت معصرة القصب. فتبعه «كلب» متحدياً الحبال نفسها والسلاسل نفسها. اقتربا من الأكواخ، عبر قناة حقل القصب. بدأت تُشم رائحة، رائحة كانت مألوفة في ما مضى، رائحة حطب محروق، ودبس السكر، وبرادة حوافر الخيل. لا بد أنهم يصنعون حلوى الجوافة، لأن رائحة مربيات عذبة كانت تنتشر في المكان. لكن «كلب» و«آبق» واصلا التقدم، جنباً إلى جنب، رأس الرجل على مستوى ارتفاع رأس الكلب.

وفجأة، اجتازت الدرب زنجية من الخدم. فانقض «آبق» عليها، وطرحها أرضاً بين شتلات الحبق، وكتمت يد كبيرة صرخاتها. تقدم «كلب»، وقد صار وحيداً، حتى نهاية الفناء. وكانت هناك الكلبة الإنكليزية التي اقتناها دون مارثيال، من

معرض في باريس. حاولت الكلبة الهرب. فقطع عليها «كلب» الطريق. كان شعر بدنه منتصباً، من الذيل حتى الرأس. وكانت رائحة ذكورته طاغية، إلى حدّ نسيت الكلبة الإنكليزية معه، أنهم غسلوها منذ ساعات، بصابون من قشتالة.

عندما رجع «كلب» إلى المغارة، كان الفجر يبزغ. وكان «آبق» ينام، ملتفاً برداء الكاهن. وهناك في الأسفل، في النهر، كان مانتيان[١] اثنان، يتقلبان بين القصب، معكرين التيار بتقلباتهما التي تنشر سحباً من الزبد فوق الطمي.

V

كان «آبق» يتخلى عن حذره أكثر فأكثر. فهو يلف ويدور الآن حول الدساكر، متربصاً في أي وقت بشغالة منفردة، أو منجمة تبحث عن كزبرة أو أعشاب رتم أو صبار، من أجل طقس ما. كما أنه، منذ الليلة التي شرب فيها، بنقود الكاهن، في حانة على الطريق، صار به جشع إلى النقود. ففي أكثر من مرة، استولى في الدروب، على حزام فلاح، بعد التطويّح به عن حصانه، وإخماد أنفاسه بهراوة. وكان «كلب» يرافقه في تلك الغارات، ويساعده قدر الإمكان. ومع ذلك، فقد كانا يأكلان أسوأ من ذي قبل، وأكثر من أي وقت آخر. فكان لا بد من

---

(١) الماناتي: حيوان ثديي مائي يعيش في بعض أنهار أمريكا الجنوبية.

التعويض ببيوض السمان أو الحجل أو مالك الحزين. فضلاً عن أن «آبق» كان يعيش في خوف دائم. فعند أقل نباح يطلقه «كلب»، يسارع إلى الإمساك بمنجل المتشيتي المسروق، أو يتسلق شجرة.

انقضت أزمة الربيع، وصار «كلب» يبدي، في كل مرة، مزيداً من التمادي في الاقتراب من القرى. كان هناك أطفال كثيرون يرمونه بالحجارة، وأناس مستعدون على الدوام لركله. وعند سماع اقترابه، تطلق كل كلاب الأفناء صيحات الحرب. وفوق ذلك، كان «آبق» يرجع، في تلك الليالي، بخطوات مترنحة، تنبعث من فمه رائحة يتقزز منها «كلب»، بقدر ما يتقزز من رائحة التبغ. ولهذا، عندما كان صاحبه يدخل بيتاً سيئ الإضاءة، يبقى «كلب» في انتظاره، ولكن من مسافة حذرة. هكذا عاشا، حتى الليلة التي تأخر فـــيها «آبق» طويلاً في غرفة إحدى الخادمات. وفجأة، حاصر الكوخَ رجالٌ متيقظون، يشهرون بأيديهم مناجل متشيتي. وبعد قليل، أُخرج «آبق» إلى الشارع، عارياً، وهو يصرخ صرخات مرعبة. أما الكلب الذي شمّ رائحة رئيس عمال معصرة القصب، فقد انطلق يعدو نحو الجبل، عبر طريق حقول القصب.

وفـــي اليوم التالي، رأى مرور «آبق» في الطريق. كان مغطى بجراح عُولجت بالملح. وكان هناك حديد في رقبته وحول معصميه، ويقوده أربعة رجال من شرطة، من فرقة

الحرس المدني في بلدة سان فرناندو، يضربونه بأعقاب البنادق كل خطوتين، ويعاملونه مثلما يعاملون لصاً أو سكيراً أو أفّاقاً.

VI

كان «كلب» يجلس على حافة صخرية، تشرف على الوادي، ويطلق نباحاً على القمر. صارت تستولي عليه كآبة عميقة، أحياناً، عندما تبلغ تلك الشمس الكبيرة الباردة تمام استدارتها، ملقية انعكاسات ضوء باهتة على النباتات. لقد انتهت، بالنسبة إليه، المواقد التي كانت تضيء الكهف في الليالي الماطرة. وهو لن يعرف، بعد الآن، دفء الإنسان في الشتاء الآخذ بالاقتراب. ولن يكون هناك من ينزع، من حول عنقه، طوق الأشواك النحاسية الذي يزعجه كثيراً في النوم – على الرغم من أنه ورث رداء الكاهن –. ومع أنه كان يواصل الصيد دون توقف، إلا أنه صار أكثر تسامحاً، بالمقابل، تجاه الكائنات التي لا تصلح للأكل. فكان يسمح لأفعى الماخا أن تهرب بين الحجارة الدافئة، حتى دون أن ينبح عليها، منذ أن لم يعد «آبق» موجوداً ليناوشها، أملاً في أن يصنع لنفسه حزاماً، أو يستخرج منها شحماً يدهن به. أضف إلى ذلك، أن رائحة الأفاعي تثير اشمئزازه. وعندما كان يمسك بواحدة منها من ذيلها، فإنما كان يفعل ذلك بدافع الواجب الذي يجد أي كائن نفسه ملزماً به، إذا ما كان مرتبطاً بكائن آخر. كما أنه لم يعد يجرؤ – إلا في

حالات الجوع القصوى – على مهاجمة الخنزير البري. وصار يكتفـــي الآن بطيور مائية ونموس وفئران. وبين حين وآخر، بدجاجة هاربة من حظائر القرية. ومع ذلك، فقد صارت معصرة القصب منسية. وفقد قرع أجراسها أي معنى. صار «كلب» يبحث الآن عن ملاذ في القمم العالية التي لا يستطيع بنو البشر بلوغها؛ يعيش في عالم من أشجار العندم التي تهزها الريح، فتُحدث حفيف بردعة جديدة؛ عالم سرخس، وقصب خيزران، وديدان، حيث تتجرجر حراذين خضراء، ذات آذان بيض، من تلك ذات المذاق الخبيث، والتي تبقى، بسبب ذلك، حيث هي. كان قد هزل. وعلى أضلاعه التي تظهرها فجوات بينها، كان وبره يحتبس أنواعاً من العلق، لم تعد هناك أشواك قادرة على تخليصه منها.

ومع تفتح قصب الأغينالدوس، عاد الربيع. ذات مساء، أَرّقه قلق غريب، فقد شمّ «كلب» مرة أخرى تلك الرائحة العجيبة، رائحة الأنثى القوية والنفّاذة التي كانت السبب الأول في هروبه إلى الجبل. و كانت تأتي من الجبل الآن، أصوات نباح أيضاً. في هذه المرة، التقط «كلب» الأثر بصورة مؤكدة، ثم استعاده بعد أن اجتاز جدولاً، سباحة. لم يعد يشعر بالخوف. تتبع الأثر طوال الليل، وأنفه ملتصق بالأرض، بينما لعابه يسيل من طرف لسانه. وعند الفجر، كانت الرائحة تملأ شِعباً بكامله. ووجد متتبع الأثر نفسه قبالة سرب من الكلاب الضارية. عدَّة ذكور،

لها وجوه ذئاب، محتشدة هناك، عيونها تلمع، وأجسامها مشدودة فوق قوائمها، متوثبة للهجوم. ووراءها، تنغلق الرائحة على أنثى.

قفز «كلب» قفزة كبيرة. فانقضت الكلاب البرية عليه؛ اختلطت الأجساد، بعضها ببعض، في زوبعة من النباح. ولكن، سرعان ما سُمعت أنّات سببتها أشواك الطوق. امتلأت الأفواه بالدم. وكانت هناك آذان نازفة. وعندما أفلت «كلب» أكبرها سناً، وقد انتزع حنجرته، تقهقرت بقية الكلاب، مزمجرة بغضب لا طائل منه. عندئذ ركض «كلب» إلى وسط الحلبة، ليشن المعركة الأخيرة على الكلبة الرمادية، ذات الوبر القاسي التي تنتظره، مكشرة عن أنيابها. وبدأت رائحة الأثر تضمحل في ظل بطنه.

VII

كانت الكلاب الضارية تصطاد في أسراب. ولهذا، فإنها تبحث عن الطرائد الكبيرة، الأوفر لحماً وعظاماً. وعندما تصادف غزالاً، فإن المهمة تستغرق أياماً. أولاً، الرصد. وبعد ذلك، إذا ما تمكن الحيوان من اجتياز خندق قافزاً، لا بد من قطع الطريق عليه. ثم الحصار بعد ذلك، إذا ما ظهرت مغارة لمساعدة الطريدة. وبالرغم مما تعانيه الكلاب من الجراح والعذاب، فإن الحيوان يموت دوماً بين أسنان سرب الضواري تلك، فتبدأ بالتهام جسد الطريدة، وهو لا يزال حياً، منتزعة عنه

نتفاً من الوبر الرمادي، وشاربة الدم طازجاً، على الرغم من دفئه، من شرايين الرقبة أو من أصل أذن مُنتزعة. وتكون كلاب كثيرة قد فقدت عيناً، انتزعتها طعنة قرن. وتكون جميعها مغطاة بالقروح، والجراح، والأوبار الحمراء. في أيام النزو، تتصارع الكلاب فــيما بينها، بينما تنتظر الإناث، مستلقية، وبعدم مبالاة مفاجئة، نتائج الصراع. لم تعد نواقيس معصرة القصب التي يحمل الهواء دقاتها، أحياناً، توقظ أدنى ذكرى في «كلب».

وذات يوم، التقطت الكلاب المتوحشة أثراً مألوفاً في تلك الغابات المكتظة بالخيزران، والأشواك، والنباتات الخبيثة التي تسمم إذا جرحت. إنها رائحة زنجي. تقدمت الكلاب بحذر، عبر درب جبلي متعرج، حيث تنتصب صخرة قديمة، كأنها وجه ميت. فمن عادة البشر أن يخلفوا، حيث يمرون، عظاماً وفضلات. ولكن، من الأفضل توخي الحذر منهم، فهم أشد الحيوانات خطراً، لأنهم يمشون على قوائمهم الخلفــية، فــيتيح لهم ذلك إطالة حركاتهم بعصي وأشياء أخرى. وكانت الكلاب قد توقفت عن النباح.

وفجأة، ظهر الرجل. انتشرت رائحة زنجي. كانت سلاسل مكسرة تقيّد رسغيه، تحكم إيقاع خطاه. وسلاسل أخرى، أثخن من تلك، ترن تحت زنار سرواله المخطط. تعرف «كلب» على «آبق».

– كلب! يا كلب! – ناداه الزنجي مبتهجاً.

دنا «كلب» منه ببطء. شم قدميه، ولكن دون أن يسمح له بلمسه. وراح يدور حوله، محركاً ذيله. وكلما نودي، فرّ مبتعداً. وعندما لا يُنادى عليه، يبدو كما لو أنه يبحث عن رنّة ذلك الصوت البشريّ الذي كان يفهمه قليلاً، في أزمنة أخرى. ولكنه يشعر بأن له وقعاً غريباً الآن، وقعاً يُذكّره، بصورة خطرة، بالانصياع.

وأخيراً، خطا «آبق» خطوة، وهو يمد يداً حانية إلى رأس «كلب»، فأطلق «كلب» صيحة غريبة، هي خليط من نباح أصم وعواء، ووثب منقضاً على رقبة الزنجي.

لقد تذكر، فجأة، إشارة قديمة، يومئ بها رئيس عمال معصرة القصب، كلما هرب عبد إلى الجبل.

VIII

بما أنه لم تكن هناك رائحة أنثى، وكانت الأزمنة هادئة، فقد نامت الكلاب الوحشية متخمة ليومين. في الأعلى، كانت طيور الأورا الجارحة تمر فوق الأغصان، آملة أن ينصرف سرب الكلاب، قبل أن ينهي العمل كله. كان «كلب» والكلبة الرمادية يلهوان، كما لم يفعلا من قبل قط، وهما يلعبان بقميص «آبق» المشدود، كل واحد منهما يشده إلى جهته، ليُثبتا متانة أنيابهما. وكلما انفتق جزء من خياطته، تدحرج كلاهما على التراب. ثم

يعودان للبدء من جديد، بينما الخرقة تصغر أكثر فأكثر، وكل منهما ينظر إلى الآخر، وقد أوشك أنفاهما وعيونهما أن تتلاصق. أخيراً، صدر أمر بالرحيل. وضاع النباح في أعالي القمم المشجرة.

وطوال سنوات كثيرة، ظل المسافرون يتجنبون المرور ليلاً، من ذلك المكان المفروش بعظام وسلاسل.

إيزابيل الليندي

Isabel Allende(١)

رسائل حب مغدور

Cartas de amor traicionado

ماتت أم آناليا توريس بحمى هذيانية عند ولادتها، فلم يتحمل أبوها الحزن، وأطلق بعد أسبوعين من ذلك، رصاصة مسدس

---

(١) ولدت الكاتبة التشيلية إيزابيل الليندي في ليما، عاصمة البيرو عام ١٩٤٢، عندما كان أبوها يؤدي مهمة دبلوماسية في تلك البلاد. دخلت، منذ وقت مبكر، إلى عالم الصحافة، فعملت في مجلة «باولا» النسائية، وكذلك في بعض البرامج التلفزيونية في العاصمة التشيلية. في عام ١٩٧٥، أي بعد عامين من بدء دكتاتورية بينوشيت في تشيلي، خرجت مع أسرتها إلى المنفى في كاراكاس، حيث بدأت بكتابة روايتها الأولى «بيت الأرواح». وهو العمل الذي لقي نجاحاً كبيراً عندما نُشر في إسبانيا. منحتها حكومة تشيلي عام ١٩٩٤ وسام الاستحقاق غابرييلا ميسترال. في عام ١٩٩٤ نشرت عملها «باولا»، وهو رواية حول الميتة المأساوية والمؤلمة لابنتها باولا فرياس. تتميز أعمالها ببساطة موضوعاتها وتقنياتها، مع الإلحاح على الأبعاد الاجتماعية، واللمسات الساخرة التي تزيد من حدة انتقادها لأي شكل من أشكال المراقبة، وللعنف والفساد الحكومي والدكتاتوريات التي عرفتها أميركا اللاتينية طوال عقود. تعيش إيزابيل الليندي حالياً، في كاليفورنيا في الولايات المتحدة الأمريكية. من أبرز أعمالها: - بيت الأرواح رواية ١٩٨٢ - عن الحب والظلال رواية ١٩٨٤ - إيفا لونا رواية ١٩٨٧ - حكايات إيفا لونا قصص قصيرة ١٩٩٠- الخطة اللانهائية رواية ١٩٩١- باولا مذكرات ١٩٩٤ - ابنة الحظ رواية ١٩٩٩ - صورة عتيقة رواية ٢٠٠٠ - مدينة الوحوش رواية للفتيان ٢٠٠٢ - وطني الذي اختلقته مذكرات ٢٠٠٣ - مملكة التنين الذهبي رواية للفتيان٢٠٠٣

على صدره. احتضر عدة أيام، واسم زوجته على شفتيه. وتولى بعد ذلك، شقيقه اوخينيو، مسؤولية إدارة أراضي الأسرة، ومصير اليتيمة الصغيرة، على هواه. ترعرعت آناليا، حتى السنة السادسة من عمرها، وهي تتعلق بأذيال تنورة خادمة هندية، في غرف الخدم، في بيت كفـــيلها. وما كادت تبلغ سن الذهاب إلى المدرسة، حتى أرسلوها إلى العاصمة، تلميذة داخلية في مدرسة راهبات القلب المقدس، حيث أمضت الاثنتي عشرة سنة التالية. كانت تلميذة جيدة، تحب الانضباط، وصرامة المبنى الحجري، والمصلى بتماثيله القدسية ورائحة شموعه وزنابقه، والممرات الجرداء، والأفناء الظليلة. وكان أقل ما يجتذبها هو صخب أترابها، ورائحة قاعات الدرس الحرّيفة. وكلما تمكنت من مغافلة رقابة الراهبات، كانت تختبئ في غرفة المهملات، بين تماثيل مقطوعة الرؤوس، وأثاث مكسر، لكي تحكي لنفسها حكايات. في تلك اللحظات المختلسة، كانت تغرق في الصمت، بإحساس من تسلم نفسها إلى خطيئة.

وكل ستة شهور، كانت تتلقى ملاحظة مكتوبة من عمها أوخينيو، يذكرها فـــيها بأن تحسّن سلوكها، وتكرم ذكرى أبويها اللذين كانا مسيحيين طيبين، في حياتيهما، وسيكونان فخورين إذا ما كرست ابنتهما الوحيدة حياتها، لأعلى فروض الفضيلة، أي بانضمامها إلى الدير كراهبة مستجدة. ولكن آناليا أعلمته، منذ اللحظة الأولى، أنها ليست مستعدة لعمل ذلك. وتمسكت بموقفها

بعناد، لمجرد مناكفته؛ مع أنها كانت تحب في أعماقها الحياة الدينية. فقد كانت تفكر في أنها ربما تجد الطمأنينة الدائمة، بالاختباء وراء مسوح الراهبة، في عزلة الرفض الأخير لأي متعة؛ ولكن غريزتها كانت تحذرها، مع ذلك، من نصيحة الوصي عليها. فقد كانت تشك في أن الدافع، وراء كل أعماله، هو الطمع بالأرض، وليس الوفاء الأسري. فكانت لا تأخذ أي اقتراح منه على محمل الثقة، وترى أن ثمة شركاً، ينصبه لها في كل ما يقوله.

عندما أتمت آناليا السادسة عشرة من عمرها، ذهب عمها لزيارتها في المدرسة، لأول مرة، فاستدعت رئيسة الراهبات الفتاة إلى مكتبها. وكان عليها أن تقدم كلاً منهما إلى الآخر، لأن كليهما كان قد تبدل كثيراً، منذ زمن الخادمة الهندية في أفناء البيت الخلفـــية. ولم يتعرف أحدهما على الآخر.

قال العم، وهو يحرك فنجان الشيكولاتة:

– أرى أن الراهبات يعتنين بك جيداً يا آناليا، فأنت تبدين سليمة الجسم، بل جميلة أيضاً. لقد أخبرتك في رسالتي الأخيرة بأنك، ابتداء من عيد ميلادك هذا، ستتلقين مبلغاً شهرياً من المال، من أجل نفقاتك، مثلما اشترط أخي – لترقد روحه بسلام – في وصيته.

– كم؟

- مئة بيزو.

- أهذا هو كل ما خلّفه لي أبواي؟

- لا، طبعاً لا. أنت تعرفـين أن الأرض ملكك، ولكن الزراعة ليست من عمل النساء، وخاصة في أزمنة الإضرابات والثورات هذه. سأبعث إليك، ابتداء من الآن، مبلغاً شهرياً، يتضاعف كل سنة، إلى أن تبلغي سن الرشد. وبعدها ننظر ما الذي سنفعله.

- ماذا ستنتظر يا عماه؟

- ننظر في ما هو الأنسب لك.

- وما هي خياراتي؟

- ستكونين دائماً بحاجة إلى رجل، من أجل إدارة الأراضي، يا صغيرتي. لقد قمت أنا نفسي بهذا العمل، طوال السنوات الماضية؛ ولم يكن بالمهمة السهلة. ولكنه واجبي، فقد وعدت أخي بذلك، في ساعته الأخيرة، وأنا مستعد لمواصلة القيام بهذا الواجب من أجلك.

- لن يكون عليك مواصلة ذلك لوقت طويل، يا عماه. فعندما أتزوج، سأتولى مسؤولية الأراضي بنفسي.

- أقالت الصغيرة «عندما أتزوج»؟ أخبريني أيتها الأم، هل لديها خطيب؟

- كيف يخطر ببالك مثل هذا الكلام، يا سيد توريس! إننا

نعتني جيداً بالصغيرات. لقد كانت مجرد كلمة. يا لِما تتفوه به هذه البنت!

نهضت آناليا توريس واقفة، وشدت ثنيات زيها المدرسي، وحيت بانحناءة احترام خفـيفة، أقرب إلى السخرية، ثم خرجت. قدمت رئيسة الراهبات مزيداً من الشيكولاتة للرجل، وقالت له إن تفسيرها الوحيد، لهذا التصرف غير اللائق، هو قلة تواصل الفتاة مع أسرتها. وأضافت الراهبة بنبرة جافة:

- إنها التلميذة الوحيدة التي لا تذهب في إجازات على الإطلاق، والتي لم تصلها أية هدية في أعياد الميلاد قط.

- لستُ بالرجل الميال إلى التدليل. ولكنني أؤكد لك أني أحب ابنة أخي كثيراً. وقد حافظت على مصالحها، كأنني أبوها. ولكنك محقة، مع ذلك... آناليا بحاجة إلى الحنان؛ فالنساء عاطفـيات بطبعهن.

وقبل انقضاء ثلاثين يوماً، حضر العم مرة أخرى، إلى المدرسة. ولكنه لم يطلب مقابلة ابنة أخيه هذه المرة، بل اكتفى بأن أبلغ رئيسة الراهبات بأن ابنه يرغب في مراسلة آناليا. ورجاها أن توصل إليها رسائله، ليرى إذا ما كانت العلاقة الرفاقية، مع ابن عمها، قادرة على تعزيز الأواصر الأسرية.

بدأت الرسائل ترد بانتظام. ورق أبيض بسيط وحبر أسود، وكتابة بحروف كبيرة أنيقة. بعضها يتحدث عن الحياة في الريف، عن المواسم والمواشي، وأخرى عن شعراء ميتين،

وعن الأفكار التي كتبوها. وكان مغلف الرسالة يتضمن، في بعض الأحيان، زخرفة أو رسماً، بالخط الثابت نفسه. قررت آناليا عدم قراءة تلك الرسائل، وفاءً لفكرة أن كل ما له علاقة بعمها، يخبئ خطراً ما. ولكن الرسائل ما لبثت أن بدأت تمثل الإمكانية الوحيدة المتاحة لها، للتحليق في ضجر المدرسة. فصارت تختبئ في غرفة المهملات، لا لتبدع حكايات غير محتملة الحدوث، وإنما لتقرأ بنهم الرسائل التي يرسلها ابن عمها، إلى أن حفظت عن ظهر قلب أشكال الحروف، ونسيج الورق. ولم تكن ترد عليها في أول الأمر، ولكنها لم تستطع عدم فعل ذلك بعد وقت قصير. وراح مضمون الرسائل يصبح أكثر جدوى، في مغافلة رقابة رئيسة الراهبات التي تفتح كل المراسلات، وازدادت الروابط الحميمة بين الاثنين، وسرعان ما توصلا إلى الاتفاق على رموز سرية، وبدأا يتحدثان، من خلالها، في الحب.

لم تكن آناليا توريس تتذكر أنها رأت ابن عمها، ذاك الذي يوقع الرسائل باسم لويس، لأنها عندما كانت تعيش في بيت عمها، كان الفتى في مدرسة داخلية في العاصمة. لقد كانت واثقة من أنه رجل قبيح، وربما مريض أو مشوه، لأنه بدا لها من المستحيل أن يُضاف مظهر جذاب، إلى مثل تلك الحساسية العميقة، وذلك الذكاء الحاد. وكانت تحاول أن ترسم في ذهنها

صورة لابن عمها: مربوع القامة مثل أبيه، ووجهه محفور بالجدري، أعرج ونصف أصلع. ولكنها كلما كانت تضيف إليه مزيداً من العيوب، كانت تزداد ميلاً إلى حبه. فقد كان ألق الروح هو الشيء الوحيد المهم، والشيء الوحيد الذي يقاوم مرور الزمن، دون أن يناله التلف، ويتعاظم مع انقضاء السنوات. وتوصلت الفتاة إلى القناعة بأن جمال أولئك الأبطال الخياليين، في الحكايات، ليس له أي قيمة، بل يمكن له أن يتحول إلى مسوغ للتفاهة. ولكنها لم تستطع، مع ذلك، أن تُبعد ظلاً من القلق عن تفكيرها العقلاني ذاك. فكانت تتساءل عن مقدار التشوه الذي يمكنها أن تتحمله.

استمرت مراسلات آناليا ولويس توريس سنتين، تجمع لدى الفتاة خلالهما، ملء صندوق قبعة، من مغلفات الرسائل، وروح مستسلمة للحب نهائياً. فإذا ما خطر لذهنها أنه يمكن لتلك العلاقة، أن تكون خطة دبرها عمها، لكي تنتقل الممتلكات التي ورثتها عن أبيها إلى يدي لويس، كانت تستبعد تلك الخواطر فوراً، خجلة من ضغينة أفكارها. ويوم أكملت ثمانية عشر عاماً من عمرها، استدعتها رئيسة الراهبات إلى قاعة المقابلات، لأن زائراً بانتظارها. لقد خمنت آناليا توريس من يكون ذلك الزائر، وكانت على وشك الهرب، لتختبئ بين تماثيل القديسين المنسيين في مستودع المهملات، مذعورة من حتمية مواجهتها، أخيراً،

للرجل الذي طالما تخيلته. وعندما دخلت القاعة، ووقفت أمامه، احتاجت إلى عدة دقائق، كي تتغلب على خيبة أملها.

لم يكن لويس توريس ذلك القزم المعوج الذي رسمت صورته في أحلامها، وتعلمت أن تحبه. بل كان رجلاً كاملاً، لطيف الوجه، عادي القسمات، له فم لا يزال طفولياً، ولحية قاتمة ومشذبة جيداً، وعينان طويلتا الرموش، ولكنهما خاليتان من التعبير. لقد كان يشبه، إلى حد ما، قديسي المصلى. فهو جميل، وفــيه شيء من البلادة. سيطرت آناليا على الصدمة، وفكرت في أنها إذا كانت قد تقبلت في قلبها شخصاً أحدب، فلن تنقصها الأسباب، لتتمكن من محبة هذا الشاب الأنيق الذي يقبلها من وجنتها، مخلفاً في أنفها أثراً من عطر الخزامى.

* * *

منذ اليوم الأول لزواجها، بدأت آناليا تحس بالنفور من لويس توريس. فحين هصرها بين الملاءات المطرزة، على سرير شديد الطراوة، أدركت أنها قد أحبت شبحاً، وأنها لن تستطيع مطلقاً، نقل تلك العاطفة المتخيلة إلى واقع زواجها. قاومت مشاعرها بصرامة، في أول الأمر، معتقدة أنها مجرد نزوة. ولكنها حين لم تعد قادرة، في ما بعد، على مواصلة تجاهل تلك المشاعر، حاولت الوصول إلى أعماق روحها، لانتزاع مشاعر

النفور من زوجها من جذورها. لقد كان لويس مهذباً، بل مسلياً أحياناً، فلم يكن يزعجها بمطالب غير مناسبة، ولم يحاول تغيير ميلها إلى العزلة والصمت. بل لقد قدرت، هي نفسها، أنها بقليل من طيب النية، يمكنها أن تجد شيئاً من السعادة، في هذه العلاقة، حتى ولو بمقدار ما كانت ستحصل عليه، لو أنها اختبأت وراء مسوح راهبة. لم تكن لديها مبررات محددة لذلك النفور الغريب، من الرجل الذي أحبته طوال سنتين، دون أن تعرفه. ولم تكن قادرة كذلك، على التعبير عن مشاعرها بالكلام. ولكنها، حتى لو استطاعت ذلك، لما وجدت من تحدثه في الأمر. كانت تشعر بأنها قد خُدعت حين لم تستطع المواءمة بين صورة الخطيب الرسائلي، وهذا الزوج الذي من لحم وعظم. ولم يكن لويس يأتي على ذكر الرسائل مطلقاً، وإذا ما تطرقت هي إلى الموضوع، كان يطبق فمها بقبلة سريعة، وبعبارة متعجلة عن تلك الرومانسية، غير المناسبة للحياة الزوجية، حيث الثقة والاحترام، والمصالح المشتركة، ومستقبل الأسرة، أهم بكثير من مراسلات المراهقة. لم تقم بين الاثنين علاقة حميمة حقيقية؛ فكل منهما يهتم بمشاغله خلال النهار. وفي الليل يجدان نفسيهما بين وسائد الريش، حيث يخيل إلى آناليا ــ المعتادة على سرير المدرسة القاسي ــ أنها ستختنق. لقد كانا يتعانقان بسرعة في بعض الأحيان، فتكون هي جامدة ومتيبسة، بينما يفعل هو ذلك، كمن ينجز أحد متطلبات الجسد التي لا يمكن تجنبها، ثم ينام لويس بعد ذلك مباشرة، بينما تبقى هي مفتوحة العينين في

الظلام، وفـــي حلقها عبارة احتجاج عالقة. حاولت آناليا اللجوء إلى أساليب متعددة، للتغلب على النفور الذي يبعثه فـــيها، بدءاً من محاولة تثبيت كل تفاصيل زواجها، في ذاكرتها، لكي تحبه بإصرار، حتى تفريغ ذهنها من أي تفكير، والانتقال إلى بُعدٍ لا يستطيع الوصول إليه. كانت تصلي راجية أن يكون مجرد نفور عابر؛ ولكن الشهور كانت تمضي. وبدلاً من الراحة المنشودة، كانت الكراهية تنمو، حتى تحولت إلى حقد. وفـــي إحدى الليالي، فاجأت نفسها تحلم برجل دميم إلى حد مرعب، يداعبها بأصابع ملوثة بحبر أسود.

كان الزوجان توريس يعيشان في الأراضي التي امتلكها والد آناليا، حين كانت تلك المنطقة لا تزال شبه برية، لا يرتادها إلا الجنود وقطاع الطرق. ولكنها صارت الآن بجوار الطريق العام، وعلى مقربة من قرية مزدهرة، تقام فـــيها كل سنة مهرجانات زراعية، وأخرى لمربي الماشية. وقد كان لويس هو المسؤول، قانونياً، عن إدارة تلك الأملاك. ولكن العم أوخينيو، هو الذي كان يمارس هذه المهمة عملياً، لأن لويس يضيق ذرعاً بشؤون الحقول. وعندما كان الأب وابنه يجلسان، بعد الغداء، في المكتبة ليشربا الكونياك، ويلعبا الدومينو، كانت آناليا تسمع عمها وهو يتخذ القرارات، حول الاستثمارات والماشية، والبذار والمحاصيل. وفـــي المناسبات النادرة التي كانت تتجرأ فـــيها على التدخل، وإبداء رأيها، كان الرجلان يصغيان إليها باهتمام

ظاهري، ويؤكدان أنهما سيأخذان اقتراحاتها بعين الاعتبار. ولكنهما يتصرفان بعد ذلك على هواهما. فكانت آناليا تخرج ممتطية الحصان أحياناً، إلى المراعي، وتصل إلى حدود الجبل، متمنية لو أنها كانت رجلاً.

لم يُحسّن ميلاد ابن لهما من مشاعر آناليا تجاه زوجها. فقد ازدادت حدة طبعها الانزوائي خلال شهور الحمل، ولكن لويس عزا ذلك إلى حالتها. وقد كانت لديه، على أية حال، شؤون أخرى، تشغل تفكيره. وبعد ولادة الطفل، انتقلت هي إلى غرفة أخرى، لا يوجد فيها من الأثاث، سوى سرير ضيق وقاس. وعندما بلغ عمر الطفل سنة، وكانت الأم لا تزال تغلق باب حجرتها بالمفتاح، وتتجنب أي فرصة للانفراد بزوجها، قرر لويس بأن الوقت قد حان ليطالب بمعاملة أكثر لياقة، وحذّر زوجته بأنه من الأفضل لها أن تبدل سلوكها، قبل أن يخلع الباب بالقوة. لم تكن قد رأته مطلقاً بمثل ذلك العنف، فانصاعت دون مناقشات. وفي السنوات السبع التالية، ازداد التوتر بينهما، إلى أن تحولا إلى عدوين مستترين. ولكنهما كانا يتعاملان بلطف مبالغ فـــيه، أمام الآخرين. الطفل وحده كان يدرك مدى عمق العداء المستتر بين أبويه، فكان يستيقظ في منتصف الليل باكياً، وفراشه مبلل. أحاطت آناليا نفسها بقشرة قاسية من الصمت، وبدت كما لو أنها تجف في داخلها شيئاً فشيئاً. أما لويس بالمقابل، فأصبح أكثر تمادياً وطيشاً، وانصرف إلى متعه

المتعددة، فكان يكثر من الشراب، ويغيب عدة أيام، في مغامرات لا يمكن التصريح بها. وعندما لم يعد يواري ممارساته الماجنة، في ما بعد، وجدت آناليا في ذلك مبرراً للابتعاد عنه أكثر. وفقد لويس أي اهتمام بالأرض، فحلت زوجته محله، سعيدة بهذا الوضع الجديد. وصار العم أوخينيو، يبقى معها في غرفة الطعام، كل يوم أحد، ليناقشا القرارات، بينما يبقى لويس مستغرقاً في قيلولة طويلة، لا يستيقظ منها إلا عند الغروب، مبللاً بالعرق، ومعانياً تقلبات في معدته؛ ولكنه على استعداد، دائماً، للذهاب، مرة أخرى، إلى حفلات القصف مع أصدقائه.

علّمت آناليا ابنها مبادئ الكتابة والحساب، وحاولت أن توجهه نحو حب الكتب. وعندما أكمل الطفل سبع سنوات من عمره، قرر لويس بأن الوقت قد حان من أجل تعليمه بصورة رسمية، بعيداً عن تدليل الأم. وأراد إرساله إلى مدرسة في العاصمة، لعله يتحول بسرعة إلى رجل. ولكن آناليا وقفت في مواجهته بشراسة، فاضطر إلى الموافقة على حل أقل صرامة. وهكذا أخذه إلى مدرسة القرية، حيث يبقى من يوم الاثنين حتى يوم الجمعة. ولكن السيارة كانت تذهب لإحضاره صباح السبت، فـــيبقى في البيت حتى الأحد. في الأسبوع الأول تفحصت آناليا ابنها بجزع، باحثة عن أسباب تتيح لها أن تبقيه إلى جوارها، ولكنها لم تجدها. كان الصبي يبدو سعيداً، فهو يتحدث عن معلمه ورفاقه بحماسة بريئة، وكأنه ولد بينهم. كما أنه لم يعد يبول في

فراشه. وبعد ثلاثة أشهر، جاء حاملاً وثيقة درجاته، ورسالة تهنئة قصيرة من المعلم، على نتائجه الجيدة. قرأتها آناليا وهي ترتعش بانفعال، وابتسمت للمرة الأولى منذ زمن طويل. احتضنت ابنها بانفعال، وراحت تسأله عن كل التفاصيل: كيف هي غرف النوم في المدرسة، وماذا يقدمون لهم من طعام، وهل الجو بارد في الليل، وكم صديقاً لديه، وكيف هو معلمه. صارت تبدو أكثر اطمئناناً، ولم تعد تتحدث عن إخراجه من المدرسة. وقد حصل الصغير، في الشهور التالية كذلك، على درجات جيدة، كانت آناليا تجمعها كأنها كنوز، وتبعث هدايا إلى الصف كله، علباً من المربيات، وسلالاً من كل أنواع الفاكهة. وكانت تحاول ألا تفكر في أن هذا الحل لن يدوم إلا لمرحلة التعليم الابتدائي، وأنه لن يكون هناك مفر، بعد سنوات، من إرسال الطفل إلى مدرسة في المدينة، حيث لن تستطيع رؤيته عندئذ، إلا في الإجازات الصيفية.

في إحدى ليالي الصخب في القرية، أعرب توماس توريس، وكان قد أفرط في الشراب، عن استعداده لأداء قفزات بهلوانية، على حصان غريب، ليثبت مهارته كفارس، أمام جماعة من رفاق الشرب في الحانة. ولكن الحيوان ألقى به أرضاً برفسة من قائمته، وداس على خصيتيه. وبعد تسعة أيام من ذلك، قضى توريس نحبه، وهو يولول من الألم في أحد مستشفيات العاصمة، حيث كانوا قد نقلوه إلى هناك، آملين بإنقاذه من الالتهاب.

وكانت زوجته إلى جواره تبكي إحساسها بالذنب، لأنها لم تستطع منحه الحب، وراحتها لأنها لم تعد بحاجة لأن تصلي طالبة له الموت. وقبل أن ترجع إلى الريف، مع الجثة في تابوت، لتدفنها في أرضها بالذات، اشترت آناليا ثوباً أبيض، ودسته في قاع حقيبتها. وصلت إلى القرية بملابس الحداد. وكانت تغطي وجهها ببرقع أرملة، حتى لا يلحظ أحد تعابير عينيها، وقد وضعت البرقع في الجنازة أيضاً، وهي تمسك بيد ابنها، وترتدي ثوباً أسود. وبعد انتهاء المراسم الجنائزية، جاء العم أوخينيو الذي مازال يحتفظ ببنية قوية، رغم بلوغه السبعين، واقترح على كنته أن تتنازل له عن الأراضي، وتذهب لتعيش من ريعها في المدينة، حيث يمكن للطفل إنهاء تعليمه، ويمكنها هي أيضاً أن تنسى أحزان الماضي. وقال لها:

- أنا لم يفتني يا آناليا، أنك أنت وابني المسكين لويس، لم تكونا سعيدين على الإطلاق.

- معك حق يا عمي، فقد خدعني لويس منذ البداية.

- بالله عليك يا بنتي.. لقد كان رصيناً ومحترماً معك على الدوام. كان لويس زوجاً طيباً.. جميع الرجال لهم بعض المغامرات الصغيرة؛ ولكن ليس لهذا أية أهمية.

- ليس هذا ما أعنيه، وإنما الخدعة التي لا يمكن إصلاحها.

- لا أريد أن أعرف ما الذي تعنينه. وعلى أي حال، أظن

أنك ستكونين أنت والطفل أحسن حالاً في العاصمة. لن ينقصكما أي شيء. وأنا سأتولى إدارة الأراضي. صحيح أني عجوز ولكنني لم أنته بعد. فأنا لا أزال قادراً على طرح ثورٍ، أرضاً.

– سأبقى هنا. وابني سيبقى هنا أيضاً، لأن عليه أن يساعدني في أعمال الحقول. لقد عملت، في السنوات الأخيرة، في المراعي أكثر من عملي في البيت. والفرق الوحيد الآن، هو أنني سأتولى اتخاذ القرارات بنفسي، دون التشاور مع أحد. هذه الأراضي أصبحت لي وحدي أخيراً. الوداع أيها العم أوخينيو.

في الأسبوع الأول، نظمت آناليا حياتها الجديدة. فبدأت بإحراق الملاءات التي نامت عليها مع زوجها، وبنقل سريرها الضيق إلى الغرفة الرئيسية. ثم درست بعمق سجلات إدارة الأملاك. وما إن أصبحت لديها فكرة دقيقة عن ثرواتها، حتى بحثت عن مشرف مستعد لتنفيذ أوامرها، دون توجيه أسئلة. وعندما تأكدت من أنها قد أمسكت بزمام الأمور كلها، ووضعتها تحت مراقبتها، أخرجت ثوبها الأبيض من الحقيبة، وكوته بعناية، ثم ارتدته، وتزينت وذهبت في سيارتها إلى مدرسة القرية، حاملة تحت إبطها علبة قبعة قديمة.

انتظرت آناليا توريس في الباحة، إلى أن أعلن جرس الساعة الخامسة انتهاء الدرس المسائي الأخير، وخرج حشد الأطفال متزاحمين إلى الباحة. وقد خرج ابنها بينهم، وهو يركض

سعيداً. لكنه توقف فجأة عندما رآها، فقد كانت تلك هي أول مرة تأتي فيها أمه إلى المدرسة.

قالت له:

– أرني صفك. أريد التعرف على معلمك.

وعند الباب، أومأت آناليا للصغير بالانصراف، لأن المسألة خاصة، ودخلت وحدها. كانت القاعة واسعة وعالية السقف، على جدرانها خرائط، ورسوم بيولوجية. وكانت تفوح منها رائحة الحبس وعرق الأطفال نفسها التي أثرت في طفولتها، ولكن الرائحة لم تزعجها في هذه المرة، بل على العكس، فقد تنشقتها بتلذذ. كانت المقاعد في حالة من الفوضى بعد الاستخدام اليومي، وكانت هناك بعض قصاصات الورق، مبعثرة على الأرض، ومحابر مفتوحة. وتمكنت آناليا من رؤية عمود من الأرقام على السبورة. وفــي أقصى القاعة، وراء منضدة موضوعة فوق منصة، كان يجلس المعلم. رفع الرجل رأسه متفاجئاً، ولكنه لم ينهض واقفاً، لأن عكازيه كانا بعيدين، في الركن، لا يمكنه الوصول إليهما دون جر كرسيّه. اجتازت آناليا الممر بين صفــين من المقاعد، وتوقفت أمامه.

– أنا أم التلميذ توريس. قالت ذلك، لأنه لم يخطر لها قول أي شيء آخر.

– مساء الخير يا سيدتي. وأنتهز هذه الفرصة لأشكرك على

الحلوى والفاكهة التي أرسلتها إلينا.

فقالت آناليا، وهي تضع علبة القبعة على الطاولة:

- فلندع هذا الكلام، لأني لم أحضر من أجل المجاملات. لقد جئت لأطالبك بتصفـــية حساب قديم.

- ماذا تعنين؟

ففتحت العلبة، وأخرجت رسائل الحب التي خبأتها طوال تلك السنين. ومرّ هو ببصره، في لحظة، على كومة المغلفات.

قالت آناليا:

- أنت مدين لي بإحدى عشرة سنة من حياتي.

فتلعثم هو، عندما تمكن من إخراج صوته الذي انحبس في مكان ما:

- كيف عرفتِ أنني من كتبها؟

- في يوم زفافـــي بالذات، اكتشفت أنه لا يمكن أن يكون زوجي هو من كتبها. وعندما أحضر ابني سجل درجاته الأول إلى البيت، تعرفت على الخط فوراً. وحين رأيتك الآن، لم يعد لدي أي شك، لأني كنت قد رأيتك في أحلامي، مذ كنتُ في السادسة عشرة من عمري. لماذا فعلت ذلك؟

- كان لويس توريس صديقاً لي. وعندما طلب مني كتابة رسالة إلى ابنة عمه، بدا لي أنه ليس في ذلك أي سوء. وهذا ما حدث في الرسالة الثانية ثم الثالثة. ولكنني لم أعد قادراً على

التوقف، عندما جاءني ردك بعد ذلك. لقد كانت تانك السنتان، أفضل فترة في حياتي؛ فهي الفترة الوحيدة التي كنت أنتظر خلالها شيئاً.. كنت أنتظر البريد.

- والآن.

- أيمكنك أن تغفري لي؟

فقالت آناليا، وهي تقدم إليه العكازين:

- الأمر يعتمد عليك.

لبس المعلم سترته ونهض. ثم خرجا معاً إلى الباحة الصاخبة، حيث لم تكن الشمس قد غابت بعد.

برناردو كوردون

Bernardo Kordon[١]

الإضراب الأخير للزبالين

La última huelga de basureros

وقعت الحادثة، في صباح يوم ٢٢ كانون الأول. فالشاحنة ذات الرقم ٢٠٧، من طراز دودج، والتابعة للإدارة العامة

---

(١) ولد برناردو كوردون في العاصمة الأرجنتينية بوينس آيرس عام ١٩١٥. دخل عالم الأدب بنشر روايته «آفاق إسمنتية» عام ١٩٤٠. مارس كتابة مختلف الأجناس الأدبية، لكنه برز في مجال القصة القصيرة. وصار واحداً من أبرز كتّاب القصة القصيرة في أميركا اللاتينية. نُقلت قصته «الشهير بغارديليتو» إلى السينما، وحققت للمؤلف شعبية واسعة. ينقل بأسلوبه الواقعي المحكم، مزيجاً من الجنون والعنف والأمل الذي تعيشه الفئات الهامشية في مجتمع استهلاكي، وأولئك الذين تشكل المدينة بالنسبة لهم مسرحاً مؤلماً وغيرياً، عليهم أن يجتازوه يوماً بعد يوم، دون توقف. من أبرز أعماله القصصية، المجموعات التالية: متشرد في تومبوكتو. (١٩٥٦). يوم أحد على النهر. (١٩٦٠). أحسِن إلى الناس. (١٩٦٨).

للتنظيفات، كانت تمارس عملها المعتاد، في شارع أريناليس. طاقم الشاحنة المؤلف من أربعة عمال، كان موزعاً في عمله: اثنان على كل رصيف. بينما كانت الشاحنة تقف في منتصف الطريق. وهذا هو الأمر الذي أثار اعتراض رجل الأعمال اسيدورو كاموسو، البالغ من العمر ٤٥ سنة، عندما كان يقود سيارته التي من طراز فالينت، ذات اللوحة رقم ٩٠٤ــ٥٩٧ من مدينة بوينس آيرس.

أطلق أسيدورو كاموسو نفــير سيارته، عدة مرات، ليطلب من الشاحنة أن تفسح له الطريق. فأطل سائق الشاحنة من قمرة القيادة، وألقى نظرة ساهية على صاحب السيارة الغاضب، دون أن يحرك شاحنته الثقيلة بوصة واحدة. وفـــي هذه اللحظة بالذات، كان جامعو القمامة يحملون أوعية القمامة الضخمة، الخاصة بالعمارات ذات الأرقام: ١٨٥٦، و١٨٥٨/ ١٨٤٥، ١٨٤٩ من شارع أريناليس، وهي أبنية غير مجهزة بوسائل لحرق الفضلات. وإذا كنا قد أشرنا إلى أن السائق، أوقف شاحنته في منتصف الشارع، معرقلاً بذلك حركة المرور، وأبدى عدم اكتراث ببذاءات سائق السيارة الصغيرة المتعجل، فإنه علينا، من جهة أخرى، أن نأخذ في حسابنا بعض قواعد العمل الأولية. ففـــي منتصف الشارع، تكون الشاحنة على بعد متساو، عن العمال الذين يحملون القمامة عن كل رصيف من الرصيفــين. وهذا تفصيل له أهميته، عندما نضع في الحسبان

أن أوعية القمامة ثقيلة جداً، وحملها مزعج. ولم يحدث قط، بالطبع، أن قام سائق شاحنة لجمع القمامة، بتقديم هذا التفسير أو أي تفسير آخر إلى سائقي السيارات الصغيرة عديمي الصبر، وإنما كان يكتفـــي دائماً بإلقاء نظرة غير مبالية إليهم، من قمرته التي ترفعه بضعة أمتار عن الأرض. ومع أن هذا التصرف، هو عادة من عادات سائقي شاحنات القمامة، فإن اسيدورو كاموسو، لم يتوقف عن هياجه. بل إنّه أتبع صوت النفـــير بعدة شتائم، ثم أدار محرك سيارته، وقد قرر أمراً.

فـــي نهاية السنة، ترتفع عادة حرارة الجو. ويرتفع كذلك التوتر العصبي في مدينة بوينس آيرس. ويحدث هذا التوتر على كل المستويات، وفـــي دخيلة كل فرد. وفـــي هذه السنة، لم يكن عمال التنظيفات قد تلقوا مكافأة العيد، وقد انتشرت إشاعة نقابية تقول إن الإدارة لم تفكر حتى في إمكانية دفعها هذه السنة. أما رجل الأعمال كاموسو، فقد وضع خطة لمقابلة عدة هيئات مصرفـــية، في هذا اليوم بالذات، ليطلب القروض التي تمكنه من دفع إكراميات العيد للعمال الذين يهددون باحتلال مصنعه. وبينما هو خاضع لهذه المشاكل، قام بمحاولة يائسة: أدار عجلة القيادة إلى أقصى مدى، وصعد على الرصيف بالعجلتين الجانبيتين. وهكذا استطاع المرور بمحاذاة الشاحنة. فأطل برأسه من النافذة وصرخ:

- يا زبالة! عليكم التوقف إلى جانب الطريق!

لم يكن لدى الرجل الذي في قمرة قيادة الشاحنة، الوقت الكافـــي للرد عليه، ولم يكن بإمكانه كذلك أن يلحق به في شاحنته الثقيلة. كان سائق السيارة الصغيرة الغاضب، قد حسب كل ذلك بدقة. والمؤسف أنه في هذه اللحظة، ظهر أحد العمال، وهو يحمل فوق رأسه وعاء قمامة. وبحركة خفـــيفة ودقيقة من ذراعيه، كحركات لاعبي كرة السلة، أدخل الوعاء الممتلئ، في سيارة الـــ «فالينت»، من خلال النافذة الخلفـــية.

سمع اسيدورو كاموسو دوي الزجاج، وفكر في الحال: سيدفع التأمين ذلك. ولكن، ما إن التفت إلى الوراء، حتى رأى شيئاً لا يمكن لأي تعويض تغطيته. فالشرف لا ثمن له. وقد رأى رجل الأعمال أنه طُعن في صميم مكانته الاجتماعية: فقد كان وعاء القمامة منثوراً على المقعد الفاخر. لقد أحس بعفونة البؤس والموت تملأ سيارته، وتمزق قلبه. أوقف المحرك، وقفز من السيارة ليواجه المذنب. وكان هذا شاباً، مفتول العضلات بصورة مثيرة. ولكن رجل الأعمال لم يسمح للخوف بالسيطرة عليه، بسبب هذا التفصيل. سيعتقله حتى لو هدده الشاب، أو طلب منه الصفح جاثياً. سيؤدب هذا الحيوان، حتى لو كلفه ذلك الصباح بطوله... أو اليوم كله. ولكن الشخص الذي رماه بوعاء القمامة، أبدى دهاء غريباً؛ فقد فتح عينيه على اتساعهما، كمن لا يعي شيئاً، وفتح ذراعيه متأسفاً:

– المعذرة يا سيدي. لقد انزلق الوعاء مني. يا للحماقة!

ثم نادى على رفاقه:

– هلموا أيها الشباب. لقد وقع حادث هنا!

ورأى كاموسو نفسه محاطاً بأربعة عمالقة، عيونهم حازمة، وأفواههم ساخرة. أحس بالرعب والحقد. عاد ليدخل في سيارته، ولكن قهقهات هؤلاء الرجال كانت لا تطاق.. كانت كأنها تحقن دماغه بحمض. أخرج المسدس من قرابه، وخرج من السيارة مرة أخرى، ليواجه العمال. أطلق النار على الذي رماه بوعاء القمامة. رآه يهوي كأنه ينزلق على الأرض، ثم لم يعد يرى شيئاً؛ فقد طُرح اسيدورو كاموسو أرضاً، وديس بالأقدام، ثم هشموا رأسه بوعاء قمامة. بعد ذلك حمل العمال الشاب الجريح إلى قمرة الشاحنة، وألقوا جسد كاموسو في الصندوق الخلفـــي. أدار السائق جهاز كبس القمامة، والتهمت شاحنة الزبالة رجل الأعمال كاموسو.

استنفرت الشرطة. وانحدرت سيارة دورية، مجهزة بلاسلكي، بأقصى سرعة، في شارع بيلغرانو، لتطارد شاحنة القمامة التي كانت تهرب باتجاه الجنوب، عبر شارع كومباتي دي لوس بوثوس. وعند مستوى شارع انديبنديسيا، تمكن رجال الشرطة من تجاوز الشاحنة. وعند تقاطع شارع سان خوان، قامت سيارة الدورية بالوقوف، في عرض الشارع لتمنع المرور. ولكن الشاحنة لم تخفف من سرعتها. وقد أعلن الشهود بأن شاحنة الدودج، لم تحاول التوقف، وإنما ضاعفت من سرعتها، لتنطح

سيارة الشرطة بقوة أكبر. ومن بين صفائح سيارة الشرطة المعصورة، استُخرجت ثلاث جثث، وجريح في حالة خطرة. تابعت الشاحنة مسيرها باتجاه الجنوب، وانطلقت دوريات أخرى لمطاردتها. تمكنت سيارتان من سيارات الدورية، من اللحاق بالشاحنة الهاربة، وفتح رجال الشرطة نيران مسدساتهم ورشاشاتهم عليها، فوقع أربعة قتلى (بين المارة)، ولكن الشاحنة تابعت طريقها، محمية بهيكلها الفولاذي. عندئذ انتشرت الإشاعة القائلة، بأن هناك أوامر، لأسباب سياسية ونقابية، باعتقال أو إطلاق النار على جميع الزبالين. وفـــي الحال، أذيع الخبر من إذاعة في الأروغواي، فاتجهت جميع شاحنات جمع القمامة التي كانت في شوارع بوينس آيرس، بأقصى سرعة، إلى موقع تجميع النفايات في الجنوب. عشرون، خمسون، ثلاثمائة شاحنة قمامة، وصلت من جميع أنحاء المدينة، وملأت جادة الكورتا العريضة، وتمركزت في ملعب نادي هوراكان، وفـــي مجمعات القمامة المجاورة، وحول مستودع الغاز الذي ينتصب شاحباً، في حي باتريثيوس. لم تتحمس سيارات الدورية في الاقتراب من الشاحنات التي اصطفت في وضع قتالي، وقد أدارت محركاتها، مستعدة للمناطحة بتصفـــيحها المتين. وفـــي أثناء ذلك، كان اجتماع لمندوبي عمال الإدارة العامة للتنظيفات، يصرح بأن النقابة التي تعرضت لإطلاق النار، ظلماً، على يد أوليغاركي متعجرف أولاً، ثم على يد الشرطة بعد ذلك، قررت إعلان

الإضراب المفتوح. اجتمعت السلطات البلدية بدورها، واستمعت إلى رئيس البلدية الذي أكد، وهو يغمز بعينه صوب ممثلي الصحافة، أن التصرف الأمثل والأذكى، هو «ترك أيام الأعياد هذه تمر. وفـــي أثناء ذلك، سوف يتحلل الإضراب تلقائياً».

انقضت أيام أعياد السنة الجديدة، والاحتفال بها يجري في بوينس آيرس، كما هو معروف، بالأكل دون حساب. فارتفعت في كل الأنحاء، أكوام من فضلات الأعياد. صدرت الأوامر بإشعال النار فـــيها، ولكنها كانت حرائق فاشلة، فبدلاً من اشتعال القمامة، أطلقت دخاناً كثيفاً وكريهاً، جعل رائحة الفضلات أشد نتانة. وهكذا انكشفت نوعية زبالة بوينس آيرس العصية على التلف، وكذلك خاصيتها العجيبة بالتكاثر في متوالية رياضية. عند ذلك، هرعت السلطات البلدية المذعورة، لاستشارة القوات المسلحة. رفض الجيش جمع الزبالة، بعد تقييم هذا العمل بأنه من الأعمال الخاصة بالمدنيين. وإضافة إلى ذلك، فقد كان معروفاً للجميع، أن انقلاباً عسكرياً يجري تدبيره للشهور القريبة القادمة. وهكذا لم يكن الظرف مناسباً لإنزال الوحدات العسكرية إلى الشارع، لا سيما في مهمة منهكة ومهينة كهذه. وعند دعوته إلى قصف حصن الزبالين المتمردين، أعلن قائد القوى الجوية، أن سحابة الدخان الكثيفة التي تغطي المدينة، تجعل من المستحيل تنفـــيذ أي عملية من الجو. أما بالنسبة

للسادة ضباط البحرية الحربية، فقد كانوا يمضون إجازات في منتجعات، ومراكز استجمام مختلفة، في أنحاء البلاد.

ولعدم توفر القوة، رأت السلطات البلدية أنها مضطرة للجوء إلى القانون. فصدر قانون يمنع إلقاء القمامة أمام الأبواب الخارجية للبيوت، تحت طائلة العقوبة بالحبس الذي لا يمكن استبداله بالغرامة. ولكن هذا القانون لم ينفذ، إلا في مناسبات نادرة جداً، فلم يكن ثمة من يلقي القمامة أمام بيته، بل كان كل شخص، يفضل فعل ذلك أمام بيت جاره. وقد أدى اتخاذ إجراءات أكثر صرامة، إلى نتيجة تجارية غريبة: فخلال أيام قليلة، نفدت من المحال التجارية جميع الأوراق المزركشة، والشرائط الملونة، والمواد الأخرى التي تستخدم في تغليف الهدايا. وصار الجميع يخرجون من بيوتهم، وعلى وجوههم إمارات بهجة الأعياد، وهم يحملون علباً مزينة، وأسفاطاً منمقة. وغالباً ما كانت محتويات هذه العلب والأسفاط هي ذاتها: قمامة (مرسلة من مجهول إلى أسماء أصدقاء وأقارب وهميين). لم يكن أحد، في الحقيقة، يحتفظ بزبالته، وكان الجميع بالمقابل، يتعثرون بزبالة الآخرين. وهكذا جرى كل شيء على عكس ما قدره رئيس البلدية: فليس الإضراب هو الذي تحلل، وإنما المدينة بكاملها. عندئذ، قرر إرسال موظف لمفاوضة الزبالين المضربين. ولدى عودته، حمل المبعوث معه أخباراً لا تبعث على الطمأنينة. فالزبالون ما عادوا يعتبرون أنفسهم كذلك.

والمنطقة التي يحتلها المضربون، كانت تلمع بنظافة كاملة. وبدلاً من كونها مجمعاً للقمامة في المدينة، كما هي الحال في السابق، أصبحت منطقة معقمة، وسط مجمع القمامة الفسيح. وصار عدد عمال التنظيفات المجتمعين في ذلك القطاع، كبيراً إلى درجة أن التطبيق الواعي لمهنتهم، ما عاد يتطلب منهم أكثر من ساعة عمل واحدة في اليوم. أما بقية الوقت، فكانوا يشغلونه في التفكير.

وقال رئيس البلدية متوهماً:

– أتعني أنهم بدؤوا يشعرون بالندم؟

فرد المبعوث متأسفاً:

– لا يبدو عليهم ذلك.

– وهل أخبرت المضربين عن حال المدينة؟

– ولم يفاجئهم ذلك كثيراً. وقالوا إنهم كانوا قد لاحظوا، أن القمامة تولّد كل يوم مزيدا من القمامة، ولاشيء سوى القمامة. وهم الآن يرفضون جمعها. ويقولون إن الوقت قد فات.

– Nous Soummes Foutues(*). هكذا هتف أمين الثقافة، وبعد أن منح نفسه جائزة الشعر الكبرى، اختفى من القصر، مضيفاً بذلك إلى آلاف الاحباطات، الخذلان الروحي لدى الجماعة.

(*) العبارة بالفرنسية في الأصل، ومعناها: "لقد انتهينا".

بعد تجميعها الكبير، أخذت جبال الفضلات تنهار. وتقدمت في الشوارع كالسيل، محولة إلى قمامة، كل ما تصادفه في طريقها من تماثيل، وإشارات مرور، ومارة، وأجهزة مراقبة، وأي شيء آخر من ممتلكات البلدية. وصار سكان بوينس آيرس يفضلون عدم الخروج من بيوتهم، وإذا كان ذلك قد اقتضى مقالات صحفــية مطولة وبليغة، حول ضرورة استعادة التقاليد المنزلية الصحية، فإن القمامة في الحقيقة، صارت تتكاثر، منذ ذلك الحين، داخل البيوت، كتكاثرها في الشوارع. وكان التياران كلاهما يلتقيان من خلال الأبواب والنوافذ، بضجة تداخل مشؤومة. وبعد الإقرار بأن الورق المطبوع يشكل، على الدوام، الجزء الأعظم من الزبالة، إضافة إلى أنه كان يستخدم، كما رأينا من قبل، كوسيلة للصر والتمويه في عملية تهريب الفضلات، فقد تقرر منع إصدار الصحف والمجلات. فأثار هذا التقييد على حرية الصحافة قلقاً عالمياً، وشكلت برقيات الاحتجاج، المرسلة من نقابات الصحفــيين العالمية، أطناناً من الورق غطت، القصر البلدي كله تقريباً.

وفــي هذه الأثناء، حدث أن ظهر ذلك العجوز الذي لا تغطي جسده سوى ملاءة بالية. صعد ذلك المتشرد، أو النبي، إلى أعلى جبل القمامة المدخن، وأشار إلى جهة الغرب. لم يعرف أحد أبداً ما قاله (إذا كان قد قال شيئاً)، ولكن صفاً طويلاً تشكل، حينئذ، من المنسحبين الذين راحوا يغادرون المدينة.

وأحرق الموظفون ذوو المراتب العالية أنفسهم، وهم أحياء، في إشارة إلى احتجاجهم (على طريقة البوذيين الفيتناميين)، ولكنهم لم يتوصلوا بذلك إلى أية نتيجة، سوى إغناء تشكيلة الفضلات والنتانة بجثثهم، ودون التمكن بتصرفهم هذا، من وقف نزوح دافعي الضرائب للبلدية.

وبينما كانت القافلة تمر خارج المدينة، قبالة أبراج الإذاعة والتلفزيون، سمع المهاجرون الخبر الرسمي الأخير: «في أوج مرحلة إعادة البناء الاقتصادي. انطلق سكان العاصمة، والغبطة تملؤهم، في رحلة لقضاء إجازاتهم المستحقة...» انقطع صوت المذيع فجأة، وخيم صمت ثقيل، في اللحظة التي غطت بها القمامة أبراج البث تماماً. سيول من القمامة كانت تلتقي، لتتحد من جديد في اللغة الدائرية للأفعى التي تلتهم نفسها. وبلا بداية أو نهاية، تدفقت المادة الجوهرية للكون، في قوة فسفورية رجراجة، بلا جاذبية، والتهمت قافلة الهاربين، وراحت تمحو ذكرى المدينة. وبقيت هناك بطحاء نقية وكئيبة ـــ كتلك التي حلم بها الزبالون المضربون ـــ تنتظر التأسيس الجديد لمدينة بوينس آيرس.

خوان رولفو

Juan Rulfo(١)

تـالبـا

Talpa

اندست ناتاليا بين ذراعي أمها، وبكت هناك طويلاً، بكت بكاء خافتاً. كان بكاء حبسته أياماً عديدة، واحتفظت به إلى حين

---

(١) ولد خوان رولفو في مقاطعة خاليسكو المكسيكية عام ١٩١٨، وتوفي في مدينة مكسيكو عام ١٩٨٦. عاش في طفولته الانتفاضات الفلاحية التي عصفت بالمكسيك، وكانت أشد عنفاً في مقاطعته منها في مناطق البلاد الأخرى. وقد كان لهذه التجربة أثر كبير في تكوينه الأدبي اللاحق. توفي أبواه منذ طفولته المبكرة، فعاش عدة سنوات في ملجأ للأيتام، واضطر إلى العمل منذ سنوات صباه. بدأ حياته الأدبية بالكتابة لمجلة «خبز» التي كانت تصدر في مدينة غوادي لاجارا، حيث ظهرت قصصه القصيرة الأولى. انتقل إلى مدينة مكسيكو، وهناك كتب ونشر مجموعته القصصية «السهب الملتهب» عام ١٩٥٣، وروايته الشهيرة «بيدرو بارامو» (١٩٥٥). عكس في قصصه القصيرة، حياة الفلاحين البائسة والموحشة في مقاطعة خاليسكو، حيث الأرض الجافة القاحلة، وصراع أولئك الفلاحين في سبيل الحياة، تحت ظروف قاسية من الظلم الاجتماعي. بالرغم من أن رولفو لم يكتب سوى رواية واحدة ومجموعة قصصية تضم خمس عشرة قصة قصيرة، فإنه برز كأحد ممثلي الرواية الأمريكية اللاتينية المعاصرة. كتب عدداً من السيناريوهات السينمائية. ومثّل دوراً قصيراً مع لويس بونويل وغابرييل غارسيا ماركيز، في فيلم مأخوذ عن قصة «لا يوجد لصوص في هذه القرية» لغارسيا ماركيز.

رجوعنا، الآن، إلى ثنثونتلا، ورؤيتها أمها، حيث بدأت تحس بالرغبة في المواساة.

ولكنها قبل الآن، مع ذلك، في خضم جهود أيام شاقة طويلة، عندما كان علينا أن ندفن تانيلو في حفرة بأرض تالبا، دون أن يساعدنا أحد، عندما جمعنا، أنا وهي، كلانا وحدنا، قوانا وأخذنا نحفر القبر، ونُخرج التراب بأيدينا – متعجلين مواراة تانيلو في الحفرة، بأسرع ما يمكن، كيلا يواصل إفزاع أحد برائحته المترعة بالموت –، حينذاك لم تبكِ.

ولم تبكِ كذلك في ما بعد، في طريق العودة، عندما جئنا ماشيين في الليل، دون أن نعرف الراحة، ونحن نمشي متلمسين طريقنا كالنيام، ونطأ الأرض بخطوات، كأنها وقع ضربات على قبر تانيلو. كانت ناتاليا تبدو في تلك الأثناء صلبة. تضغط قلبها، كيلا تشعر به يدوي في داخلها. ولكن دون أن تخرج دمعة واحدة من عينيها.

جاءت إلى هنا لتبكي، مستندة إلى أمها، لمجرد أن تستدر حزنها، وتجعلها تعرف أنها تعاني، ولكي تستثير، في أثناء ذلك، حزننا جميعنا، لأنني أحسست أنا أيضاً، ببكائها ذاك في داخلي، كما لو أنها تعتصر ممسحة خطايانا.

لأن الحقيقة هي أننا، أنا وناتاليا معاً، قد قتلنا تانيلو سانتوس. لقد أخذناه إلى تالبا كي يموت. وقد مات. كنا نعرف أنه لن يتحمل مشقة تلك الطريق الطويلة، ولكننا اقتدناه مع ذلك، ونحن

ندفعه قُدماً فـــيما بيننا، مفكرين في القضاء عليه إلى الأبد. وهذا ما فعلناه.

فكرة الذهاب إلى تالبا جاءت من أخي تانيلو. لقد خطرت له الفكرة قبل أن تخطر لأي شخص آخر. منذ سنوات كان يطلب منا أن نأخذه. منذ صباح ذلك اليوم الذي استيقظ فـــيه، ليجد بثوراً بنفسجية، منتشرة على ذراعيه وساقيه. وعندما تحولت تلك البثور، فـــيما بعد، إلى قروح، لا تنزّ دماً، وإنما مادة صفراء مثل صمغ شجري، يتقطر منها ماء لزج. منذ ذلك الحين، وأنا أتذكر ذلك جيداً، أخبرنا بمدى شعوره بالخوف من عدم الشفاء. ولهذا، كان يريد الذهاب لزيارة العذراء، شفـــيعة مدينة تالبا؛ لكي تُشفـــي، بنظرتها، تلك القروح. مع أنه كان يعرف أن تالبا بعيدة، وأن علينا أن نسير طويلاً، تحت شمس أيام آذار، ولياليه الباردة. لقد كان يريد الذهاب بالرغم من ذلك. فالسيدة العذراء ستوفر له العلاج، لتهدئة تلك القروح التي لا تجف أبداً. إنها تعرف كيف تفعل ذلك: تغسل القروح، وتجعل كل شيء جديداً من جديد، مثل حقل هطلت عليه الأمطار للتو. فهناك، أمامها، ستنتهي أمراضه، ولن تعاوده الآلام بعدها. هذا ما كان يفكر فـــيه.

وقد انتهزنا، أنا وناتاليا، تلك الفرصة، لنأخذه. كان عليّ أن أرافق تانيلو، لأنه أخي. وعلى ناتاليا أن تذهب أيضاً، على أية حال، لأنها امرأته. عليها أن تساعده، باقتياده من ذراعه،

وإسناده إلى كتفــيها، في طريق الذهاب، وربما أيضاً في طريق العودة، بينما هو يجرجر آماله.

لقد كنت أعرف، من قبل، ما يعتمل في نفس ناتاليا. فقد كنتُ أعرف شيئاً عنها. أعرف مثلاً أن ساقيها مدورتان، صلبتان، وأنهما ساخنتان، مثل حجرين تحت شمس الظهيرة، وأنهما وحيدتان منذ وقت طويل. لقد كنتُ أعرف كل هذا. وقد التقينا معاً، مرات كثيرة؛ ولكنّ شبح تانيلو كان يفصل بيننا دائماً: نحس بأن يديه المغطاتين بالبثور، تندسان في ما بيننا، وتقتادان ناتاليا لكي تواصل رعايته. وستبقى الحال على هذا المنوال ما دام حياً.

أنا أعرف الآن أن ناتاليا نادمة على ما جرى. وأنا نادم أيضاً. ولكن هذا لن يخلصنا من تأنيب الضمير، ولن يمنحنا أي إحساس بالطمأنينة إلى الأبد. لا يمكن أن تطمئننا معرفة أن تانيلو كان سيموت في كل الأحوال، لأن أجله قد حان، وأنه لن يستفــيد شيئاً من الذهاب إلى تالبا؛ هناك بعيداً، لأنه سيموت، بكل تأكيد، سواء أكان هناك أم هنا. أو ربما كان سيعيش هنا أكثر قليلاً من هناك، لأن كل عذابه في الطريق، والدم الإضافــي الذي فقده، والتحمل، وكل شيء... كل هذه الأشياء معاً هي التي عجلت بموته. السيئ في الأمر أننا، أنا وناتاليا، اقتدناه مكرهاً، عندما لم يعد راغباً في مواصلة المسير، عندما أحس بأنه لا جدوى من المواصلة، وطلب منا أن نعيده. كنا

نشده للنهوض به عن الأرض، كي يواصل السير، قائلين له إنه لم يعد بإمكاننا الرجوع.

«لقد صارت تالبا أقرب إلينا من ثينثونتلا.» هذا ما كنا نقوله له. ولكن تالبا كانت لا تزال حينذاك، بعيدة؛ يتطلب الوصول إليها عدة أيام.

ما كنا نريده هو أن يموت. وليس من غير الصحيح القول، إن هذا ما كنا نتمناه، منذ ما قبل خروجنا من ثينثونتلا، وفي كل ليلة من الليالي التي أمضيناها في الطريق إلى تالبا. إنه شيء لا يمكن لنا فهمه الآن، ولكنه كان ما نتمناه في ذلك الوقت. إنني أتذكر ذلك جيداً.

أتذكر جيداً تلك الليالي. في البدء كنا نستضيء بقطع من خشب الأوكوتي. ثم نغادر، ناتاليا وأنا، بعد ذلك الظل، لنختبئ من ضوء السماء. وهكذا كنا نلوذ بعزلة الريف، بعيداً عن عيني تانيلو، ومختفيين في ظلمة الليل. وكانت تلك الوحدة تدفع أحدنا إلى الآخر. فتضع بين ذراعيّ جسد ناتاليا، ويكون ذلك علاجاً لها. تحس معه كما لو أنها تستريح، تنسى أشياء كثيرة، ثم تغفو بعد ذلك، وقد غرق جسمها في راحة عظيمة.

وما كان يحدث، على الدوام، هو أن تكون الأرض التي ننام عليها دافئة. فيسخن على الفور لحم ناتاليا، زوجة أخي تانيلو، من سخونة الأرض. فيشعر أحدنا، من اجتماع السخونتين، بالاحتراق، فيستيقظ من نومه. وعندئذ تمضي يداي في إثرها؛

تذهبان وتجيئان على تلك الكتلة الشبيهة بالجمر التي هي جسدها؛ في البدء بنعومة، ولكنهما تضغطان بعد ذلك، كما لو أنهما تريدان اعتصار دمها. وهكذا مرة بعد أخرى، وليلة بعد أخرى، حتى مجيء الفجر، عندما يطفئ الهواء البارد لهيب جسدينا. هذا ما كنا نفعله، ناتاليا وأنا، على جانب الطريق إلى تالبا، عندما أخذنا تانيلو، لتخفف السيدة العذراء من آلامه.

لقد انقضى الآن كل شيء. فقد تخفف ناتيلو، واستراح حتى من الحياة. وما عاد بإمكانه قول شيء عن المشقة العظيمة التي كانت تعنيها له الحياة، بذلك الجسد شبه المُسمَّم، المترع في داخله، بسائل عفن، يخرج من كل قرح في ساقيه أو ذراعيه. فقد كانت تلك القروح الكبيرة، بهذا الحجم، تنفتح ببطء، ببطء شديد، لتخرج منها، بعد ذلك، فقاعات هواء نتنة، تبعث فـــينا جميعنا الذعر.

ولكن، بعد أن مات الآن، صارت النظرة إلى الأمر مختلفة. فناتاليا تبكي عليه الآن. ربما لكي يرى، من المكان الذي هو فـــيه، حجم تأنيب الضمير الهائل الذي يُثقل على روحها. وهي تقول إنها أحست بوجه تانيلو، في هذه الأيام الأخيرة. وكان الوجه هو الشيء الوحيد منه الذي ينفعها؛ وكان وجه تانيلو، مبتلاً على الدوام بالعرق الذي يخلفه الجهد المبذول، لتحمل آلامه. تحس بوجهه، يدنو من فمها، يختبئ بين شعرها، طالباً منها، بصوت واهن، أن تساعده. تقول إنه أخبرها بأنه قد

شفـــي تماماً، أخيراً؛ وأنه لم يعد يعاني من أية آلام. «صار بإمكاني أن أكون معك يا ناتاليا، ساعديني على أن أكون معك»، تقول إنه قال لها ذلك.

لقد غادرنا مدينة تالبا، وتركناه هناك مدفوناً، عميقاً، في تلك الحفرة العميقة التي حفرناها لدفنه.

ومنذ ذلك الحين، نسيتني ناتاليا. أنا أعرف كيف كانت عيناها تلمعان من قبل، كما لو أنهما بركتا ماء، يضيئهما القمر. لكنهما فقدتا البريق فجأة، وانمحت نظرتهما، كما لو أنهما قد تعفرتا بالتراب. وبدتا كأنهما لا تريان شيئاً. كل ما هو موجود، بالنسبة لها، صار يقتصر على تانيلو الخاص بها، تانيلو الذي عُنيت به، حين كان حياً، ودفنته عندما كان عليه أن يموت.

احتجنا إلى عشرين يوماً، من أجل العثور على الطريق العام إلى تالبا. وكنا نمضي، حتى ذلك الحين، نحن الثلاثة وحدنا. وبعد ذلك، بدأنا نلتقي بأناس يخرجون من كل الأنحاء؛ أناس التحقوا، مثلنا، بذلك الطريق العريض الذي يشبه تيار نهر، فكنا نمشي فـــيه متجرجرين، مدفوعين من كل الاتجاهات، كما لو أننا مقيدون إلى بعضنا بألياف من الغبار. فقد كان يتعالى، من الأرض، وسط ازدحام الناس، غبار أبيض كأنه دقيق الذرة، يصعد عالياً ثم يعود للسقوط؛ لكن الأقدام، في مسيرها، تعيده وتدفعه عالياً من جديد. وهكذا كان ذلك الغبار فوقنا وتحتنا على

الدوام. وفوق تلك الأرض، كانت السماء الخاوية، بلا غيوم، وبلا أي شيء سوى الغبار. ولكن الغبار لا يوفر أي ظل.

كان علينا أن ننتظر حلول الليل، كي نستريح من الشمس، ومن نور الطريق الأبيض ذاك.

وفـــي ما بعد، صارت الأيام أطول. كنا قد غادرنا ثينثونتلا في منتصف شهر شباط، وها قد بدأ الآن شهر آذار باكراً جداً. كنا نكاد لا نغمض عيوننا مع حلول الظلام، حتى تعود الشمس لإيقاظنا. الشمس نفسها التي تبدو كأنها غربت منذ برهة.

لم أشعر قط، بأنه يمكن للحياة أن تكون بطيئة وعنيفة، مثلما هي عليه في المشي وسط حشد من الناس؛ كما لو أننا زحام ديدان، تتكوم تحت الشمس، نتلوى وسط إلحاح الغبار الذي يحبسنا جميعنا في الدرب نفسه، ويقتادنا كالمحاصرين. العيون تتابع سُحب الغبار؛ وتصطدم بالغبار، كأنها تصطدم بشيء لا يمكن اجتيازه. والسماء رمادية دائماً، مثل بقعة رمادية وثقيلة، تسحقنا جميعاً من أعلى. في بعض الأحيان فقط، عندما نجتاز نهراً، يصير الغبار أعلى وأكثر شفافــية. نُغطس رؤوسنا، الحرى والمسوّدة، في الماء الأخضر، فــيتصاعد منا جميعاً، للحظة، دخان أزرق، يشبه البخار الذي يخرج من الفم في البرد. ولكننا، بعد هنيهة، نختفـــي مرة أخرى وسط الغبار، يحمي بعضنا بعضاً من الشمس، من حرارة الشمس تلك، الموزعة على الجميع.

فـــي أحد الأيام سيحل الليل. هذا ما كنا نفكر فـــيه. سيحل الليل، ونجلس لنستريح. أما الآن فعلينا أن نجتاز النهار. أن نجتازه كيفما اتفق، لنهرب من القيظ ومن الشمس. وبعد ذلك سنتوقف. أما ما علينا عمله الآن، فهو بذل الجهد بعد الجهد، للمضي سريعاً في إثر كثيرين مثلنا، وأمام كثيرين آخرين. هذا هو ما يعنينا. ولسوف نستريح على أحسن وجه عندما نموت.

هذا ما كنا نفكر فـــيه، أنا وناتاليا، وربما تانيلو أيضاً، ونحن نمضي في الطريق العام إلى تالبا، ضمن الموكب، ساعين إلى أن نكون أول الواصلين إلى السيدة العذراء، قبل أن تنتهي معجزاتها.

لكن حال تانيلو بدأت تسوء. وجاء وقت لم يعد يريد فـــيه مواصلة السير. كان لحم قدميه قد تفزر، ومن ذلك الشق بدأ يخرج الدم. عنينا به إلى أن تحسنت حالته. ولكنه لم يرغب، مع ذلك، في مواصلة السير.

«سأبقى جالساً هنا يوماً أو يومين، وبعد ذلك سأرجع إلى ثينثونتلا.» هذا ما قاله لنا.

لكننا، أنا وناتاليا، لم نشأ ذلك. فقد كان هناك، في داخلنا، شيء لا يتيح لنا الإحساس بأي نوع من الشفقة على شخص مثل تانيلو. كنا نريد الوصول به إلى تالبا. فبعد أن بلغت الأمور ذلك الحد، وفـــي الحال التي كان عليها، بدا أنه لا يزال لديه فائض من الحياة. ولهذا، بينما ناتاليا تغسل قدميه بالخمر، للتخفـــيف

من تورمهما، كانت تبث فـــيه الحماسة. تقول له إن العذراء شفـــيعة تالبا وحدها، هي التي ستشفـــيه. وإنها الوحيدة القادرة على شفائه إلى الأبد. هي وحدها، ولا أحد سواها. هناك شفـــيعات كثيرات؛ لكن عذراء تالبا وحدها هي المناسبة. هذا ما كانت تقوله له ناتاليا.

عندئذ ينفجر تانيلو بالبكاء، وتُحدث الدموع ثلماً وسط العرق الذي يغطي وجهه، ثم يلعن نفسه لأنه كان سيئاً. فتمسح ناتاليا خيوط دموعه بشالها، ونساعده، أنا وهي، على النهوض عن الأرض، ليمشي فترة أخرى، قبل أن يحل الليل.

وهكذا، بالتلمس والجرجرة، كان أن وصلنا به إلى تالبا.

لقد بدأنا نحن أيضاً، نشعر بالتعب في الأيام الأخيرة. صرنا، أنا وناتاليا نشعر بأن جسدينا ينحنيان أكثر فأكثر، كما لو أن شيئاً يوقفنا، ويلقي بحزمة ثقيلة على كاهلنا. وصار سقوط تانيلو أرضاً، أكثر تواتراً، فـــيكون علينا أن نُنهضه، بل أن نحمله على أكتافنا أحياناً. وربما هذا هو السبب في ما صرنا إليه: الجسد متراخ وغير قادر على المشي. ولكن الناس الذين يمضون حولنا يدفعوننا إلى السير بسرعة أكبر.

فـــي الليل، كان ذلك العالم الجامح، يهدأ. وكانت المواقد المتناثرة في كل مكان تسطع. ومن حول النار، كان الحجاج إلى السيدة العذراء يصلون، بأذرع متصالبة، وهم ينظرون إلى سماء تالبا. ويُسمع كيف كانت الريح تحمل تلك الدمدمات، وتأتي بها،

تخلطها ببعضها إلى أن تجعل منها جؤاراً واحداً. وبعد قليل من ذلك، يسود السكون. وعند انتصاف الليل، يمكن سماع أحد يغني بعيداً عنا. وبعد ذلك يغمض الجميع عيونهم وينتظرون، دون نوم، بزوغ الفجر.

دخلنا إلى تالبا، ونحن نترنم بصلوات الحمد والتبجيل.

لقد خرجنا من ثينثونتلا في منتصف شباط، ووصلنا إلى تالبا في الأيام الأخيرة من آذار، عندما كان أناس كثيرون قد بدؤوا يعودون. وكل هذا لأن تانيلو انغمس في طقوس التكفـــير. فما إن رأى نفسه محاطاً بأناس يحملون أوراقاً من الصبار، معلقة كعوذة على الكتفين، حتى فكر في أن يفعل مثلهم. فقيّد إحدى قدميه بالأخرى، مستخدماً كمي قميصه، لكي تصبح خطواته أشد تثاقلاً ويأساً. ثم أراد، بعد ذلك، أن يضع إكليلاً من الشوك على رأسه. وبعد قليل من ذلك، عصب عينيه. وبعدها، في المقاطع الأخيرة من الطريق، جثا على الأرض، وراح يتقدم على عظام ركبتيه، ويداه متقاطعتان وراء ظهره. وهكذا وصل، إلى تالبا، ذلك الشيء الذي هو أخي تانيلو سانتوس؛ ذلك الشيء المغطى باللبخات وخيوط الدم القاتمة التي تخلّف في الهواء، لدى مروره، رائحة كريهة، كرائحة حيوان ميت.

وفـــي وقت لم يكن يخطر لنا على بال، رأيناه مندساً بين جماعة الراقصين. وما كدنا ننتبه إلى ذلك، حتى كان هناك، حاملاً في يده جلجلاً طويل الذراع، وضارباً الأرض ضربات

قوية بقدميه المُزرقتين والحافـــيتين. كان يبدو منفعلاً تماماً، كما لو أنه ينفض عنه الحماسة التي يحملها في داخله منذ زمن، أو كما لو أنه يبذل جهداً أخيراً، ليتمكن من العيش لوقت إضافي قليل.

ربما تذكر، حين رأى الرقص، الزمن الذي كان يذهب فـــيه، كل سنة، إلى توليمان، في تاسوع السيد المسيح، ويرقص طوال الليل، إلى أن تنوء به عظامه، ولكن دون أن يتعب. ربما تذكر ذلك، وأراد أن يستعيد قواه القديمة.

رأيناه، أنا وناتاليا، على تلك الحال لبعض الوقت. ثم رأيناه، بعد ذلك، يرفع ذراعيه، ويخبط جسده بالأرض، والجلجل لا يزال يرن بين يديه الملطختين بالدم. أخرجناه جراً، آملين حمايته من أن يدوسه الراقصون، من وسط هياج تلك الأقدام التي تدور فوق الحجارة، وتقفز لتخبط الأرض، دون أن تدرك أن هناك من سقط أرضاً في وسطها.

دخلنا معه إلى الكنيسة، وهو يمشي مفرشخاً، كما لو أنه كسيح. جعلته ناتاليا يركع إلى جوارها، قبالة ذلك التمثال المذهب الذي هو عذراء تالبا. بدأ تانيلو الصلاة، وترك دمعة كبيرة تسقط منه، خارجة من أعمق أعماقه، ومطفئة الشمعة التي وضعتها ناتاليا بين يديه. لكنه لم ينتبه لذلك؛ فضوء الشموع الكثيرة المضاءة هناك، قطع عليه هذا الشيء الذي يتيح للمرء أن يدرك، من خلاله، ما يدور حوله. واصل الصلاة بشمعته المطفأة. وكان يصلي صارخاً، لكي يسمع أنه يصلي.

إلا أن ذلك كله لم ينفعه في شيء. فقد مات على الرغم من ذلك.

«... من قلوبنا يخرج من أجلها، **هي**، تضرعاً يلفه الألم. حسرات كثيرة مختلطة بالأمل. لا تصم حنانها عن حسراتنا ودموعنا، فهي تتألم معنا. **هي** تعرف كيف تمحو هذه الشوائب والخطايا، وتحول القلب ليناً نقياً، ليتلقى رحمتها وإحسانها. إنها سيدتنا العذراء، أمنا، لا تريد أن تعرف شيئاً عن خطايانا، تلقي على نفسها مسؤولية خطايانا؛ من ترغب في حملنا بين ذراعيها كيلا تعذبنا الحياة، إنها هنا إلى جانبنا، تخفف من تعبنا، ومن أمراض روحنا وجسدنا المجروح والمتضرع. **هي** تعرف أن إيماننا يقوى كل يوم، لأنها مصنوعة من التضحية والفداء...»

هذا ما كان يقوله السيد الخوري من هناك، من فوق الهيكل. وبعد أن توقف عن الكلام، انفلت الناس في الصلاة، جميعهم في وقت واحد، بدوي مشابه لدوي زنابير استثارها الدخان.

لكن تانيلو لم يسمع ما قاله السيد الخوري، فقد بقي ساكناً، ورأسه مستند إلى ركبتيه. وعندما هزته ناتاليا لينهض؛ كان قد مات.

كانت تُسمع، في الخارج، جلبة الراقصين، وأصوات الطبول والنايات، وقرع النواقيس. وكان عندئذ أن أحسستُ بالحزن. فرؤية كل تلك الأشياء الحية، ورؤية العذراء هناك، قبالتنا تماماً، تبتسم لنا، ورؤية تانيلو، في الجانب الآخر، تانيلو، كما لو أنه عقبة، أثارت في الحزن.

ولكننا نحن من أخذناه إلى هناك، لكي يموت، وهذا ما لن أنساه أبداً.

كلانا الآن في ثينثونتلا. لقد عدنا من دونه. ولم تسألني أم ناتاليا شيئاً؛ لم تسألني عما فعلتُه بأخي تانيلو، ولا عن أي شيء آخر. لقد انفجرت ناتاليا في البكاء على كتفـيها، وأخبرتها وهي على تلك الحال، بكل ما جرى.

وبدأت أشعر كما لو أننا لم نذهب إلى أي مكان، وأننا موجودان هنا بصورة عابرة، لنستريح، وأننا سنواصل السير بعد ذلك. لا أدري إلى أين؛ ولكن علينا أن نواصل السير، لأننا سنكون هنا، قريبين جداً من تأنيب الضمير، ومن تذكر تانيلو.

بل ربما بدأ كل منا يشعر بالخوف من الآخر. ربما هذا هو ما يعنيه عدم تبادلنا أي كلمة منذ مغادرتنا تالبا. ربما كان قريباً منا، نحن الاثنين، جسد تانيلو الممدد في الحصيرة الملفوفة؛ يملؤها من الداخل والخارج، فوران ذباب أزرق، يطن بصوت كأنه شخير عظيم، يخرج من فم تانيلو؛ من ذلك الفم الذي لم يكن ممكنا إطباقه، بالرغم مما بذلناه، أنا وناتاليا، من جهود، والذي يبدو كأنه لا يزال يريد التنفس، ولا يجد أنفاساً. تانيلو، ذاك الذي لم يعد يؤلمه شيء، ولكنه كان كالمتألم، بيديه وقدميه المربوطتين، وعينيه المفتوحتين على اتساعهما، كما لو كان يرى بهما موته. ومن هنا وهناك، كل قروحه تقطر سائلاً أصفر، يعبق بتلك الرائحة التي تنز من كل الأنحاء، ويمكن

الإحساس بها في الفم، كما لو أن المرء يتذوق عسلاً كثيفاً ومراً، يذوب في الدم مع كل شهيق من الهواء.

ربما كان هذا هو ما سنظل نتذكره على الدوام، من تانيلو ذلك الذي دفناه في مقبرة تالبا، والذي ألقينا عليه، أنا وناتاليا، كثيراً من التراب والحجارة، كيلا تنبشه، وتُخرجه ضواري الجبال.

خورخي لويس بورخيس[1]

Jorge Luis Borges

المعجزة السرية

El milagro secreto

●فأماته الله مئة عام ثم بعثه، قال

كم لبثتَ قال لبثتُ يوماً أو بعض يوم●

سورة البقرة، الآيـة ٢٥٩

فـــي تلك الليلة، ليلة الرابع عشر من آذار ١٩٣٩، وفـــي شقة بمنطقة زلتنيرغاس في براغ، حلم جارومير هلاديك، مؤلف

(١) ولد خورخي لويس بورخيس في بوينس آيرس عام ١٨٩٩.بعثه أبوه –الطبيب الموسر –للدراسة في سويسرا منذ صباه. وفـــي عام ١٩١٩ انتقل مع أسرته إلى إسبانيا، حيث شارك في النشاطات الأدبية في العاصمة الإسبانية. ولدى عودته إلى الأرجنتين، أسس مجلة «بروا آي بريسما»، ونشر كتاب أشعاره الأول. وكان أحد منشطي جماعة «مارتين فـــييرو» الأدبية.ترسخت مكانته الأدبية كأبرز موهبة شعرية عرفتها الأرجنتين، بعد صدور ديوانيه «قمر من أمام» و«دفتر سان مارتين» عام ١٩٢٩.صدور كتابه «التاريخ الكوني للعار» عام ١٩٣٥، بدأ مرحلة جديدة من الإبداع، تمخضت عن قصص قصيرة باهرة، منها «تخيلات» (١٩٤٤) و«إل ألف» (١٩٤٩).فـــي عام ١٩٥٥، وهو العام الذي فقد فـــيه البصر نهائياً، بدأ مرحلة أخرى ثالثة تمثلت في عودته من جديد إلى السونيتات. ويبرز في هذه المرحلة كتاب «الآخر» (١٩٦٤). ثم اتخذت كتابته بعد ذلك أسلوباً أكثر بساطة، كما في «كتاب الرمل» ١٩٧٥).يعالج في قصصه قضايا فلسفـــية وفكرية، وقد يستخدم لذلك شخصيات تاريخية أو خيالية وخرافـــية للوصول إلى الأفكار التي يريد، فضلاً عن قدراته اللغوية الباهرة.من أبرز أعماله:فـــي الشعر:«حماسة بوينس آيرس» (١٩٢٣)، «قمر من أمام» (١٩٢٦)، «دفتر سان مارتين» (١٩٢٩)، «مديح الظل» (١٩٦٩)، «ذهب النمور» (١٩٧٢)، «الوردة العميقة» (١٩٧٥)، «العملة المعدنية» (١٩٧٥)فـــي القصة«التاريخ الكوني للعار» (١٩٣٥)، «تخيلات» (١٩٤٤)، «إل ألف» (١٩٤٩)، «تقرير برودي» (١٩٧٠)، «كتاب الرمل» (١٩٧٥)، «الخالق» (شعر ونثر ١٩٦٠)، «تاريخ الخلود» (دراسة ١٩٣٦)، «مارتين فـــييرو» (دراسة ١٩٥٣)، «المرجع في حديقة الحيوان الخرافـــية» (دراسة ١٩٥٧)، «عالم الكائنات المتخيلة» (دراسة ١٩٦٧)، «بورخيس الشفوي» (محاضرات ١٩٨٠)، «سبع ليال» (محاضرات ١٩٨٠).

مسرحية **الأعداء** التراجيدية، غير المكتملة، ومؤلف «**دفاع عن الخلود**»، إضافة إلى بحث، استقصى فيه أصول جاكوب بويهم، اليهودية غير المباشرة، حلم بلعبة شطرنج طويلة. ولم يكن يتنافس في اللعبة شخصان، وإنما أسرتان مشهورتان. كانت المباراة قد بدأت منذ قرون عديدة، ولم يكن هناك من هو قادر على ذكر جائزة الفائز المنسية. ولكنهم كانوا يتهامسون بأنها هائلة، وربما غير محدودة. كانت رقعة الشطرنج وأحجاره في برج غير سري. وكان جارومير (في الحلم)، هو الابن البكر لإحدى الأسرتين المتخاصمتين. وكانت الساعات تدق معلنة بدء اللعبة التي لا يمكن تأجيلها. وكان الحالم يركض على رمال صحراء مطيرة، ولا يتوصل إلى تذكّر أشكال حجارة الشطرنج وقوانينها. وفي هذه اللحظة، استيقظ من النوم. توقفت قرقعة المطر والساعات الرهيبة. وتعالت في زلتنيرغاس جلبة إيقاعية رتيبة ومتوافقة. كان الوقت فجراً، وكانت طلائع الرايخ الثالث المدرعة تدخل براغ.

في يوم التاسع عشر، تلقت السلطات وشاية؛ وفي يوم التاسع عشر نفسه، عند الغروب، جرى اعتقال جاروميرهلاديك. اقتادوه إلى ثكنة مطهرة وبيضاء، في الجهة المقابلة لـ «مولداو». لم يستطع نفي تهمة واحدة، من التهم التي وجهها إليه الجستابو: فكنيته من جهة أمه هي ياروسلافسكي، وفي عروقه يجري دم يهودي. ودراسته عن «بويهم» تهويدية، وتوقعيه يكشف في التحليل الأخير، عن معاداة الـ Anschluss (الوحدة الألمانية النمساوية). وكان، في العام ١٩٢٨، قد ترجم

سفر يرزا Sepher Yerizah لدار نشر هرمان بارسدورف؛ وكانت قائمة مطبوعات دار النشر المذكورة، قد بالغت، تجارياً، في إبراز شهرة المترجم. وقد تصفح تلك القائمة جوليوس روث، أحد القادة العسكريين الذين كان مصير هلاديك بين أيديهم. ليس هناك من رجل، بغض النظر عن تخصصه، إلا ويصدق صحة الاتهامات: فنعتٌ واحد أو اثنان مكتوبان بالخط القوطي، كافـــيان لإقناع جوليوس روث بمكانة هلاديك، واتخاذه قرار الحكم عليه بالموت، بتهمة معارضة السلطات. وحُدّد يوم التاسع والعشرين من آذار، الساعة التاسعة صباحاً، لتنفـــيذ الحكم. وسبب هذا التأخير (الذي سيدرك القارئ أهميته فـــيما بعد) هو الرغبة الإدارية، في التصرف بصورة غير شخصية ومتأنية، مثلما هي النباتات والكواكب.

أول شعور انتاب هلاديك هو الرعب. وفكر في أنه ما كان ليشعر بالرعب من المشنقة، أو قطع الرأس، أو الذبح، ولكن الموت رمياً بالرصاص هو أمر لا يمكن التسامح فـــيه. وعبثاً كرر القول لنفسه بأن حدث الموت بحد ذاته، وبصورة عامة، هو المخيف، وليس الظروف التي يحدث فـــيها. ولم يكن يتعب من تخيل تلك الظروف: فـــيسعى، بصورة عبثية، إلى استنفاد كل تنويعات الظروف المحتملة. وراح يستبق، بتخيلات لانهائية، وقائع عملية الإعدام، ابتداء من الفجر المؤرق، حتى زخة الرصاص الغامضة. وقبل حلول اليوم الذي حدده جوليوس

روث، مات هلاديك مئات الميتات، في باحات أرهقت أشكالها وزواياها علم الهندسة، مرمياً برصاص رشاشات جنود مختلفين، يتبدل عددهم، يجهزون عليه أحياناً من مسافة بعيدة، وفي أحيان أخرى من مسافة قريبة جداً. وواجه برعب حقيقي (وربما بشجاعة حقيقية) عمليات تنفيذ حكم الإعدام المتخيلة تلك. وكان كل تصور يدوم ثوانٍ قليلة فقط. ومع انغلاق دائرة التخيلات، رجع جارومير، ما لا حصر له من المرات، إلى عشيات يوم موته المخيفة. ثم فكر بعد ذلك في أن الواقع لا يتطابق، عادة، مع التوقعات المسبقة. واستنتج، بمنطق خبيث، أن توقّع تفصيل من أحد الحوادث، هو منع لحدوثه. وبمجاراته لهذا السحر الضعيف، **كيلا يحدث ما سيحدث**، راح يخترع تفاصيل مريعة. وانتهى به الأمر، بالطبع، إلى الخوف من أن تكون هذه التفاصيل، نبوءات. وفي بؤسه الليلي، كان يسعى إلى التشبث، بطريقة ما، بجوهر الزمن الهروبي. كان يعرف أن هذا الزمن، يندفع متسارعاً نحو فجر يوم التاسع والعشرين؛ فيفكر بصوت عالٍ: **إنني الآن في ليلة الثاني والعشرين، وسأبقى، ما بقيت هذه الليلة (والليالي الست التالية)، عصياً على الموت، وخالداً**. وكان يفكر في أن ليالي النوم، تبدو أحواضاً عميقة ومظلمة، يمكن له أن يغطس فيها. وفي بعض الأحيان، كان يتلهف، بنفاد صبر، إلى زخة الرصاص الحاسمة التي ستُخلصه، خيراً أم شراً، من مهمته غير المجدية

في التخيل. في يوم الثامن والعشرين، عندما كان الغروب الأخير ينعكس على القضبان الحديدية العالية، حرفته عن هذه الاعتبارات المبتذلة، صورة متخيلة لمسرحيته **الأعداء**.

كان هلاديك قد تجاوز الأربعين. وباستثناء بعض الصداقات، وكثير من العادات، كانت مزاولة الأدب، الإشكالية، هي التي تشكل حياته. ومثل كل كاتب، كان يقيّم مزايا الآخرين من خلال ما أنجزوه، ويطلب أن يقيّمه الآخرون، من خلال ما يستشفه أو ما يخطط له. وكانت كل الكتب التي أقدم على نشرها، تبث فيه عقدة ندم. ففي تحقيقه لأعمال بويهم، وبنعزرا، وفلود، لجأ بصورة أساسية إلى الاجتهاد الصرف. وفي ترجمته لـ **سفر يرزا**، طغى على عمله التهاون، والإنهاك، والتخمين. وكان يحكم، ربما، بقدر أقل من القصور، على «**دفاع عن الخلود**»، الذي يؤرخ مجلده الأول، لمختلف الأبديات التي تصورها الإنسان، بدءاً من الكائن الساكن لدى بارمينيدس[١]، حتى الماضي القابل للتغير عند هنتون؛ والثاني منهما يرفض (مع فرانسيس برادلي) أن كل أحداث الكون تندمج في سلسلة زمانية. ويستنتج أنه لا نهاية، لعدد احتمالات تجارب الإنسان، وأن «تكراراً» واحداً، يكفي لإثبات أن الزمن خدعة... ولسوء الحظ، أن الحجج التي تبرهن على تلك الخدعة، ليست أقل

(١) بارمينيدس (Parmenides) فيلسوف إغريقي، كان يؤكد أن الكون أبدي، واحد، متصل، وساكن.

خداعاً من ذلك. وكان من عادة هلاديك أن يستعرضها، بشيء من الحيرة المزدرية. وكان قد حرر كذلك مجموعة من القصائد التعبيرية. ومما أربك الشاعر، أن تلك القصائد ظهرت في كتاب مختارات شعرية سنة ١٩٢٤، ولم تُنشر مختارات شعرية تالية، إلا وضمتها. وكان هلاديك يريد الخلاص من كل ذلك الماضي، الملتبس والهزيل، بكتابة مسرحية **الأعداء** شعراً. (وكان هلاديك يشيد بالشعر في المسرحية، لأنه يحول دون نسيان المتفرجين للواقع. وهذا شرط من شروط الفن.)

وتأخذ هذه المسرحية في الاعتبار، وحدة الزمان والمكان والحدث. وتدور أحداثها في هرادكاني، في مكتبة البارون دي روميرستاد، في واحدة من آخر أمسيات القرن التاسع عشر. ففـــي المشهد الأول من الفصل الأول، يأتي شخص غريب لزيارة روميرستاد. (تدق ساعةٌ معلنةً السابعة. حدّة الشمس الأخيرة توهج الزجاج، والهواء يحمل نغمات موسيقى هنغارية، مؤثرة ومألوفة.) وتلي هذه الزيارة زيارات أخرى. وروميرستاد لا يعرف الأشخاص الذين يلحون عليه. إلا أن لديه انطباعاً مزعجاً، بأنه قد قابلهم من قبل، ربما في حلم. جميعهم كانوا يلاطفونه بمبالغة. ولكن يبدو واضحاً – لمن يشاهدون المسرحية أولاً، ثم بعد ذلك، للبارون نفسه – أنهم أعداء متخفون، يتآمرون للقضاء عليه. ويتمكن روميرستاد من أن يوقف، أو يتفادى، مكايدهم المعقدة. وفـــي الحوار، يلمحون إلى خطيبته جوليا دي

فــيديناو، وإلى شخص يدعى ياروسلاف كوبين، أثقل عليها ذات مرة، بإعلان حبه لها. وهو، الآن، مصاب بالجنون، ويظن أنه روميرستاد... الأخطار تتفاقم؛ ويجد روميرستاد نفسه، في نهاية الفصل الثاني، مضطراً إلى أن يقتل أحد المتآمرين. يبدأ الفصل الثالث، وهو الأخير. يتعاظم عدم تماسك الكلام تدريجياً: فــيعود ممثلون، بدا أنهم قد استبعدوا من الحكاية. ويعود، للحظة، الرجل الذي قتله روميرستاد. وهناك من يلفت الانتباه إلى أن الغروب لم يحل بعد: تدق الساعة معلنة السابعة، وعلى زجاج النوافذ العالية، تتوهج شمس الغرب، ويحمل الهواء أنغام موسيقى هنغارية مؤثرة. ويظهر الراوي الأول، ويكرر الكلمات التي قالها في المشهد الأول، من الفصل الأول. ويتحدث إليه روميرستاد، دون دهشة. ويدرك المتفرج أن روميرستاد هو البائس جاروسلاف كوبين. فالمسرحية لم تحدث، وإنما هو الهذيان الدائري الذي يعيشه كوبين، ويعود ليعيشه بصورة لانهائية.

لم يسأل هلاديك نفسه قط، إذا ما كانت تراجيكوميديا الأخطاء تلك، المبتذلة أو الجديرة بالتقدير، هي عمل محكم في صرامته، أم أنه يعتمد على المصادفات. لقد حدس بأن مضمون المسرحية الذي عرضتُه بإيجاز، هو الابتكار الأكثر ملاءمة لإخفاء عيوبه، ولممارسة سعاداته، ولإنقاذ (بطريقة رمزية) ما هو جوهري في حياته. كان قد أنهى الفصل الأول، ومشهداً من الفصل الثالث.

وكانت طبيعة العمل العروضية، تتيح له مراجعته بصورة دائمة، وضبط أوزانه السداسية، دون أن يكون المخطوط أمامه. فكر في أنه ما زال ينقصه فصلان، وأنه سيموت قريباً جداً. فتوجه إلى الله قائلاً، في ظلمة الليل: **إذا كنتُ موجوداً بصورة ما، وإذا لم أكن من صنائعك المكرورة، أو أحد أخطائك، فإنني موجود لأكون مؤلف مسرحية** «الأعداء». **ولكي أنهي هذه المسرحية التي يمكن لها أن تبرر وجودي، ووجودك، فإنني أحتاج إلى سنة أخرى من الحياة. امنحني هذه الأيام، أنت يا من له العصور والأزمان.** وكانت تلك هي الليلة الأخيرة، والأشد هولاً، ولكن النوم غمره، بعد عشر دقائق فقط، مثل مياه قاتمة.

وعند الفجر، حلم هلاديك بأنه قد اختبأ في أحد أروقة مكتبة كليمنتينوم. وأن موظفاً في المكتبة، يضع نظارة سوداء، سأله: **عم تبحث؟** فرد عليه هلاديك: **أبحث عن الله.** قال له موظف المكتبة: **الله موجود في أحدِ حروف واحدة من صفحات الأربعمئة ألف مجلد التي تضمها مكتبة كليمنتينوم. لقد بحث آباؤنا وآباء آبائنا عن هذا الحرف؛ وأصابني العمى، وأنا أبحث عنه.** خلع نظارته، ورأى هلاديك العينين الميتتين. دخل قارئ ليعيد أطلس خرائط. **لا فائدة ترجى من هذا الأطلس**، قال ذلك، وقدمه إلى هلاديك. فتحه هذا كيفما اتفق. فرأى خريطة للهند، دوارية. وبثقة مفاجئة، لمس أحد أصغر الحروف. وسمع صوتاً كلي الحضور يقول له: لقد مُنح لك الزمن الذي تحتاجه لعملك. وهنا استيقظ هلاديك.

تذكر أن أحلام البشر من صنع الرب، وأن ابن ميمون قد كتب، أن الكلمات في الحلم إلهية، عندما تكون مختلفة وواضحة، ولا يعرف من هو قائلها. ارتدى ملابسه. ودخل جنديان إلى الزنزانة وأمراه بأن يتبعهما.

كان هلاديك قد تخيل، من الجانب الآخر للباب، متاهة من الدهاليز والسلالم، والعنابر. لكن الواقع كان أقل غنى: نزلوا إلى فناء خلفـــي عبر درجة حديدية واحدة. وكان هناك عدد من الجنود – بسترات عسكرية مفتوحة الأزرار – يفحصون دراجة نارية، ويتجادلون. نظر الرقيب إلى الساعة؛ كانت الثامنة وأربعاً وأربعين دقيقة. لا بد من الانتظار حتى التاسعة. وبإحساس بضآلة قيمته أكثر مما هو إحساس بالتعاسة، جلس هلاديك على كومة من الحطب. لاحظ أن عيون الجنود تتهرب من النظر إلى عينيه. ومن أجل التخفـــيف من وطأة الانتظار، قدم إليه الرقيب سيجارة. لم يكن هلاديك مدخناً، ولكنه تقبلها مجاملة أو تذللاً. وعندما أشعلها، لاحظ أن يديه ترتجفان. كان اليوم غائماً، وكان الجنود يتكلمون بصوت خافت، كما لو أنه ميت. وعبثاً حاول أن يتذكر المرأة التي كانت جوليا دي فيديناو رمزاً لها...

اصطفت فصيلة الإعدام، وتأهبت. وكان هلاديك يقف مستنداً إلى جدار الثكنة، بانتظار دفقة الرصاص. خشي أحدهم أن يتلطخ الجدار بالدم؛ فأمروا المحكوم بأن يتقدم بضع خطوات

إلى الأمام. وبصورة عبثية، تذكر هلاديك تدقيق المصورين الفوتوغرافــيين، قبل التقاط الصور. لمست إحدى وجنتي هلاديك قطرة مطر ثقيلة، وانزلقت ببطء على خده. وأصدر الرقيب الأمر الأخير.

توقف الكون المادي.

اقتربت البنادق من هلاديك، لكن الرجال الذين سيقتلونه كانوا متجمدين. وأبَّدَت ذراعِ الرقيب حركة غير مكتملة. وكانت هناك نحلة، تلقي بظلها، ثابتاً، على بلاطة في أرضية الفناء. وكانت الريح قد توقفت، كأنها في لوحة. جرب هلاديك إطلاق صرخة، صفــير، تحريك إحدى يديه. وأدرك أنه مشلول. لم يكن يصله أخف حفيف من العالم المعطل. وفكر **إنني في الجحيم، أنني ميت.** وفكر **إنني مجنون.** وفكر **لقد توقف الزمن.** ثم فكر، بعد ذلك، في أنه لا بد، في هذه الحالة، من أن يكون تفكيره قد توقف أيضاً. أراد أن يختبر ذلك: ردد (دون أن يحرك شفتيه) رباعية فــيرجيل الرعوية. وتخيل أن الجنود الذين نأوا عنه، يشاطرونه غمه؛ فتلهف إلى التواصل معهم. وأدهشه أنه لا يشعر بأي إرهاق، ولا حتى بالدوار، من طول وقفته بلا حركة. غلبه النوم، بعد مرور وقت لم يستطع تحديده. وعندما استيقظ، كان العالم لا يزال ساكناً وأصم. وكانت قطرة الماء لا تزال على خده، وظلُّ النحلة لا يزال على بلاطة الفناء نفسها؛ ودخان السيجارة التي رماها لم يتبدد بعد. مر «يوم» آخر، قبل أن يدرك هلاديك ما يحدث.

لقد طلب من الرب سنة كاملة، لينهي عمله: سنة يمنحه إياها كليّ القدرة. وقد حقق له الرب المعجزة السرية: فالرصاص الألماني سيصرعه في الموعد المحدد، لكن سنة كاملة ستمر، في ذهنه، بين صدور الأمر وتنفــيذه. فانتقل من الحيرة إلى الذهول، ومن الذهول إلى التسليم، ومن التسليم إلى الحمد والشكر المفاجئ.

لم يكن لدى هلاديك أي وثيقة أخرى، سوى ذاكرته. والمهارة التي اكتسبها في الحفظ، مع كل بيت شعر يضيفه، فرضت عليه صرامة موفقة، لا يصدقها أولئك الذين يغامرون وينسون فقرات مؤقتة وملتبسة. لم يكن يعمل من أجل الأجيال الآتية، ولا حتى من أجل الله، لأنه لا يعرف إلا القليل عن ذوقه الأدبي. وبتدقيق، ودون حراك، وسرية، نسج في الزمن متاهته الشامخة الخفــية. ألغى، مرتين، ما أنجزه من الفصل الثالث. وشطب بعض الرموز شديدة الوضوح: دقات النواقيس المكرورة، الموسيقى، ولم يكن يهتم بأية أحوال أو ظروف. حذف، أوجز، توسع؛ وفــي إحدى الحالات، عاد إلى خياره الأصلي الأول. وتوصل إلى محبة الفناء، والثكنة العسكرية. ودفعه أحد الوجوه التي قبالته إلى تعديل رؤيته لشخصية روميرستاد. واكتشف أن تنافر الأصوات المتعب الذي طالما أثار حفــيظة فلوبير، ليس إلا مجرد شعوذات بصرية: حالات ضعف وإزعاج مبعثها الكلمة المكتوبة، وليس الكلمة المنطوقة... أنهى عمله المسرحي. لم

يبق عليه سوى أن يحلّ مسألة نعت واحد. عثر عليه؛ وانزلقت قطرة الماء على خده. بدأ بإطلاق صرخة جنونية، حرك وجهه، وأوقعته رصاصات البنادق الأربع أرضاً.

مات جارومير هلاديك في التاسع والعشرين من آذار، في الساعة التاسعة ودقيقتين صباحاً.

خوسيه دونوسو[١]

José Donoso

سانتيليثس

Santelices

- ١ -

- لأنه لا بد لك أن تدرك يا سانتيليثس، أننا سننتهي إلى الشارع، إذا ما تركنا جميع نزلاء البنسيون، يفعلون ما فعلته

(١) ينتمي إلى الجماعة الأدبية المعروفة باسم «جيل الخمسين».ولد في سنتياغو دي تشيلي عام ١٩٢٤، وتوفي فيها عام ١٩٩٦.أحد ألمع كتاب أميركا اللاتينية الذين برزوا عالمياً في ستينات وسبعينات القرن العشرين.عمل أستاذاً للأدب الإنكليزي في الجامعة الكاثوليكية التشيلية، كما عمل أستاذاً في عدة جامعات أمريكية (ايوا، برنستون، دارتموث).أشرف على إصدار مجلة «إرثيّا» الأدبية.أقام في إسبانيا منذ ١٩٦٧ حتى ١٩٨٠.نال جائزة بلدية سنتياغو عام ١٩٥٥، وجائزة النقد عام ١٩٧٨، كما حصل على أرفع جائزة أدبية إسبانية «جائزة ثربانتس». ظل حتى وفاته عام ١٩٩٦، عضواً في الأكاديمية التشيلية للغة.عارض الصيغ الواقعية المترسخة، وتبنى التوجهات الوجودية التي شاعت في أوروبا، منتصف القرن العشرين.من أهم أعماله:في الرواية«تتويج» (١٩٥٧)، «هذا الأحد» (١٩٦٦)، «مكان بلا حدود» (١٩٦٦)، «عصفور الليل البذيء» (١٩٧٠)، «ثلاث روايات برجوازية» (١٩٧٣) «بيت ريفي» (١٩٧٨)، «الاختفاء الغامض لمركيزة لوريا» (١٩٨٠)، «الحديقة المجاورة» (١٩٨١)، «أربعة لأجل دُلفينة» (١٩٨٢)، «اليأس» (١٩٨٦)، «حيث تذهب الفيلة لتموت» (١٩٩٥). في القصة القصيرة: «صيف وقصص أخرى» (١٩٥٥)، «قصتان» (١٩٥٦)، «التشارلستون» (١٩٦٠)، «أفضل قصص خوسيه دونوسو» (١٩٦٦)، «قصص» (١٩٧١). في المسرح: «أحلام مدينة خبيثة» (١٩٨٥)، «هذا الأحد» (١٩٩٠) وهي اقتباس مسرحي عن روايته التي تحمل العنوان نفسه.في الشعر: «قصائد روائي» (١٩٨١). فضلاً عن العديد من الكتب والدراسات والأبحاث الأدبية، وترجمة عدد كبير من الروايات الأمريكية والإنكليزية.

حضرتك. أجل، أجل، أعرف ما ستقوله لي، وأجدك على حق. كيف تظن أننا سنرفض السماح لك بتعليق بعضها، وقد عشتَ معنا ثلاث سنوات، ولا أظنك ستغادر أبداً؟

كان من المستحيل، فهم كيف يتكلم دون إوسيبيو كل هذا الكلام، ما دامت عضلات فمه الأدرد المهزومة، تبدو غير قادرة على عمل أي شيء، سوى بعض اللعثمات السريعة، وتحريك شفتيه المتهدلتين. وفكر سانتيليثس بأنه إذا ما استسلم لإغواء السهولة التي تقدمها إليه بيرتيتا، كيلا يستخدم طقم أسنانه الاصطناعية - كانت تقول له: «تصرف بكل ثقة وحسب يا سانتيليثس»، أو: «خذ راحتك، فلا وجود هنا لفتيات تخطب ودهن» - لأصبح فمه، هو نفسه، مثل فم دون إوسيبيو، خلال فترة وجيزة.

- لكنّ تعليق خمس وعشرين منها هو أمر لا يُحتمل.

- بل ثلاث وعشرون. - صحح له سانتيليثس متعثراً بلسانه.

- خمس وعشرون، ثلاث وعشرون، لا فرق. ضع نفسك في مكاني. كيف سيخلّفون لي ورق جدران البيت، إذا ما فكر الجميع في أن يُسمّر كل واحد منهم خمساً وعشرين لوحة في غرفته؟ ألا تلاحظ؟ وبعد ذلك، لن يوافق أحد على استئجار الغرف. أنت تعلم كيف يتمسك أولئك الناس المتعجرفون بالصغائر. إنهم يتطلّبون، مع أنني أراهنك، بأنهم ما كانوا

يعرفون مرحاضاً نظامياً، قبل المجيء للإقامة هنا...

- بالطبع؛ لكنها لم تكن مسامير.

- مسامير، دبابيس زينة، أو ما أدراني أنا، لا فرق. انظر هذا الجدار. وذاك الآخر. لا أريد مجرد التفكير في الضجة التي ستفتعلها بيرتيتا، حين ترى هذا. وكم سيكلفني استبدال ورق الجدران؟ قَدّر.. مبلغاً كبيراً! مع تقدير مدى الصفاقة التي وصل إليها ملصقو ورق الجدران في تقاضي أجورهم...

- لكنّ الورق من نوعية رديئة، وهو...

- اعمل معروفاً، وأخبرني يا سانتيليثس، ما الذي دفعك فجأة، إلى تعليق كل هذه القرود القبيحة على الجدار؟ ومن أي جحيم جئت بهذا القدر منها؟ أقول لك، بصراحة، إنني أجد الأمر غريباً بعض الشيء... أشبه بتصرفِ مجنون. وأقل ما فيك أنت هو الجنون. ولاحظ يا سانتيليثس، قبل أيام فقط كنا نقول، أنا وبيرتيتا: لو أن كل النزلاء الذين يأتوننا مثلك، في النظافة، وفي ترتيب أشيائهم، لكان عملنا هذا متعة بدلاً من العذاب الذي هو عليه...

- أشكرك جداً. لكن...

- لا داعي للشكر. فلستُ أقول سوى الحقيقة المحضة. فأنت فرد من الأسرة أكثر من كونك نزيلاً. ويمكن القول إنك أشبه بقريب، ولاسيما أنك شخص عادي في تعاملك، بلا ادعاءات، كما يفعل البعض. سأقول لك شيئاً بمودة وثقة.. قول رجل

لرجل: لا تكرر عمل ذلك بعد اليوم... ولاحظ أن بيرتيتا... أنت تعلم...

- كيف يخطر لك يا دون إوسيبيو...

وخفض العجوز صوته:

- لو كانت اللوحات لنساء بلباس السباحة، أو بتلك الثياب الداخلية القليلة المطرّزة بالأسود، مثلما يظهرن في هذه التقاويم الجميلة التي نراها الآن، لكنتُ تفهمتُ الأمر. مهما قلت لها، ستتفهم. صحيح أنني عجوز. ولكنك تعرفني، وتعرفُ أنني في أوج الشباب، في روحي، وأنني مرحٍ وكل شيء. ولن أقول شيئاً لبيرتيتا. لكنّ هذا... هذا غريب جداً يا سانتيليتش. ولا تقل لي عكس ذلك...

- لا أدري، لكن...

- وانظر كيف جعلت ورق الجدران... انظر هذه الفجوة.

- لكن، يا سيد إوسيبيو، أنا أفكر في الاحتفاظ بهذه الغرفة...

- ... هذه الفجوة الأخرى. تراب الجدار آخذ بالتساقط، فوق الملاءات التي استبدلتها لك، أنا نفسي، الأسبوع الماضي. انظر، بالله عليك! قبل أن تصاب ابنتي المسكينة بنوبة قلبية، حين ترى هذا. سأستدعي أنا نفسي، عامل إلصاق ورق جدران، لأطلب منه حساب الكلفة. ومهما بلغت التكاليف، ستتحملها أنت كلها.

وخرج دون إوسيبيو من الغرفة، حاملاً حفنة من الصور، كدليل على سوء فعل نزيله.

-٢-

تأخر سانتيليثس عن موعد الذهاب إلى المكتب.

كان من عادته لبس جوربه وأربطة ساقيه، وقميصه وسرواله الداخليين، وهو جالس على السرير. وحين يكون البرد شديداً في الصباح، فإنه يلبس ثيابه كلها تقريباً، دون أن يرفع الدثار عن جسمه، في الدفء الذي تراكمه الأغطية، خلال الليل. بقيت دقيقتان، على موعد الدخول الذي يحلّ في الثامنة والنصف. وبينما هو جالس على حافة السرير الضيق، كان يرتعش، دون أن يدري ماذا عليه أن يفعل. الرسوم والصور التي عُلّقت على الجدار في الليلة الفائتة، وانتُزعت على عجل، أثناء تأنيب دون إوسيبيو له، كانت ممزقة، مجعدة، مختلطة بسروال بيجامته، فوق الملاءات التي ما زالت تعبق بحموضة رائحة جسده.

حين صعد إلى غرفته، بعد الانتهاء من لعب «الكاناستا»، في الليلة الفائتة، علم أنه سيفعل ذلك. فالنية في عمل ذلك كانت قد تراكمت، في داخله، منذ وقت طويل. لأنه حين مرّ، الأسبوع الماضي، قبالة محل خردوات، اشترى كيلوغراماً من الدبابيس، دون أن يدري السبب في إقدامه على ذلك. فقد كان يصعب عليه النوم وهو يشعر بأن تلك العيون الصفراء المتطاولة، وتلك

القوائم المبطنة، وتلك الأجساد الفخمة، في الخمول الحار لمناخات أخرى، تقبع سجينة، مسطحة، في آخر درج من أدراج خزانته. وكان كما لو سمعها تطلق زمجراتها، من هناك. ولم يستطع المقاومة، بالرغم من أن الساعة كانت تقارب الثالثة صباحاً.

ففـــي تلك الليلة، كما لو أن بيرتيتا قد حدست بأنه ينوي، بعد أن ينسحب إلى غرفته، أن يُقدم على عمل شيء، يبقيها مستبعدة منه، أطالت أمد لعب الكاناستا دوراً بعد دور حتى ساعة غير معقولة. كان سانتيليثس يشعر بالنعاس، واحتج بأن عليه الذهاب إلى العمل باكراً، في اليوم التالي. وأكثر من الرغبة في النوم، كان يشعر بنهم للذهاب إلى فوق، إلى غرفته، كما في ليالٍ أخرى، حين تُبدي بيرتيتا قدراً أقل من التمسك بالوقت، ليفتح ألبومات القصاصات والصور، وكتبه، ومصنفات الصور المطبوعة، ومغلفاته الممتلئة برسوم وصور توضيحية، ومعلومات ومقالات. ولأن بيرتيتا كانت تعرف أن لعبة الكاناستا المعهودة، بعد العشاء، معها، ومع دون إوسيبيو، ولاعب وهمي رابع، تروق سانتيليثس إلى حد الجنون، وأنه لا يغادر اللعب، طالما هناك ورق على المنضدة، فقد كان من السهل احتجازه، بإطالة أمد اللعب. لم يكونوا يلعبون بمراهنات مالية. بل كان لدى كل منهم جراب فـــيه حبوب فاصولياء – حبوب فاصولياء كبيرة ناصعة البياض كأنها من الخزف – تقوم مقام النقود.

وفـــي أيام السبت يعدّون الحبوب، ويكون على الخاسر أن يدعو اللاعبين الآخرين إلى السينما، لمشاهدة فـــيلم يختارانه، وكانت هي من تحتفظ بالأجربة.

فـــي آخر تلك الليلة، كان سانتيليثس نائماً تقريباً. يشعر بثقل الورق بين يديه، وبثقل جفنيه فوق عينيه، حتى إنه لم يعد يرى أخيراً، على مائدة غرفة الطعام، مرتفعة السقف، والمضاءة بمصباح واحد، ناءٍ، سوى خليط من رسوم أوراق اللعب. وفـــي كل دور جديد من اللعب، كانت بيرتيتا تنتشله من سباته، بوكزه بمرفقها، قائلة له:

- هيا يا سانتيليثس، إنه دورك في اللعب. لذة الكاناستا في سرعتها، ولاسيما إذا كانت تُلعب مع لاعب وهمي...

- يبدو أن هناك، هذه الليلة، لاعبين وهميين - قال دون إوسيبيو، مفلتاً قهقهة مدوية، اهتزت معها أسنان سانتيليثس الاصطناعية، الموضوعة في كأس، كأنها سمكة وردية، فوق المنضدة الرجراجة.

- كفى يا أبي - احتجت بيرتيتا - تبدو كمن هو في الثامنة، وليس في الثمانين. لا أريد مزيداً من الضحك.

وأخيراً، استعاد سانتيليثس بعض الحيوية، لأن دون إوسيبيو راح يخترع، من أجل مصلحته، قواعد جديدة للعبة. لقد تغاضى سانتيليثس عن ذلك في أول الأمر، لأنه كان نعساً إلى حد لا يرغب معه في الجدال، وكان يأمل في أن ينتهي كل شيء

سريعاً. ولكن، عندما أكد دون إوسيبيو، بوقاحة، أنه يمكن في لعبة الكاناستا الجيدة، الحصول على رزمة الورق المتجمعة على المنضدة، قبل النزول، باستخدام ورقة واحدة وجوكر، على أن تكون الورقة آساً، أيقظ الغضبُ سانتيليثس فجأة.

– ليس صحيحاً – صاح وهو يمسك بيد العجوز الممتدة للاستيلاء على الرزمة.

اختنقت بيرتيتا بشراب الرمان الذي كانت تتناوله.

– هل تعني أن أبي يغش؟

وكان سانتيليثس يصرخ:

– لا يمكن، لا يمكن، لا يمكن! عندما كنتُ أصطاف في حمّة بانيمابيدا، تعرّفتُ على سيدة أمضت وقتاً في الأوروغواي...

– عندما كنتَ تصطاف أنت! – صاح به العجوز، ويده لا تزال أسيرة يد سانتيليثس.

– اترك يد أبي، من فضلك! ولا تكن مهرجاً – قالت له بيرتيتا، وأضافت: – أنتَ تعرف أنه ليس هناك ما يزعجني مثل من. آه...

– ثم يأتي ليقول إنني كاذب! – احتج دون إوسيبيو – أعطني جرعة من شراب الرمان يا ابنتي، فقد أثارت هذه المشاجرة عطشي لمشروب حلو.

– لا، لن أعطيك. لم يبق لدي منه إلا القليل.

- ستتتفخين. فشرب نصف زجاجة كاملة، في ليلة واحدة، كثير جداً...

وألح سانتيليثس:

- لا يمكن أخذ الرزمة! لا يمكن، ولن أسمح به، لن أسمح لكما بأن تستغبياني...

- من الذي سيستغبيك من أجل بضع حبات من الفاصولياء؟

- قال دون إوسيبيو.

- وهل السينما ليست شيئاً؟ منذ أربعة أسابيع وأنا أتحمل دعوتكما.

- ياه! السينما! السينما!

وقالت بيرتيتا:

- هذه الكاناستا مزعجة. لم أشعر بمثل هذا الضجر قط. حسن! فلننته، إنني أشعر بالنعاس. ولنأخذ رأي الأغلبية. ماذا تقول أنت، يا سانتيليثس؟ هل من الممكن أم من غير الممكن أخذ الرزمة، قبل النزول، مقابل ورقة آس وجوكر؟

- غير ممكن...

- غير ممكن، هذا صوت واحد. وأنا أصوت بأنه ممكن. صوت مع، وصوت ضد. وأنت يا أبي: هل هو ممكن أم غير ممكن؟

- غير ممكن! - ردّ العجوز وهو ساه، لأنه كان ينظر بجشع إلى زجاجة شراب الرمان. غضبت بيرتيتا لتشوش أبيها، لأنه

وضعها، حسب رأيها، في موقف مضحك. فنهضت واقفة وهي تضرب المنضدة بيدها ضربة خلطت كل الأوراق. ومضت لتنام، دون كلمة وداع، تاركة للرجلين مهمة إعادة ترتيب أوراق اللعب، لحفظها. لكنها لم تنس أن تحمل أجربة الفاصولياء.

وبينما سانتيليتش يصعد الدرج إلى غرفته، كان يفكر في أنه لم يبق له سوى أقل من أربع ساعات ينامها، قبل أن ينهض للذهاب إلى المكتب. كانت تسقط، من زجاج مكسور في كوّة السقف، قطرة ماء لجوجة في طست. ومن حجرات الممر المظلم، كان يتعالى شخير النزلاء الذين لا يختلط بهم دون إوسيبيو وبيرتيتا، لأنهما اقتصرا على منحه، هو وحده، امتياز التقرب منهما. شكل المفتاح، وبرودته في يده، وصوت احتكاك المعدن الخافت، وهو يُدخله في القفل، أيقظته قليلاً. ارتدى بيجامته. وتوجه، وحمالة المفاتيح في يده، نحو خزانته، وفتح الدرج الأخير فـــيها.

وكان قلب المغلفات على سريره، ونشر بعض المحافظ الجلدية، كافـــيين لتحويل غرفته. فقد طغت روائح جديدة، نفاذة وحيوانية، على الروائح اليومية المتعبة. تولدت أغصان ساكنة، جاهزة لأن تهتز بعد القفزة الوحشية. وفـــي أعماق الخضرة الكثيفة، سُمع تقصف النباتات، تحت ثِقل القوائم الحذرة. واهتزت الأعشاب بدهاء الأجسام المتنقلة. روائح الحيوانات لوثت نقاء الهواء. وانفعلت الظلال الخضر والبنفسجية، والضوء

الملطخ، تأثراً بحضور الجمالِ الخطِرِ، وبالتوعد المترصد من وسط الظُّرف والقوّة.

ابتسم سانتيليثس. فبيرتيتا غير قادرة على فهم هذا. ولم يعد مهماً الوقت، ولا النعاس، ولا المكتب: فقد مدّ الوقت حدوده، في احتضان سخي. أخرج سانتيليثس كل شيء. وفرد كل شيء على السرير، على الأرض، على المنضدة، على الكوميدينو، وعلى الصوان، وراح يتأمل الصور بتمهل وسعادة. بحث عن كيلو الدبابيس التي لديه. مجموعته هي الأكبر والأجمل في العالم. بالرغم من أنه لم يُرِها لأحد، ولم يتحدث عنها قط. يكفـــيه هذا اليقين الحميم لكي يشعر بالتفوق، بالثبات، بالاعتزاز في مواجهة الآخرين الذين لن يتمكنوا مطلقاً، من معرفة ما يخبئه في الدرج الأخير من خزانته.

من راتبه الأول، كموظف أرشيف، منح نفسه، منذ سنوات طويلة، ترف شراء علبة شوكولاته مزينة بشريط سماوي، غطاؤها مزين برسم جرو مدلل، من فصيلة أليفة، يلعب بكبّة من خيوط الصوف. وبعد أن أكل الحلوى، رفض التخلص من العلبة، لأنه وجدها جميلة جداً، فاحتفظ بها. وظل يحتفظ بها سنوات طويلة. وكان، في بعض الأحيان، يتذكر تلك الابتسامة التي لم تكن ابتسامة، وذلك الإيحاء بالخطر الكامن في القائمة اللعوب ذات المخالب التي تكاد لا تظهر. فكان عندئذ يُخرج العلبة لينظر إليها. ومع مرور الزمن، صار يُخرجها أقل فأقل،

إلى أن أحس بأنها لم تعد تكفيه، وأن الدافع الجوهري لاحتفاظه بها قد بدأ يخف، ولا علاقة له بها تقريباً. وفي مساء أحد الأيام، بينما هو يتصفح أعداد مجلات قديمة، في مكتبةِ مطبوعات عتيقة، وجد ريبورتاجاً مصوراً بالألوان، لا يتناول أنواع الحيوانات الأليفة وحسب، وإنما أنواعاً أخرى مختلفة بصورة عجيبة: تلك التي تعيش في الأدغال وتفترس. فتذكر علبة الحلوى. لكنه ما لبث أن نسيها، لشدة شغفه بما يراه. فهنا، في الصور المثيرة التي يتأملها بانفعال، أحس بأن اقتراب الخطر، والقسوة المجردة، يزيدان كما يبدو، من الجمال، ويمنحانه فعالية متسلطة، ويجعلانه يفور، يتأجج، يُبهر البصر، إلى حدّ تضمخت معه يداه بالعرق، وأخذت أجفانه ترتعش. فاشترى المجلة بحماسة كبيرة. ومذ ذاك، صار يتردد بكثرة على المكتبات، بحثاً عن شيء... شيء يطيل من أمد ذلك الانفعال، يوسعه، يضاعفه. وصار يشتري كل ما يستطيع العثور عليه. كانت تغريه، أحياناً، كتب باهظة الثمن، فيحلّ به الإفلاس عدة أشهر. وقد أوصى، أكثر من مرة، على أبحاث متخصصة، من الخارج، بلغات لا يعرفها. لكن تصفحه لها، ومداعبتها، يُشعرانه بأنه يكتسب شيئاً... شيئاً إضافياً.

كانت تنقضي عدة شهور، أحياناً، دون أن يؤدي تجوله، في المكتبات، إلى العثور على شيء. فيبقى في غرفته شبه المعتمة، على ضوء مصباح الكوميدينو الأزرق وحده، يتأمل

الصور، باحثاً عن انفعاله الضائع بين تلك الرسوم التي تظل، بشقاوة، دون حراك، مختزلة إلى مجرد ورق وحبر مطبعة. فـيظل شيء في داخله أيضاً، دون حراك. كان تلهفه في البحث، يصيب مخيلته بالشلل، لأن اللهفة إلى امتلاك ذلك الشيء تحديداً، كانت تنمو كنبتة متسلقة، تبهر البصر وتشل الجسد، فلا تدع متسعاً إلا لنفسها.

وكان أن قالت له بيرتيتا في واحدة من تلك الأمسيات:

- اسمع، يا سانتيليتش. هل أكل أحدهم ذيلك، حتى صرت تبدو بهذه الغرابة؟

وكان ذلك أشبه بانتزاع القلة القليلة المتبقية من خصوصيته. تذرع، في المكتب، بأنه مريض، وذهب إلى حديقة الحيوان. أمضى وقتاً طويلاً إلى جانب أقفاص الضواري. كان الذباب يطن حول أشداقها وروثها النتن. وكانت ذيولها متسخة، وفراؤها مشعثة وباهتة، وأقفاصها صغيرة بصورة مخيّبة للآمال. وعندما ألقى إليها الحراس قطعاً من لحم البقر، مستخدمين عصياً طويلة، انقضت الضواري على مزق اللحم الدامية، وسحقت العظام وهي تزمجر، وسال لعابها حاراً وهي تلتهمها. هرب سانتيليتش. كان هذا هو ما يبتغيه؛ ولكنه ليس هذا. خلال الوقت الذي تلا زيارته حديقة الحيوان، لم يعد يقنع، أثناء بحثه في المكتبات، بجمال الصور التي تُبدي فـيها الحيوانات المفترسة ابتسامتها المثلثة، ومشيتها المهيبة، كأنها

إيعاز محكم بالموت. صار به تعطش إلى البحث عن مشاهد وحشية، حيث الأشداق الرطبة مخضبة بحيوية الدم، أو حيث ثِقل الحيوان يلقي، بكل وحشيته، على طريدته المذعورة. كان قلب سانتيليثس يخفق مع خفقان قلب الضحية. ولكي ينجو من الرعب، يُبقي عينيه مصوبتين إلى المعتدي ليتماثل معه.

الليلة الفائتة، أطلق سراح أجملها، أطلق سراح الأمراء، المفضلين لديه. وعلقها فوق رأس سريره، إلى جانب الصوان وخزانة الملابس. وبقي، لوقت طويل، متمدداً على السرير، تحت ضوء مصباح الكوميدينو. لم يكن ينظر إليها وحسب، وإنما يحس أيضاً بأنها استولت على غرفته. انفلتت أصوات خطرة، يمكن لها ألا تكون سوى وقع قائمة وحش، في بركة ماء، أو تكسر غصن؛ أو انتصاب مفاجئ لآذان مرهفة. وهرعت أجسام ذات مشية تامة، ووميض عيون، تلمع مع حلول الظلام، إلى أن تحرق؛ وروائح، ونفثات هواء مستهلك في رئات قوية، وحضورات، واحتكاكات، وحرارة فراء مشدودة على أناقة عضلات بارزة؛ هرعت دعوة للمشاركة في حياة حارة متألقة، للتعرض إلى التحول إلى شدق ودم، إلى ضحية ومعتد.

لكن سانتيليثس كان قد استغرق في النوم.

بعد أقل من ساعة على ذلك، طرق دون إوسيبيو عليه الباب. ودخل دون انتظار الإذن له بالدخول. وعندما أشعل الضوء، أوضح أنه جاء يطلب معروفاً – وهو معروف لا شك في أن

سانتيليثس سيسديه إليه، بالنظر إلى الجو الحميم الذي يخصانه به – بأن ينهض باكراً هذا اليوم؛ لأن سخان الماء في أحد الحمامين معطل، ومن الملائم تخفــيف الازدحام عن الآخر قدر المستطاع، في موعد خروج النزلاء المعتاد إلى أعمالهم. لكنه لم يتمكن من إتمام توضيحه، لأن عينيه شخصتا فجأة، وفغر فمه الأدرد. وبعد ثانية من الذهول، بدأ السباب، مرغماً سانتيليثس على نزع كل ذلك عن الجدار فوراً.

عندما خرج العجوز، تأخر سانتيليثس طويلاً في ارتداء ملابسه. لم يعد يهمه أن يصل متأخراً إلى المكتب هذا اليوم: فهو في نهاية المطاف، لم يتأخر قط، خلال ستة عشر عاماً من العمل. وبينما هو ينزل على رؤوس أصابع قدميه، تقلبت معدته ليقينه بأن بيرتيتا ستسمع خروجه. رجع إلى حجرته وبدّل حذاءه بآخر ذي نعل مطاطي، وعاد للنزول، بصمت أشد. لم يكن هناك ضوء في غرفتها... أم أن هناك ضوءاً؟ وانسل، بأقصى قدر استطاعه من الهدوء، أمام بابها. لكنه سمع الصيحة المنتظرة:

– سانتيليثس!

توقف، والقبعة مرفوعة فوق رأسه الأصلع:

– أتكلمينني، يا بيرتيتا؟

– لا تتظاهر بالغباء. اسمع. تعال إلى هنا...

داعب سانتيليثس لحيته الصغيرة قبل أن يدخل، متفحصاً ذبابتين ميتتين، متيبستين منذ سنوات، أسيرتين بين الشبكة

المعدنية المغبرة والزجاج. كانت بيرتيتا لا تزال في الفراش، جالسة وسط ما يبدو بحراً من الوسائد السمينة، في سريرها المركيزي الضخم. كانت هناك، على الكوميدينو، علبة مسحوق بودرة مقلوبة، ومشط تشابك فـيه بعض الشَّعر، ومشابك ومُجَعدات للشعر. وإلى جانبها، كان دون إوسيبيو يقف باحتراس، ممسكاً مكنسة بيده، ويعصب خرقة على رأسه.

– أيبدو لك قليلاً ما يجب عليك عمله، حتى تظل واقفاً كالأبله؟ – صاحت به بيرتيتا، فخرج العجوز هارباً، ليحل محل الخادمة التي صُرفت من العمل، في الأسبوع السابق.

عندما بقيا وحيدين، خفّضت بيرتيتا عينيها، وبدأت البكاء. كانت يداها ترتجفان فوق لحاف الأطلس الأزرق. وكان صدرها كمضخة ضخمة، ينتفخ وينتفخ. وسالت الدموع على خديها العريضين المزينين للتو بالبودرة. حين رأى سانتيليثس ذلك، أدرك أن بيرتيتا قد تهيأت مسبقاً لانتظاره، وأراد الخروج من الغرفة.

– سانتيليثس! – سمعها تقول من جديد.

كانت بيرتيتا تأسره بنظرتها، وهي نظرة جافة الآن.

– المسألة أنني...

– أتريد أن تقول لي، انظر...

– إذا كنت لم...

- ... كيف يمكنك عمل ذلك، بعد كل ما فعلته من أجلك...

وانخرطت في البكاء من جديد، قائلة:

- كل تلك القردة القذرة... أنت تكرهني...

- كيف يمكنك قول...

- أجل، أجل، أنت تكرهني. وأنا التي تصرفتُ معك مثل أم، عندما أجروا لك العملية الجراحية. كنت أعدّ لك وجباتك الخاصة، ورافقتك طوال الوقت كيلا تظلّ وحيداً. وتذكر أني تخليت لك عن هذه الغرفة، عن غرفتي الخاصة، وعن سريري الخاص، لكي تأخذ راحتك وتشفى جيداً. أنت منتهى نكران الجميل...

وتذكر سانتيليثس، بقشعريرة، فترة نقاهته في حجرة نوم بيرتيتا، بعد أن أُجريت له جراحة القرحة. لقد تخيل ذلك الشهر من الراحة، في السرير، بأجر مدفوع، وببديل له في المكتب، وكأنه الجنة نفسها. كان لديه ما يكفي من الوقت، من أجل تفحص هادئ لألبومات قصاصاته وصوره، وقراءة كل ما بإمكانه قراءته عن عاداتها، وتوزّع أنواعها جغرافــياً، وعن أماكن سكناها الغريبة. ولكن بيرتيتا، دون أن يتمكن من الاعتراض، أجبرته على الإقامة في الطابق السفلي، عندما كان لا يزال ضعيفاً جداً، في غرفة نومها بالذات، لتبقيه في متناول يدها، وتقضي النهار كله إلى جانبه، تخنقه برعايتها، دون أن تتركه وحيداً لحظة واحدة طوال اليوم؛ تسليه، تحرسه، وترى

في أدنى *إيماءة تصدر عنه، رغبة لا وجود لها لديه، ومعنى لم يقصده، وطلباً لشيء لا يحتاج إليه. أما هناك، في الطابق العلوي، في غرفته الخاصة، فقد ظلت العيون تلمع عماءً، والأجسام الكاملة مسطحة، في درج خزانته، طوال شهر بكامله، بانتظاره. لأن بيرتيتا لم تسمح له بالعودة إلى غرفته، إلى أن أحست بالرضا الكامل عن تحسن صحة سانتيليثس تماماً.*

– لكنني أقدرك كثيراً، يا بيرتيتا.

– تقدرني، آه؟ – سألت، متوقفة عن البكاء فجأة، بينما هي تهز الصور التي أحضرها لها دون إوسيبيو. وتابعت:– آه، نعم، آه؟ وتظن أن هذا يمنحك الحق بتخريب البيت كله على هواك؟ وهذه القردة المقرفة... من أجل هذا تحبس نفسك في غرفتك. الآن اكتشفتك. ولن يعود بإمكانك الآن عمل شيء، من أشيائك الغريبة، دون علمي. ولا يمكن لهذه الأمور، بعد الآن، أن تحدث في هذا البيت. قد نكون فقراء، ولكننا أناس محترمون؟ وانظروا إليه فقط، كيف يدمر بيت أناس محترمين! أنت تريد الثمرة مقشورة، وفي فمك. أجل، هذا هو ما تريده، مثل كل الرجال الذين تضحي كل حمقاء منا في سبيلهم، ثم يفعلون بعد ذلك أشياء غريبة، دون أن يخبروا إحدانا بها... ثم يكرهونها.

– كيف يخطر لك قول هذا يا بيرتيتا، فأنا أحبك كثيراً...

– لا تأتِ الآن لتضحك عليّ، لأني عانس بائسة وحيدة. عليّ أن أتحمّل أبِي الذي لا يطاق، وغير القادر حتى على حمايتي.

أنت تعرفه الآن عجوزاً، لم تبق له سنوات طويلة في الحياة، لكن، ليتك رأيته كيف كانٍ من قبل؛ وكل ما فعله لجعلنا نتعذب، بالله عليك. لقد كان غافلاً، مثل كل الرجال، مثلك أنت: أناني، مدعٍ، قذر، لأن هذه القردة، انظر إليها، ما هي إلا قذارة خالصة. ولا تحاول مخالفتي. ثم يلعب أحدكم، بعد ذلك، الكاناستا مع واحدة منا، متظاهراً ببراءة قديس، لكي يغشها، ويقدم لها قطاً على أنه أرنب... كيف لا، وأنتم تعتقدون أن المرأة حمقاء. سأصلح جدران غرفتك كلها من جديد، وأضع لها أغلى ورق الجدران ثمناً، وسوف تدفع أنت التكاليف، حتى لو بلغت مليوناً. سأصعد فوراً، لأرى القمامة التي خلّفتها هناك في الأعلى، ولن أبالي حتى لو أُصبتُ بالزكام بسببك.

حين رأى جسد بيرتيتا الضخم، يندفع قافزاً من بين الملاءات والوسائد، يستره بصورة غير محتشمة، قميص نوم نصف شفاف، اشترته من إحدى السيدات نزيلات البنسيون، فتح سانتيليثس الباب وهرب. لاحقته روائح الغرفة المغلقة، والبودرة، وشراب الرمان الدبق والوردي، والرائحة الواهنة لجسدِ عذراء مسنة، لاحقته كلها راكضة على امتداد أربع كوادرات، حتى مكتبه. صعد الطوابق الخمسة راكضاً، لأن المصعد كان معطلاً، ودخل دون أن يحيي أحداً، وحبس نفسه في مكتبه، طالباً ألا يزعجه أحد، لأي سبب؛ وألا تُطلب منه ملفات حتى يوم الاثنين، لأنه سيخصص اليوم لإجراء

مراجعات. راح يتمشى بين الخزائن المترعة بملفات الأوراق. وكانت هناك، على إفريز نافذته، بضع حمائم تنقر شيئاً، وتنظر إليه بين حين وآخر. جلس إلى منضدته، ثم نهض ثانية. نظر من النافذة إلى فناء الإنارة الضيق الذي قسمته الأشعة المنحرفة إلى قسمين، وإلى السحب التي تتجرجر في سماء الصباح القاتمة، هناك في الأعلى، وإلى الصبية الشقراء التي تلعب في قاع الفناء، تحته بخمسة طوابق.

انتظر طوال الصباح، ولم يخرج للغداء؛ وظل محتبساً طوال المساء. نظر مرة بعد أخرى إلى كل شيء؛ إلى السماء، وإلى الخزائن، وإلى الفتاة التي تلعب مع قطّ، محاولاً ألا يفكر، أن يُبعد لحظة الوصول إلى البيت، ليجد أنه ليس لديه الآن أي شيء.

-٣-

عندما خرج سانتيليتش، ذلك المساء، من المكتب؛ ذهب للتسكع في شوارع حديقة الحيوان وما حولها، لأن الحديقة كانت قد أغلقت أمام الجمهور. قام بجولة بعد أخرى، قرب القضبان. وكان يتوقف فجأة، حين يميز الروائح التي يعرفها، وسط خليط الروائح الكثيرة المنتشرة. ومن محبس الأقفاص الليلية، كانت تصله زمجرات واهنة، راحت تُستنفد. ولكن، لأنه لم يكن راغباً في رؤية شيء أو سماع شيء، فقد انصرف عندما أطبق ظلام

الليل فجأة، وواصل تسكعه في الشوارع. أكل سندوتش مع صلصة ذات بهارات مفرطة، دفعته إلى التفكير في إصابته بقرحة أخرى. ثم دخل بعد ذلك إلى دار سينما، متواصلة العروض، ونام في المقعد. عندما خرج، كانت الساعة تقارب الواحدة فجراً. من المؤكد أنه لم يبق أحد مستيقظاً في بنسيون بيرتيتا. وعندئذ فقط، قرّر أن يعود.

داهمته، في الممر، رائحة أوراق محروقة، طغت على رائحة مقالي كل يوم جمعة – سمك مزيف – لكن، دون أن تتمكن من محوها. كان هناك صمت كبير يخيم على النزل، كما لو أن أحداً لم يسكنه قط. وصل حجرته، وارتدى بيجامته التي من الفانيلا المخططة. وانهمك لبعض الوقت في البحث، باشمئزاز، عن صوره وقصاصاته، عن ألبوماته ومغلفاته، في الأدراج، وتحت السرير، وفوق خزانة الملابس. لكنه شعر بالبرد، فاستلقى في السرير وهو يرتعد، بعد أن أطلق بعض الغرغرات بكل هدوء، لأنه كان يعلم، بل يثق، بأن بيرتيتا قد أتلفت له كل شيء. لقد أحرقتها. لقد أمضى النهار، في المكتب، وهو يستعرض الصور في ذهنه، ليودّعها. وما الذي يستطيع عمله سوى ذلك؟ فمن المستحيل إبداء أي احتجاج أو مطالبة. عند استذكار الصور، يرى نفسه طفلاً صغيراً جداً، وبيرتيتا واقفة إلى جانبه، تقلّب صفحات الألبومات، وتريه الرسوم دون أن تسمح له بلمسها. حضورها المفروض بالإكراه، إلى جانب فتنة الحيوانات، راح

يمحق التخيلات المستَذكَرة، يستنزف الدم منها، ويختزلها إلى ذكرى ظروف شرائها، وإلى ثقل الكتب، وإلى الأبعاد المختلفة للصور المصقولة، إلى ورق، إلى كرتون، إلى ألوان طباعة. غير أن جوهر الضواري امتنع عن الحضور. وكان ذلك كما لو أن سانتيليتش يحرق ذهنياً، كل واحدة من الصور، بنار لا تلبث أن تنطفئ.

أدمن عادته في الاستيقاظ منذ الفجر، ليتحاشى بيرتيتا ودون إوسيبيو. وكان يرجع في وقت متأخر جداً، لينهار منهوكاً في سريره، ويستسلم لنوم ثقيل بلا صور. وصار يقيم أوده بالسندوتشات، والفول السوداني، والسكاكر، فصار هضمه، الواهن في العادة، عسيراً. لقد كان في المكتب مثلما هو عادة، منضبطاً، محترماً، منظماً. لم يلحظ أحد فيه أي تبدل. ولأن العمل كان قليلاً، في تلك الفترة، فقد وجد فائضاً من الوقت كيلا يعمل شيئاً، وليجلس بجانب النافذة، وينظر إلى السماء، وليقدّم فتات خبز إلى الحمائم التي تحط على إفريز النافذة، وليتفحص أسطح المدينة من جانب الفناء المفتوح، أو ليتسلى بمراقبة الفتاة الشقراء التي تبدو في قاعِ فناء الإنارة، على بعد خمسة طوابق إلى أسفل، مشغولة دائماً بشيء ما: غسل ثياب، سقاية نبتة واهنة، اللعب مع القط، أو تسريح شعرها لوقت طويل.

كان يمر، أحياناً، أمام بيوت عُلِّقت عليها لوحة تقول: «نؤجر غرفاً مع تأمين الطعام». فيدخل ليعاين ما هو معروض،

متصوراً أنه سيكون بإمكانه تبديل البيت. وكان يتحدث قليلاً إلى ربة المنزل التي تُفتن بالوقار الجلي لنزيلها المحتمل. لكن سانتيليش ينتهي دائماً إلى العثور على عيب ما، في نور الحمّام، في الدرج الطويل جداً، في سقف الغرفة المقشور، لكي يجد ذريعة للرفض. ومع ذلك، لم يكن يخدع نفسه: كان يعرف أن ذلك لم يكن حجة، وكان يعرف أنه لن يغادر بيت بيرتيتا. فمن الصعب البدء بإقامة علاقة جديدة مع أي شخص، أياً كان ذلك الشخص. كانت الفكرة تؤلمه. تسبب له هواجس محددة جداً. أضف إلى ذلك، أنه صار في سنٍّ، من المشروع له فيها أن يسعى إلى الراحة، وأن يدفع ثمناً غالياً لقاءها. ومهما ساءت حاله، فإنه يعرف أن بإمكانه أن يلعب، كل ليلة، بضعة أدوار كاناستا، دون أن يضطر إلى وضع أسنانه الاصطناعية، وأن يطمئن إلى أن قمصانه لن ينقصها زرّ واحد، وأن حذاءه سيكون نظيفاً في الصباح، وستُحترم اضطراباته المعوية، وأذواقه، ونزواته الصغيرة. لقد كان في وضع راسخ الاستقرار، مما يحوّل التخلي عنه إلى مأساة.

لكنه لم يتوصل حتى الآن، إلى اتخاذ قرار بالعودة إلى البيت، في ساعة يضطره فيها حدوث مواجهة، إلى اتخاذ موقف حاسم بشأن صوره المفقودة. ولم يكن بإمكانه، في نهاية المطاف، أن ينكر أنه شوّه الجدار. وأن لهما الحق بمعاقبته. كلما تذكر ذلك يحس بشيء ساخن يضطرب في أحشائه... لقد

أحرقت الصور. لكنه يفضل أي شيء على المواجهة مع بيرتيتا – لم يكن بمقدوره أن يمد يده، ليطلب منها ما هو له –. لكنه لا يستطيع القول إنه لا يرغب في العودة، مع ذلك، واستئناف نظام حياته المنتظمة. كان يفكر في هذه الأشياء وهو يرقُم ملفات، أو يقف إلى جانب نافذة مكتبه. كانوا قد خطوا على النافذة المقابلة، لوحة جديدة: «ليفا إخوان». من يكونون يا ترى؟ وهناك في الأسفل، في قاع فناء الإنارة، كانت الفتاة تخيط. من المحزن أنه لا يستطيع رؤية وجهها الذي لا بد أن يكون في غاية النشوة، وهي تلعب مع قطتها. كان يعلم أنها قطة، لأن لها صغاراً، عددهم الآن خمسة أو ربما ستة، وكانت القطط الصغيرة، تطوف حول الفتاة التي تقدم إليها الحليب، وتداعبها.

ربما كانت النشوة التي أحدثتها ولادة الهريرات، هي التي جعلته ينسى مخاوفه. توجه هذا المساء مباشرة، بعد العمل، إلى البيت، وكأن شيئاً لم يحدث. وفـــي نيّته أن تمحو طبيعيته كل مطلب من جهته، وتلغي كل لوم من جانب بيرتيتا. وكان عليه أن يفرض على نفسه، بأنه لم يحدث بينهما، قطّ، أي حادث مزعج. أضف إلى ذلك، أنه سيستسلم عاجلاً أو آجلاً، ومن الأفضل له أن يفعل ذلك الآن، قبل أن يتضرر جهازه الهضمي نهائياً، وقبل أن تتفزر قدماه، من كثرة المشي في الشوارع.

دخل البيت صافراً، وتنبه إلى أن بيرتيتا، حين سمعت صفـــيره، قطعت تدفق ماء الحمام القوي، فجأة، كي تخرج

للقائه. صعد سانتيليثس الدرج دون أن ينظر إليها، لكنه نظر إليها من بسطة السلم، ورآها تنظر إليه من تحت، بدهشة، وهي تجفف ذراعيها بمنشفة.

– آه، بيرتيتا! – صاح سانتيليثس – مساء الخير...

وتابع صعوده دون أن يسمع ما قالته بيرتيتا.

وعندما وصل إلى غرفته، استلقى على السرير باسماً. هذه الحجرة الفسيحة تبدو مريحة جداً، وإن تكن مظلمة بعض الشيء. هذه الحياة الجديدة، الخالية حتى من خطر الورق المطبوع، ومن الدعوة المعذّبة التي دأب، منذ سنوات، على بسطها لنفسه، يوماً فــيوماً، وليلة فليلة، دون أن يساهم فــيها إلا بأصداء نائية ومسالمة. وكان قد غفا قليلاً، عندما سمع نداء عذباً جداً عند بابه:

– سانتيليثس؟

– بيرتيتا؟ ادخلي...

أحس سانتيليثس بأنّ يد بيرتيتا قد أفلتت قبضة الباب فجأة، حين سمعت دعوته.

– لا، لا، شكراً. لا أريد إزعاجك. فلديك أشياء عليك عملها...

لم يجب سانتيليثس ليرى ما الذي سيحدث. وبعد لحظات، تابعت بيرتيتا.

- ... جئت لأقول لك إن الغداء سيكون جاهزاً خلال ربع ساعة، وهكذا...

ساد صمت. وهي محاولة لم يملأها سانتيليش.

- ... أعددت فروجاً مطبوخاً على الطريقة التي تروقك كثيراً...

- أية طريقة؟ – سألها.

عادت يد بيرتيتا الجزعة، لتستقر على قبضة الباب.

- تلك الطريقة التي وجدناها معاً ذات مرة، في مجلة أرجنتينية. هل تتذكر؟ وقد أعددتها، كتجربة، في يوم عيد ميلاد أبي.

- آه، حسن، لحظة واحدة وأنزل...

- رائع، لكن لا تتعجل. بعد ربع ساعة...

وبدا له أن بيرتيتا بقيت عند الباب دقيقة أخرى. لكن، لا، فقد انقضت ثانية واحدة، قبل أن ترجع عبر الممر وهي تترنم بشيء. انتظر هنيهة، غسل وجهه في طست الغسل، وصب الماء في الدلو المزين برسوم أزهار، ثم أصلح ربطة عنقه، ونزل.

كان الفرّوج لذيذاً جداً. ولم يجد مفراً من الاعتراف بأن لبيرتيتا يداً بارعة في الطبخ حين تقرر إعداد شيء. وبدا أن مديح سانتيليش قد فَتَلَ رأسها.

– إن لك يد ملاك يا بيرتيتا، يد ملاك. يا لسعادة من يقضي العمر إلى جانبك...

وسكب لنفسه ثلاث شرائح.

أشعلوا المذياع، وكان برنامج «ليالي إسبانيا» الذي احتفى به دون إوسيبيو بحماسة مفرطة، تثير الشبهة، كما لو أنه يستجيب لكلمة سرّ متفق عليها. نظرت إليه بيرتيتا بصرامة. وعندما بدأ العجوز بقص دعابات أندلسية مخجلة، قاطعته بيرتيتا لتقترح لعبة كاناستا. رحّبوا جميعهم بالفكرة على أنها باهرة، وأخرجوا ورق اللعب. كانت أدوار اللعب هذه الليلة هادئة، مرحة وسريعة. وربح سانتيليثس بسهولة، دون أي احتجاج من جانب بيرتيتا أو دون إوسيبيو.

– انظر... المس كم هو جرابك ممتلئ يا سانتيليثس، أليس جميلاً؟

– ألا تحتفظين لي به؟ أرجوكِ.

– طبعاً. أنا سأُعنى به.

عند نهاية الأسبوع، كان جراب سانتيليثس مملوءاً، بينما كان الجرابان الآخران ضامرين. وبدا دون إوسيبيو كمن هو ملسوع، لأن عليه دعوتهما إلى السينما هذا الأحد، فقلّ كلامه، واستغرق في صفحة سباق الخيل في الصحيفة، إلى أن انتزعتها ابنته منه. اختار سانتيليثس فـيلم: «**بركان عواطف**»، على شرف بيرتيتا التي ظلّت طوال الأسبوع تتحدث عن رغبتها في رؤيته، لأن

النزيلة نفسها التي باعتها قميص النايلون المهرب، أخبرتها بأنه يدور حول امرأة تبدو سيئة، لكنها طيبة في أعماقها. لقد بالغوا هذا الأسبوع في تدليل سانتيليثس، إلى حد أحس معه بأنه قادر على أن يطلب من دون إوسيبيو أن يعيره منظاره بعيد المدى الذي يستخدمه حين يذهب إلى سباقات الخيل، قبل أن تشفيه بيرتيتا من هذه الآفة التي كلّفتها كثيراً من الدموع. وأوضح سانتيليثس أنه يريد المنظار، ليتسلى بالنظر من نافذة مكتبه، في هذه الفترة التي يقلّ فيها العمل.

كان يريد المنظار، فعلاً، لينظر من النافذة. ولكي يرى، تحديداً، الفتاة التي تلعب في الفناء مع القطط، طوال النهار، وكل يوم.

عندما وصل إلى المكتب، توجه مباشرة إلى النافذة. ولكنه وجد مشقة كبيرة في العثور على البؤرة المضبوطة. فقد قيدت اللهفة يديه، وجعلته يفكر في أنه يستطيع التوصل إلى بؤرة أفضل، في كل مرة. وأخيراً، أحس بالرضى. كانت فتاة في حوالي السادسة عشرة من عمرها، لها شعر أشقر وأملس. تبدو حساسة، يسيطر عليها ملمح كآبة، كأنها تقول إنها لا تنتمي إلى أحد، أو إلى شيء. تأثر سانتيليثس. وكانت تتقافز حول الفتاة، ثماني أو تسع قطط بيضاء تشوبها حمرة، هي بنات القطة الضخمة التي كانت تغفو في حضنها. أحس سانتيليثس بالذعر حين رأى ضخامة القطة. فحص الفناء بالمنظار. لكن، ألم يكن

هناك قط آخر كبير جداً، قابع في الظل؟ وما هي تلك الظلال التي تتحرك وراء الشجيرات؟ ومع تقدم المساء، رأى سانتيليثس أن عدة قطط أخرى، قد أتت إلى الفناء، من فوق الحاجز، وعن أفاريز النوافذ، و متدلية من شجرة لم يلحظها من قبل. وكانت الفتاة تداعبها مبتسمة. ما الذي كان يحدث في هذا الفناء ليلاً، عندما تكون مكاتب المبنى جميعها مقفلة؟ مع العلم أن الحيوانات الهرّيّة تصبح غدّارة في الليل، وأن شيئاً يحصل لها، يملؤها بضراوة لا تلبث أن تخمد مع مجيء النهار. أوتظل الفتاة هناك، محاطة بالحيوانات الهرية المتثاقلة؟

كان من السهل عليه، وسط معاملة التدليل التي يلقاها في البيت، أن ينسى نوبات الذعر التي يثيرها فيه خوفه على الفتاة. وما عدا ذلك، وكان هذا هو سرّه الخاص، فإن معاملة بيرتيتا الرقيقة له توشك على النفاد، مثلما يحدث دائماً. ووراء كل اهتمام توليه إياه، يصيبه الخوف؛ ويبقى له دوماً العزاء في هذه الصداقة، عن بُعد، مع الفتاة الشقراء التي تعيش في فناء الإنارة. كان اليقين الذي يمده به الوعي، في هذا الشأن، مؤكداً، إلى حدّ أنه، حين علم في إحدى الليالي، أن العشاء سيكون تشاركيكان(١)، قال:

- لا أحب التشاركيكان. أريد لحم دجاج.

---

(١) طبيخ لحم مع خضار منوعة.

فردت عليه بيرتيتا:

- أنت تريد دجاجاً مرتين في الأسبوع. لا يمكننا ذلك حتى لو كنا مضاربين في البورصة. انظروا إليه، ماذا تظن نفسك...

- معك حق. ولكنني راغب في أن آكل الدجاج.

غضبت بيرتيتا:

- اسمع، انظر، إنك تتجاوز الحدود في طلباتك يا سانتيليشس. وكل هذا لأنك تعلم أننا نتعامل معك...

بدأ يكتشف شيئاً في عيني بيرتيتا اللتين صارتا مجدداً، بعد هذه الأشهر، عاريتين بصورة خطرة. فبينما هي تشمر كمي مريلتها، لم يرفّ لها جفن، ولو مرة واحدة. ثم سكبت لنفسها كأساً كبيرة من شراب الرّمان. فقال سانتيليشس مسرعاً، قبل أن تُخمد نظرتها جرأته:

- اسمعي، يا بيرتيتا، أخبريني شيئاً. ألا تتذكرين بعض القردة، بعض لوحاتي التي علقتُها، منذ بعض الوقت، على جدار غرفتي، ثم لم أعثر عليها بعدئذ؟ ألا تعلمين ماذا حلَّ بها؟

كادت الكأس تسقط من يد بيرتيتا. وذابت عيناها القاسيتان، وهما تتفاديان نظرة سانتيليشس.

- آي! بالله عليك، يا للمشكلة التي تثيرها بقرودك! لماذا يخطر لك التحدث في هذا الأمر الآن، بعد مضيّ شهرين تقريباً؟ ألا يخجلك الاهتمام بألعاب طفل صغير؟ وبعد أن... حسن، لقد

تحدثّت مع أبي بهذا الأمر، وبما أنك تفكر في البقاء نهائياً في الغرفة...

وهزمها هو قائلاً:

- «همم، هذا ممكن...

تثبتت عينا بيرتيتا عليه، ولم تغادراه بعد ذلك.

- ... ولهذا قررّنا أنه لا حاجة إلى استبدال ورق جدران الحجرة، أو عمل أي شيء. لا تقلق...

- طبعاً، فأنتما بالغا اللطف دائماً...

وانتظر إلى أن أطلقت بيرتيتا زفرة طمأنينة، ليقطعها عليها بإلحاح:

- لكن، ماذا بشأن الصور.

- آي، سانتيليثس، بالله عليك، دعك من الحماقات. فما أدراني بما فعله أبي بها؟ أقول لك إنني أعطيته إياها. وبالطبع... لا أدري إن كان ذلك سيزعجك. لكنني احتفظتُ بواحدة ملونة منها، معتقدة أن ذلك لن يضايقك، ووضعتها في ذلك الإطار ذي المرآة الزرقاء الذي خلفته نزيلة الغرفة الثامنة، بعد رحيلها. هل تريد الذهاب إلى غرفتي لتراها؟ يظهر فـــيها حب؛ سأخبرك باسم الحيوان، وسط كل تلك الأوراق الكبيرة، والأزهار الغريبة. أقول لك إنني شاهدت ذات مرة فـــيلماً...

خرج سانتيليثس دون أن يودعها.

بقي ذلك المساء في المكتب إلى أن غادر الجميع. وكلما تقدّم الليل، كانت الأضواء، في الجناح المقابل، تُطفأ واحداً بعد الآخر، إلى أن اكتسب البناء الإسمنتي مظهراً خاصاً، أشبه بعلبة ضخمة فارغة. دخلت هبة هواء، محملة بإيحاءات زخمة، من النافذة المفتوحة. كانا وحيدين، هو والفتاة الغافلة وسط القطط، تحته بخمسة طوابق. غاصت الظلال، متساقطة كتلة فوق كتلة، في الفناء الضيق، والمضاء ببريق عيون خضر، مذهبة، حمراء، نابضة. وبصعوبة، كان سانتيليثس يلمح أشكال الجسوم التي تنتمي إليها تلك العيون، بمساعدة المنظار. كانت الحيوانات بالعشرات، تطوف حول الفتاة التي لم تكن سوى بقعة شاحبة وسط كل تلك العيون التي تتوهج، حين تنظر إليها بنهم. كاد سانتيليثس يصرخ محذراً وهو منحنٍ من النافذة؛ غير أن زجاج «ليبفا إخوان»، قبالته، أضيء فجأةً، وفُتح مصدراً صريراً. ودوت ضحكة فاقعة ومبتذلة، مجتاحة صمت البناء، من جانب إلى جانب. بحث سانتيليثس عن قبعته في الظلام، وانصرف.

لم يصل هذه الليلة إلى البيت في موعد تناول الطعام. ومع ذلك، فقد ذهب في اليوم التالي، من مكتبه مباشرة، بحثاً عن بيرتيتا، وقال لها إنه عثر على مكان آخر ليقيم فــيه، وإنه يفكر في الانتقال الشهر القادم، ويمكن لها بالتالي أن تتصرف بالغرفة عند ذلك.

– ولكن، لماذا يا سانتيليثس؟ ماذا فعلنا لك؟ – تلعثمت.

– لا شيء...

- لستُ أفهم...

- المسألة هي أن زميلة لي في المكتب، أرملة ضابط، تخلت لي عن حجرة في شقتها، لأنه ليس لها أبناء. والشقة جميلة، فخمة، تبدو عصرية. وسأكون النزيل الوحيد عندها. تصوري مقدار الراحة، خاصة أن السيدة لطيفة جداً. بل إنها تعزف الجيتار أيضاً.

شحبت بيرتيتا، وبدأت تلهث، كما لو أن شيئاً يضغط عليها من الداخل، ويملؤها، إلى أن انفجرت:

- أنتم... إنكم تذهبون دائماً إلى حيث الشمس أدفأ، لأنكم جاحدون. اذهب، اذهب إن شئت... وماذا يهمني أنا؟ يا لك من جاحد، بعد كل المعاملة التي عاملناك بها في هذا البيت. ماذا يهمني؟ أنت خنزير، مثل كل الرجال، لأنكم لا تهتمون إلا بشيء واحد... خنزير، خنزير...

ومع ترديدها هذه الكلمات، بدأت تئن، وتجهش، وهي تبكي بيأس. وكان جدار قد انتصب داخل سانتيليثس، منعه من التأثر. لم يكن يكرهها، بل لا يريد بها سوءاً. وحتى لم تكن لديه خطط للذهاب إلى بنسيون آخر. لكنه رأى أنّ هذا هو ما كان يرغب، منذ زمن بعيد، في مشاهدته بأم عينه: بيرتيتا مُحطمةً، باكية دون عزاء، بسببه. وقبل أن تتزايد موجات الشفقة لديه، وتدمر الجدار، خرج من الغرفة. وحين صار في الخارج، لم يعد يهمه شيء، لم يعد يهمه أي شيء على الإطلاق. وذهب لينام.

تمدّد على السرير دون أن يخلع ثيابه. كان أحدهم يشخر في الغرفة المجاورة. وفـــي الغرفة المقابلة، استيقظ طفل، وقال لأمه إنه يريد أن يبول. وكان بعض المتأخرين في السهر، يدخلون غرفهم على رؤوس أصابعهم، موقظين ألواح خشب الأرضية القديمة النائمة. تأمل الجدران، حيث رتعت لليلة كاملة، قبل بعض الوقت، حيواناته المطيعة التي أتلفتها بيرتيتا. لم يكن يهمه شيء، لأن الغابة تنمو في داخله الآن، بصخبها وألوانها، وبتدفق الموت والحياة فـــيها. لكن هناك شيئاً، شيئاً واحد يهمه. ينبغي أن يهمه. في أعماق مخيلته، كما في قاع فناء مظلم جداً، بدأت تظهر بقعة شاحبة، وراحت تكبر مذعورة حيال التهديد المحدق بها. لقد كانت، هي، تظنها قططاً وحسب، مثل تلك التي على غطاء علبة الحلوى ذات الشريط السماوي. ولكن لا، عليه أن يصرخ محذراً إياها، كي ينقذها قبل أن تُفتَرس. لم يستطع النوم، لأنه كان يسمع توسلات الفتاة الموجهة إليه، وإليه فقط. كان يتقلّب على السرير، بملابسه، دون أن يتمكن من سحر الحيوانات الخطرة، بجهوده. نهض، تلمظ بعض التلمظات، لأنه أحس بمرارة في فمه، واستعد للخروج. نزل السلّم دون أن يبالي بأن توقظ خطاه كل من هم في البنسيون. كان مستعجلاً. ولدى مروره أمام غرفة بيرتيتا، أُضيء النور، وسمعها:

- سانتيليلثس؟

توقف دون أن يجيب.

– سانتيليثس! إلى أين أنت ذاهب هذه الساعة، بحق الرب المقدس؟

وبعد ثوانٍ من الصمت أجاب:

– عليّ أن أخرج.

وعندما أغلقت الباب، سمع أنّة كأنها أنة حيوان، شقت الليل:

– أبتاه!

فـــي الخارج، حدد الهواء الصقيعي محيط شكله، عازلاً إياه بصورة حاسمة عن كل الأشياء الأخرى. وعلى الرغم من البرد الهادئ، الخالي من الريح والرطوبة، فقد نزع قبعته؛ وأحس بالهواء يداعب قذاله وصلعته، جبهته ورقبته، مبعداً، ومُخَلِّصاً إياه من أي هم، سوى قلقه على الفتاة التي ستُلتهم.

صعد الطوابق الخمسة راكضاً. دون أن يدري كيف فتح أبواباً، ومزيداً من الأبواب، حتى وصل مكتبه. ثم وصل، في الظلمة، إلى النافذة، وفتحها على مصرعيها: نافذة هائلة، كشفت فوق رأسه كل ظلمة سماء باهتة، قمرها الحار، الأحمر، بحوافه غير المحددة، مثل دُمّل، تبدو كأنها ستنفجر فوق قمم الأشجار العملاقة. حبس في صدره صرخة رعب: كان الفناء مرتعاً لزجاً يغص بضوارٍ، حيث كل العيون – الصفراء، والحمراء، والذهبية، والخضراء – تنظر إليه. رفع يديه إلى أذنيه كيلا يمزق دوي الزمجرات غشاءهما الطبلي. أين هي الفتاة؟ أين هو شكلها الغارق في تلك الخضرة الحارة، في ذلك الهواء الملوّث؟

مزيد ومزيد من النمور ذات العيون المشعة، كانت تقفز من فوق الحاجز، إلى الفناء. وكانت فهود أسلوت، وأسود البوما الجائعة، تمزق حجب الظلام بين الأوراق البنفسجية. والنمور البيضاء تمزق الوشق. والفهود تتسلق الأشجار التي تكاد تصل، تقريباً، حتى النافذة التي يرصد سانتيليثس منها الفناء، بحثاً عن الفتاة التي لم يعد يراها. كل شيء كان يزمجر، يزأر، يعج بحشرات جُنت من الخطر الكامن في هواء الغابة المسموم والعكر. ومن غصن قريب جداً، أراد جاغوار أن يعضّ يد سانتيليثس، لكنه استولى على المنظار المقرب فقط. وزمجرت قبالة وجهه، فهدةٌ هائجة، لعينيها متعددتي السطوح، لون الجمر.

لم يشعر سانتيليثس بالخوف. كانت هناك ضرورة ملحة، أمر كأنه اللقاء بشجاعته في انتصار محتمل، أكثر القرارات ثراء وطموحاً، ولكنه القرار الوحيد، لكونه الأصعب. انفرجت الأغصان هناك في الأسفل، في العمق البعيد. حبس سانتيليثس أنفاسه: إنها هي، أجل، إنها هي تطلب إليه أن ينقذها من ذلك الفوران المخيف. حيوانات يجهل أسماءها تزحف متسلِّقة الأغصان المزعزعة؛ والطيور تنفض ريشها العجيب بين السراخس الممسوخة. وبيديه المذعورتين كان يُبعد الحشرات التي تصطدم بوجهه، وقد سخنتها الرطوبة. كان الليل كله عيوناً براقة؛ إلى أعلى، في السماء، عبر الأغصان العملاقة التي تخنقه، وهناك في الأسفل، في إعصار الضواري التي يمزق

بعضها بعضاً. هواء الليل الكثيف، الذي يكاد لا يضيئه سوى قمر معتم – أم أنه شمس مجهولة؟ – يأتي محملاً بعواء مكبل بكثافته. وهناك كانت الفتاة بانتظاره. ربما كانت تئنّ؛ لم يكن بمقدوره سماع صوتها، وسط دوي الصياح والزمجرة والصراخ. ولكن عليه أن ينقذها. تسلق سانتيليثس إفريز النافذة. أجل، إنها هناك في الأسفل. وأفزع بصرخة وحشاً على الغصن المجاور. ولكي ينزل إليها، قفز قفزة وحشية ليتداركها.

خوسيه فيليكس فوينمايور[1]

JOSÉ FÉLIX FUENMAYOR

موت في الشارع

Muerte en la calle

لقد نبح عليّ اليوم كلب. كان ذلك منذ قليل، على بعد أربع أو خمس أو ست أو سبع كوادرات، هناك تحت. لم يكن ينبح عليّ بالذات، ولم يكن يريد أن يعضني، لا، ليس هذا. لقد اقترب مني، ماطاً جسده، ومتأهباً في الوقت نفسه لتجميعه. كان أنفه

---

(١) قصاص وصحفـــي كولومبي. ولد ومات في مدينة بارانكييّا (١٨٨٥-١٩٦٦). دخل عالم الأدب وهو في الخامسة والعشرين، بإصدار مجموعة شعرية بعنوان «ربات الإلهام المداريات». قام بنشاط صحفـــي واسع، فأسس وأدار عدداً من المجلات.ترك بصماته على مجموعة كبيرة من الكتاب الكولومبيين والأمريكيين اللاتينيين.تمتاز أعماله بحسها الواقعي المرهف، وتعتمد على التجربة الجمالية المعيشة، وهما ميزتان شديدتا الحضور في أعماله كلها.من أبرز مؤلفاته:- الفضاء (رواية) ١٩٢٧.- مغامرة حزينة لأربعة عشر حكيماً (رواية) ١٩٢٨.- الموت في الشارع (قصص قصيرة) ١٩٦٧.- مع الطبيب في الخارج (قصص قصيرة) ١٩٣٧.

ممدوداً، مثلما تفعل الكلاب عندما تكون مرتابة، وتريد أن تشم. بعد ذلك توقف، سار إلى الوراء دون أن يلتفت، ثم أقعى وبدأ ينبح بعد أن تخلى عن النظر إليّ، وراح يتطلع إلى أعلى.

لست أدري لماذا جلستُ الآن هنا، فوق هذا المقعد الحجري، ليلاً، بينما كنت أمضي إلى بيتي. يبدو أنني لن أستطيع المسير ولو خطوة أخرى. وهذا غير ممكن، لأن ساقيّ - والمسكينتان نحيلتان جداً - لم تتعبا يوماً من المسير. يجب علي أن أبحث هذا الأمر.

وللمرة الأولى أيضاً أفكر بأن بيتي بعيد، وأشعر برنة غريبة لهذه الكلمة. بعيد. أيكون «بعيداً»؟ نعم. إنه «بعيد». لأني كنت قد نسيت الكلمة.

أنا أقول «بيتي» لكنه ليس سوى مغارة عند مخرج المدينة، في بطن الجبل تقريباً. وأنا مغرم بإطلاق تسميات كهذه، فمعارفـــي الذين أطلب منهم السنتات التي أحتاجها يومياً، أدنو منهم قائلاً: «كيف الحال أيها المحترم». إن هؤلاء المعارف قلة. وهم في الحقيقة أصدقائي. إنني أبحث عن واحد أو اثنين منهم كل يوم، وأريح الآخرين مني. ولأنني لا أطلب منهم إلا في فترات متباعدة، فإنهم لا يتهربون ولا يعتذرون. وعندما ألتقي بواحد منهم، لا يكون دوره في ذلك اليوم، فإني أحييه: «كيف الحال أيها المحترم» وأتابع المسير، بخطواتي التي تجعلني أبدو دائماً كأني مستعجل بعض الشيء. أما إذا كان دوره، فإنني أقول

له: «كيف الحال أيها المحترم. ضع هنا ثلاثة سنتات، أو خمسة، أو سبعة، أو عشرة.» فبثلاثة سنتات يصبح لدي ما يكفي للقهوة وحدها. إما إذا كان المبلغ خمسة. فسأجد ما يكفي للخبز. وإذا كان سبعة، فقد حصلت على السكر. وعندئذ أنزع حقيبتي عن ظهري، وأُخرج فنجاني وأضع فيه القهوة، ثم أخرج زجاجة الماء وأصب منها، وأحرك المزيج بإصبعي. وهكذا، تتضاعف كمية القهوة، وتصبح كافية لتناولها مع الخبز. وإذا كان المبلغ عشرة فإنني أضيف قطعة من معجنات حلوة. ثلاثة، سيئ. خمسة، عادي. سبعة، جيد. وعشرة، تمام. وبسنت واحد أو سنتين فقط، أو بلا سنت واحد وبلا سنتين، فلست أدري، لأن هذا لم يحدث لي قط. فالله يُحسن إليَّ، وقد منحني كذلك هبة النظام.

قد أحصل أحياناً على أكثر من عشرة. ويحدث ذلك إذا صادفت أحد المحترمين في لحظة مناسبة، وعندئذ قد أنال ما يكفي للفطور، بل وللغداء أحياناً. لكن مسألة الفطور والغداء هذه لا تهمني كثيراً. فالعادة السيئة التي لم أستطع التخلص منها، هي الصيام. وهناك عادة أخرى تخلصت منها، هي أنني كنت أخترع أموراً، لكي أنفق كل النقود. وقد لاحظت أن ذلك يسيء إلى صحتي، ويضايقني في المشي. عندئذ تخليت عن هذه العادة السيئة، وأصبحت أخبئ ما يبقى لدي، لليوم التالي. ولكن حتى عندما أخبئ شيئاً، فإنني لا أتخلى عن عملي الذي هو المشي.

وطبعاً، لم أكن أطلب شيئاً ما دام لدي شيء مخبأ. وإذا ما التقيت خلال ذلك بمحترم يكون دوره يومئذ، فإنني أحييه وأتابع طريقي، لأن دوره قد تأجل.

فـــي إحدى المرات، وقعت في مشكلة وفرة النقود. وصلتُ ليلاً إلى بيت أحد المحترمين الذي كان دوره يومذاك، ووجدته على شرفة مدخل البيت، مجتمعاً مع نساء وكل شيء. قلت له: «يا محترم، ضع هنا ثلاثة، أو خمسة، أو سبعة، أو عشرة.» عندئذ نهض محترم آخر، كان جالساً هناك، وتقدم مني، وطلب أن أكرر ما قلته. كررت. فطلب مني أن أشرح ما أعنيه بهذا، وشرحت له ذلك مطولاً، لأني أحب الحديث عن شؤوني. وهذا هو الشيء الوحيد الذي أتحدث فـــيه، لأني أرى يد الله في شؤوني دائماً. عندما ألتقي مع شخص يبدي اهتماماً بشؤوني، أتحدث. ولكن من النادر أن أجد شخصاً مثل هذا المحترم. عندها أمضي الوقت صامتاً. الناس يرونني وأنا أمرّ كالأخرس، فـــيظنون أني لا أحب الكلام. لكن الأمر ليس كذلك، بل على العكس، لأني دائم الحديث، أتحدث مع نفسي. حسن إذن: لقد مدّ ذلك المحترم، أمام عيني، ورقة من فئة الخمسة بيزوات. حملقتُ في الورقة النقدية التي في يده، وقلت له: «أيها المحترم، إنها ورقة خمسمئة»، وذلك لينتبه، إذا ما كان قد أخطأ. فقال لي: «أجل، خذها». أخذتها، يا للهول، وودعتهم.

إنها مشيئة الله. فكرت وأنا أسير، في أن الله سيوحي إليّ بما علي عمله بها. وتأخر وصول الوحي إليّ يومين، أو ثلاثة، أو أربعة، أو خمسة أيام. وعندئذ فعلت ما أُوحِيَ إليّ: لففت الورقة النقدية بقطعة من الورق، وربطتها في قاع الحقيبة. وهي هناك، منذ ذلك الحين، لتكون من نصيب من سيلتقطني من الشارع عندما أموت. وليأخذ الله بيده ليصل إليها، كمكافأة على عمله الصالح.

أمر غريب أقعدني هنا، بينما كنت أتابع سيري سوياً. لقد انتبهت للتو، إلى أنني أحضرت معي ثلاث جرائد فقط، بدلاً من الأربع المعتادة. لم يحدث لي شيء كهذا من قبل. ومع أنني أرى ذلك، فإنني أبقى جالساً بدلاً من أن أحمل نفسي على العودة، بحثاً عن الجريدة الناقصة. رباه. لابد أنك تعرف هذا الذي يحدث لي، وهو أمر سيئ دون شك، لكنك تنفذ إرادتك. إنني قلق بسبب عادتي السيئة في فرش جريدتين على الأرض، والالتحاف باثنتين أخريين، فأنا لم أحضر معي سوى ثلاث منها، ولست أدري الآن، إذا ما كان مناسباً أكثر، وضع اثنتين فوقي وواحدة تحتي، أم وضع اثنتين تحتي وواحدة فوقي. رباه، أنقذني من هذه الورطة، لأني لا أشعر برغبة في العودة للبحث عن الجريدة التي تنقصني.

منذ زمن، كانت لدي بطانية. الله هو الذي حقق لي تلك المعجزة، لأنه قادني إلى المرور من أمام أحد البيوت، في

الوقت الذي كان يقف فــيه رجل عند الباب قائلاً: «خذ هذه وارمها بعيداً.» وقد سمعته. تطلعت، ورأيت البطانية. فقلت للرجل: «كيف الحال أيها المحترم؟ ألق بها هنا إن كنت تريد رميها»، وأعطاني الرجل إياها.

كان ذلك زمناً طيباً. وقد بدأ عندما كنت متعباً من طلب مكان للنوم، اليوم هنا، وغداً هناك. لأنهم ما كانوا يمنحونني مكاناً أنام فــيه لأكثر من مرة واحدة. كنت أطلب أن يسمحوا لي بالنوم في المطبخ، أو تحت عريشة، أو في أي مكان في الفناء، أي مكان على ألا يكون في الشارع. فوق مقعد حجري، مثلما أنا الآن. لأنه لدي رغباتي. وثمة أمران لا أسمح بهما: النوم على مقعد حجري، واستجداء الطعام. إنهم يردون عليّ دائماً بوجوه شريرة. سواء أقالوا نعم أم لا. ويقتضي الأمر أحياناً أن أترجى بيتين، أو ثلاثة، أو أربعة، أو خمسة بيوت، قبل أن أحصل على مكان للنوم. وعندما طلبت الإذن في أحد الأيام، للسماح لي بالذهاب وراء فناء أحد البيوت لقضاء حاجة، رأيت حفرة في الأرض، من يدري إن كانت من فعل خنازير أم أن كلباً هو الذي حفرها. قست أبعاد الحفرة بعيني، ووجدت أنها مناسبة لطولي وعرضي، وكانت جافة تماماً. نظرتُ إلى البيت، فكان المطبخ يخفــيه. نظرت أمامي إلى الشارع، وكانت هناك فتحة في السور تؤدي إلى الرصيف. وفكرت في الأمر بسرعة. ثم مضيت في الحال لأكلم أهل ذلك البيت في الموضوع، وشرحت

لهم قضيتي: إنني أحضر للنوم متأخراً دوماً، عندما يكون الجميع قد ناموا، وأخرج باكراً جداً، قبل أن يكون أحد قد استيقظ. والفتحة موجودة هناك للدخول والخروج، دون أن يشعروا بي، وبما أني لن أزعج أحداً، فليسمحوا لي بالنوم في حفرة الفناء التي لا تُرى من البيت، لأن المطبخ يخفـيها. لقد شرحت كل هذا جيداً. وكان أولئك أناساً طيبين، فسمحوا لي.

عندما حشرت نفسي في الحفرة، في الليلة الأولى، ظننت أن برودة الأرض لن تدعني أغمض عيني. لكن الله ساعدني، لأني شعرت بالدفء بعد قليل. وهذا ما كان يحدث لي في كل ليلة.

في إحدى الليالي، وفي وقت لم أكن أنتظره، انهمر عليّ وابل من الماء، لكن ذلك حدث في الفجر، عندما كنت على وشك الاستيقاظ، فخرجت وجففت نفسي بالنسيم، وأنا سائر. وبينما أنا أمشي حضر إلى ذهني جزء من السور، فيه قطعة من التوتياء موجودة على بعد ثلاث، أو أربع، أو خمس، أو ست، أو سبع خطوات من الحفرة. وفي تلك الليلة، حركتُ صفيحة التوتياء قليلاً ونزعتها من مكانها، ووضعتها غطاء للحفرة، ثم أعدتها إلى مكانها في الصباح، دون أن ينتبه أحد إلى ذلك. وتابعت هذا العمل كل يوم، ولتمطر ما شاءت. إن فكرة قطعة التوتياء تلك، لم يُوحِ بها إليّ الله، لأن الله طيب، واستخدام قطعة الصفيح دون إذن، كان عملاً يجب ألا أفعله، إنه عمل شرير، لكن تغطية الحفرة كان عملاً صالحاً. وعلى كل حال،

فقد سامحني الله، لأنه في اليوم التالي لقطعة التوتياء، بعث إليّ بالبطانية.

لقد دام ذلك الزمن الطيب إلى أن اكتشفني الأولاد. أنا أقول إن الكلاب طيبة والأولاد أشرار. هذا يعني أنني لم أصادف صبياً طيباً، ولا كلباً شريراً. ولكن الله خلق من كل شيء دون ريب.

لم يزعجني أي كلب في يوم من الأيام. بل إن بعضها يتبعني، يريد أن يعيش معي. وهذا أفهمه جيداً. الكلاب لا تبحث عن طعامي، وإنما عن مصاحبتي. لأنها تعلم جيداً أن لا طعام لدي، ولأنها تستطيع أن تشم حقيبتي كذلك. يمر أحدها ويراني، فيشد نفسه، ويرفع رأسه، ثم يتراخى. يصطف ورائي ويأخذ بالتقدم إلى أن يسير بجانبي، ضابطاً خطواته المتواثبة على إيقاع خطواتي الهادئة المديدة. وهكذا أمضي معه، نمضي معاً، ونحن نتبادل النظرات. ويخفق فيه الأمل، ويخفق أكثر وأكثر بذيله. إلى أن أنظر إليه النظرة الأخيرة، وأحرك رأسي مفكراً: لا أستطيع العيش معك أيها المحترم الكلب. فيفهمني، ويمضي مبتعداً، بخطوات أكثر تواثباً وأشد حزناً.

ما الذي جرى لهذا الكلب اليوم. عليّ أن أبحث هذا الأمر.

الصبيان الذين التقيت بهم دائماً هم أشرار. يتفوهون بكلمات نابية وقذرة. يمعنون النظر إلى أحدنا، ويقذفونه بالحجارة، ويصرخون مطلقين عليه ألقاباً. إذا كان هنالك صبي بمفرده،

فإنني أعلم أنه يتظاهر بأنه لا يراني، لكنه يتهيأ بينه وبين نفسه، منتظراً الفرصة المناسبة. أما إذا كانوا اثنين، أو ثلاثة، أو أربعة، أو خمسة صبيان، فإن الخطر الذي أتعرض له يكون أكبر، لأنهم يسفرون حينئذ عن وجوههم. إنهم ينسون الخوف عند اجتماعهم معاً، ويحاول كل واحد منهم أن يتفوق بالشر على الآخرين. ويبدو لي أن ذيولاً تنمو لهم أيضاً، وهم في تلك الحال؛ لكنها ليست مثل ذيول الكلاب، وإنما كذيل الشيطان. ولهذا لا يستطيع، من هو مع الله، رؤية هذه الذيول.

في الحقيقة، إني أعلم أن عظامي، وبسبب نحولي، أخذت تبرز إلى الخارج أكثر فأكثر. وهذا منظر يحبه الأولاد الذين ليسوا مع الله. ويفرحهم كذلك سروالي الممزق الذي صار مزقاً مثلما هو الآن، لأني لا أرقعه، والمطوي عند قصبتي ساقي، فوق حذائي الذي أفتحه كثيراً في مقدمته، كي تتهوى أصابع قدمي، ولا تنبعث منهما رائحة كريهة. ولعل أكثر ما كان يهيجهم هو لحيتي التي نمت فجأة، وتركتها على سجيتها. وهي ليست سوى شعيرات خفيفة، مبعثرة وطويلة بعض الشيء. ولكنها - وهذه حقيقة - ناعمة كالحرير. ولهذا السبب أمرر يدي دوماً فوق وجهي.

أنا أعلم كل هذه الأمور، لكنني أدافع عن نفسي. وأحد أساليبي في الدفاع أني لا أهرب منهم. وإذا صرخوا أتظاهر بأنهم لا يصرخون عليّ. ولا أتيح لهم كذلك، لا الوقت ولا

المكان، ليطلقوا علي أي لقب يبقى عالقاً بي، لأنهم لا يرونني متخاذلاً، أو وأنا أجوب تلك الأماكن التي تزدحم بالناس، حيث يذهب البعض ويجيئون كأنهم مشغولون، أو على عجلة من أمرهم. ويبدو آخرون كأن ريحاً قد ألقت بهم هناك، بلا سبب، أو أنهم ينتظرون أن تحمل لهم الريح نفسها التي قذفتهم، شيئاً، لا يعرفون ما هو. أنا لا أذهب أبداً إلى تلك الأماكن. أنا أمشي بحثاً عن المحترمين. وبعد أن أجدهم، أتابع المشي، والمشي.

والطريقة الأخرى للدفاع عن نفسي، إذا جاء صبي أو مضى من أمامي، أو إذا كنت لا أشعر به وهو يسير ورائي، هي أنني أمشي دائماً وأنا عابس ومتيقظ، لتفادي أي حجر قد يقذفونه نحوي. ولو لم أكن كذلك، فمن يدري كم من المرات كانوا سيهشمون رأسي بحجارتهم.

ما فعله الأولاد بحفرة نومي، لم يكن لأني لم أتخذ الاحتياطات اللازمة. فأنا لا أعرف كيف اكتشفوني. هذا ما لم أستطع التوصل إلى معرفته. ففي إحدى الليالي، شعرت بوخز في جسمي. وكانوا قد ألقوا أشواكاً في حفرتي. وفي ليلة أخرى، الليلة التالية، تورم جسدي لأنهم وضعوا في الحفرة قذارة شحم. وفي الليلة الأخيرة، وهي ليلة تالية أيضاً، تلوثت بالبراز تماماً عندما فتحت البطانية. لقد كان في البطانية كثير من البراز، مما جعلني أدرك أن ذلك كان من فعل أكثر من صبي واحد.

خرجت من الحفرة ونظفت نفسي بالتراب. وبعد أن دعكت نفسي جيداً، فكرت: لماذا فعلوا ذلك بي؟ لكن الله سمح بذلك.

من الواضح أن الأمور السيئة التي تحدث للمرء، هي طبيعية من ناحية أخرى، دون أن يعرف أحدنا ذلك إلا في ما بعد. عندما يحين الوقت. وهذا ما يحدث دائماً.

ففـــي تلك الليلة، قلتُ لنفسي إنني لن أنام. أعدت قطعة التوتياء إلى موضعها في السور، وخرجت من الفتحة. لقد تركتُ البطانية هناك، مع أنه كان بإمكاني أخذها معي وغسلها، لكنني تركتها هناك.

سرتُ وسرت، وكأن الوقت نهارٌ. تابعت المسير سوياً، لم أنعطف عند أي مفرق، بل سرت باتجاه مستقيم. وبعد ذلك رأيت أن هذا هو الطريق. لقد أصبحت خارج المدينة عندما توقفت. وهناك رأيتها... مغارتي. تلك التي ستصبح بيتي منذ تلك اللحظة. دخلتُ منحنياً. كان شكلها نصف الدائري يجعلها مكونة من صالة وحجرة. استلقيت دفعة واحدة. وبينما أنا غير مستيقظ، وقبل أن أغفو، ألهمني الله فكرة الجرائد، وساعدتُ أنا في هذه الفكرة، بإعمال ذهني: لا بد لي من أربع جرائد.. اثنتان على الأرض، واثنتان كغطاء.

صار حالي منذ ذلك الحين أفضل منه في أي وقت مضى. فعندما أكون في بيتي، يمكن للمطر أن يهطل ما شاء له

الهطول، دون أن أبتل، ودون أن أضطر لتغطية أي شيء بالتوتياء. كما أنني لم أرَ أي صبي في تلك الأنحاء.

هنا أملك العشرة سنتات اللازمة ليوم غد. وزجاجة مائي ممتلئة. فإذا ما رأتني أمي وهي في الحياة الأخرى بهذه الحال، فإنها ستكون سعيدة، لأن ابنها لا ينقصه أي شيء. الشيء الوحيد الذي ينقصني الآن هو الجريدة. لكن هذا ليس مهماً، لأني قررت أن أضع جريدة واحدة على الأرض، وأتدثر باثنتين، وقد انتهيت من هذه المشكلة. ولو وقف عمي على حالتي، لأسعده أن يعلم أنني – وإن لم أصبح إسكافـــياً – بحثت بالمقابل، عن طريقي الخاص، وأنني لا أعاني الحاجة في هذا الطريق.

هنالك أمر يجب علي أن أتحراه، وهو أنني لم أعرف قطّ، من هو أبي. وبما أنهم لم يخبروني بذلك، فقد فكرت في أنه أمر يجب عليّ عدم معرفته. ولهذا لم أتحرَّ عنه.

كانت أمي تعمل كثيراً. كانت تغسل كل شيء، وتخيط، وتكوي، وتطبخ. لم تكن تسمح لي بمساعدتها. كانت تقول لي: أنت لا تعرف في هذه الأمور، اذهب إلى اللعب. وكنتُ ألعب في الفناء، كان فناء صغيراً، لكنني كنتُ أستطيع الركض من أحد جانبيه إلى الجانب الآخر. وأتسلى بغرس عصا في الأرض والقفز من فوقها. وفـــي بعض الأحيان، لم أكن أشعر برغبة في اللعب، لكنني ألعب كي تراني أمي، لأنها كانت تحب أن تراني وأنا ألعب.

وفـــي أحد الأيام جاء عمي ليعيش معنا. قالت لي أمي: هذا عمك. كان شخصاً عريضاً جداً. كنت أنظر إليه من خلف فـــيبدو لي كأنه لا رأس له، أو أن رأسه لم تكن رأساً. كانت أمي تعدّ لنا المائدة وعليها الشرشف. وكنا نأكل نحن الاثنين فقط، لأنها كانت تذهب وتجيء، متابعة العمل. وكان عمي يصنع كرات من الخبز، بعد أن ينتهي من تناول طعامه، ويمر بها على الطبق، ويأكلها. كان يقول لأمي إنه يفعل ذلك ليسهل عليها غسل الصحون، ويقول لي: افعل أنت هذا أيضاً، فهكذا تساعد أمك. وكنت أفعل، لأطيعه، إنما لم يكن يروقني عمل ذلك.

لقد نسيت كل ذلك الطعام.. لم يعد شيئاً يذكر بالنسبة لي. وما أذكره الآن هو شرائح الموز الفج، تلك التي كانت أمي تسمح لي بأخذها وهي تقليها. وفـــي ما بعد، عند وضعها في صحن على المائدة، لم تكن تروقني، مثلما هي الحال عندما آكلها قريباً من أمي، في المطبخ.

وفـــي أحد الأيام، توفـــيت والدتي. أخذت أبكي، لكن عمي أمسك بي من ذراعي، وأخرجني إلى الفناء، وقال لي وهو يشير إلى أحد الأركان: اجلس هناك، ولا تبكِ أبداً، لأن الرجال لا يبكون.

تولى عمي مسؤولية كل شيء. قال لي: يجب أن نبيع كل شيء، هذا واجب، عليّ أن أقوم به على أكمل وجه.

وفـــي يوم آخر، أغلق الباب. ثم قال لي: خذ هذا وهلم بنا. حملت كيساً كبيراً، وآخر متوسطاً، وآخر صغيراً، وسرت وراءه. وصلنا إلى سفـــينة. أخذ الأكياس مني، ولم يسمح لي بالصعود. قال لي: قد تقع. انتظرني هنا. تأخر فترة طويلة، وأخيراً عاد وهو يحمل صرّة في يده. وقال لي: «لم يعد لك أم ولا عم. ستصبح منذ اليوم رجلاً، وعليك أن تؤمن مستقبلك بنفسك. أريدك أن تصير إسكافـــياً. إنها مهنة شريفة، وتدر نقوداً كثيرة. لن يقال إني تخليت عنك وتركتك لمصيرك، مع أن هذه هي مشيئة الله. أن يبحث كل منا عن طريقه الخاص. إني أقدم لك هذا، وبه يمكنك أن تبدأ العمل كإسكافـــي.» ثم سلمني الصرة، وعاد إلى المركب.

بدؤوا بفك الحبال، وأنا ما أزال واقفاً على الضفة، منتظراً أن يطل عمي لأقول له صارخاً: وداعاً يا عماه. وشق المركب الماء، مزمجراً بقوة، وأخذ يبتعد. كان المركب يمضي، وأنا واقف أفكر في أنه من الأفضل ألا يطل عمي إلا عندما يبتعد المركب إلى مسافة بعيدة، حتى تصله صرخة وداعي حينئذ إلى هناك، لأنه بدا لي أن إطلاق صرخة من الضفة حتى مركب بعيد، هو كإفلات عصفور سيتابع الطيران إلى حيث لا يراه المرء. لكن عمي لم يطلّ.

عندما أخذتُ الصرة منه، لاحظت أنها ثقيلة. وسرت وقتاً لا بأس به دون أن أفتحها. ومع أنني لم أتصور ما الذي تحتويه،

فإنني لم أشعر بالفضول لمعرفته. أو ربما كنت أشعر بكثير من الفضول، ولهذا السبب تأخرت في فتحها. أو أنني، دون أن أدرك ذلك، كنت أعرف ما بداخلها، لأن عمي أخبرني بذلك: فما أحمله هو عدتي كإسكافـــي.

وأخيراً جلست على مقعد حجري، مثلما أنا الآن، ونزعت لفافة الورق، ورأيت... كان قالب حذاء. طبعاً، يجب أن يكون شيئاً من عدّة الإسكافـــي. وأفضل خاطر راودني هو أن أبحث عن حذَّاء. ولابد أن عمي كان يفكر بأنني سأفعل ذلك، فبهذا القالب، سأجد حذَّاء يتخذني شريكاً له في محله.

ذهبت إلى أحدهم وقدمت له الصرة، دون أن أقول أي كلمة. نظر إلى وجهي، وقال لي: ما الذي تحمله هنا. ثم تناول اللفافة وفتحها. قال هذا قالب فردة حذاء يسرى، أين قالب اليمنى. لم أفهم ما قاله، ولم أعرف بماذا أرد عليه. عاد ينظر إلى وجهي، وهو يمسك ورق اللفافة المفرود والقالب بيد واحدة، ثم ألقى بهما على الأرض وقال: هذا لا ينفع لشيء، والآن انصرف من هنا. ذهبتُ مسرعاً، دون أن أتجرأ على التقاط الورق والقالب. وبينما أنا أسير في الشارع، أدركت أن عمي قد أخطأ، ولم ينتبه إلى خطئه. لكنني شكرت طيب نيته، رغم أنه أخطأ. وإذا كان الله قد سمح بحدوث ما حدث، فلأنه لا يريدني أن أصير إسكافــياً.

حينئذ رأيت كم هي كبيرة الكلمات التي قالها لي عمي: أنت الآن بلا أم ولا عم. أخذت أتطلع في كل الاتجاهات، ورأيت

أنني لم أعد أملك أيضا الطاولة التي كنت آكل عليها، ولا الفناء الذي كنت ألعب فـــيه. وفكرت: لا بد من وجود شيء في الدنيا. لم أكن أعرف الناس ولا الشوارع. نظرت إلى داخل نفسي، وفكرت: لا أستطيع البقاء مع الناس لأن كلا منهم له معشره، وأنا فقدت معشري. ما بقي لي من الدنيا إذن هو الشوارع، وفـــي الشوارع أستطيع أن أبحث عن طريقي الخاص. وهذه هي مشيئة الله، كما قال عمي.

أنا أعرف الطريقة التي يقود بها الله أحدنا.. إنه يمسك بالأعنَّة التي تحركنا. ومن الأفضل ألا يعتاد المرء منا على عادات سيئة، وإن يترك لله أمر التحكم بشدّ مكابحه تماماً. فهكذا يمضي أحدنا وهو أكثر أماناً، لأنه يشعر عندئذ بالدفعات التي يدفعه بها الله، مهما كانت صغيرة. ولهذا شعرت بالدفعة التي دفعني بها يوماً، عندما كدت أصير عامل رفش، ممن يحمِّلون الرمل، وقد تركت الرفش في الحال. وقد دفعني الله في مرات أخرى، وأحسست بذلك. أما عندما أنطلق في الشارع، سائراً، فإنه يطلق لي العنان، لأن هذا هو طريقي، ولست بحاجة هناك إلى أية دفعات. فأبدو حينئذ كأني بلا أية مكابح.

هنالك خطر قد سيطر عليَّ، ألا وهو أنه علي البحث عن سر المرأة. لقد قلت لنفسي: علي أن أتحقق منه. وأخذت أمعن النظر إلى النساء، لكن السر لم ينكشف لي في أي واحدة من النساء اللواتي دققت النظر فـــيهن. رأيت إحداهن جالسة في أحد الأيام،

فبدت لي مثل أمي. لكنها نهضت، وعندئذ لم تعد تشبهها. وفـــي مرة أخرى كانت تسير أمامي امرأة، وكانت تشبه أمي بمؤخرتها المكورة وحركاتها. هذا ما رأيته أنا، ولكن ما إن تجاوزتها، ورأيت وجهها حتى ذهب التشابه. وحدث لي أيضاً أنني كنت أسير في أحد الأيام ساهماً، وفجأة سمعت صوت أمي، رفعت رأسي فرأيت امرأة تتكلم، لكن صوت أمي لم يعد إلى سمعي.

عندئذ أخذت أفكر في أن أمي صارت تبدو كأنها تتكرر، مفتتة إلى أجزاء، وإلى أجزاء صغيرة أيضاً، موزعة ما بين نساء أخريات. وقد أعجبني ذلك في البدء، فكنت ألاحقهن بحذر، بينما السر يجول في خاطري، ويأخذ بالانتشار في جسدي كله.

وفـــيما بعد، أصبحت أتضايق لأنه لا يمكن لأي امرأة أن تكون مثل أمي، في أي شيء. وعندئذ لم أعد أجدهن متشابهات. وكنت أفكر، أول الأمر، أنني أنا الذي أرفض وجود التشابهات، لأنها موجودة فعلاً. وقد رأيت الحقيقة أخيراً، عندما أخذت أشعر بالدفعات. فهذه التشابهات غير موجودة، وسر المرأة هو الذي كان يفرضها علي كمصيدة. ولم تعد لدي رغبة بعد ذلك، للبحث عن سرّ المرأة.

لقد أنعم الله علي. فتحت حمايته وبانقيادي للأعنَّة، وجدت طريقي الخاص في هذه الدنيا. إن مهنتي هي المسير، وهذا يروقني. أما الطعام فإنني أحصل عليه بالقول فقط: كيف الحال أيها المحترم. ولدي الآن بيت. وقد حررني الله من كل أنواع القلق.

وهو الذي أجلسني اليوم هنا، ولا يريدني أن أنهض وأسير. يا لغرابة ذلك الكلب. ألا يوجد في هذه الأنحاء أي صبي يحمل حجراً بيده؟ لا. لا يوجد أحد. لا وجود إلا للشارع. لكن الشارع نفسه بدأ يختفـــي. إنه يتخلى عني. والمقعد الحجري الذي أجلس عليه أخذ يرتفع مثل سحابة ويحملني في العزلة والصمت. إنني أرى الآن أمي. إنها واقفة أمام باب المطبخ، لكنها لم ترني. أناديها: هل ستقلين شرائح الموز يا أماه؟

خوليو رامون ريبيرو [1]

Julio Ramón Ribeyro

نسور الرخمة المنتوفة

Los gallinazos sin plumas

في الساعة السادسة صباحاً تنهض المدينة على رؤوس أصابعها، وتبدأ تخطو خطواتها الأولى. ضباب خفيف يطمس

---

(١) ولد خوان رامون ريبيرو في ليما، عاصمة البيرو، عام ١٩٢٩.قصاص وروائي ومسرحي، يعدُّ أحد أبرز كتّاب القصة القصيرة في أميركا الناطقة بالإسبانية في النصف الثاني من القرن العشرين.بعد أن أنهى دراسة الحقوق في بلاده، توجه إلى أوروبا وعاش في باريس.عكف منذ البدء على تجديد الأسلوب القصصي، وكان له دور رائد في هذا المجال.برز ريبيرو في مجال القصة القصيرة بصورة خاصة، ولكنه كتب عدداً من الروايات والمسرحيات المتميزة.تعتبر روايته الأولى «وقائع سان غابرييل» مساهمة هامة في تطوير الرواية الريفية. وقد حطم فيها النظرة الرومانسية الحالمة إلى الريف.يطغى على قصصه عالم قاتم، يسوده التشاؤم، ويعرض البؤس بصورة حية ومفزعة، ولكنه يترك مع ذلك فسحة من الأمل.بالرغم من أنه لم يبدأ الكتابة إلا في منتصف خمسينيات القرن العشرين، إلا أنه حقق شهرة عالمية، وتُرجمت أعماله إلى عدد كبير من اللغات الأجنبية.توفي سنة ١٩٩٥، وكان قد حصل قبل وفاته (في سنة ١٩٩٤) على جائزة خوان رولفو الأدبية.من أبرز أعمالهفي الرواية:«وقائع سان غابرييل» (١٩٦٠)، «جنيّو أيام الآحاد» (١٩٦٥)، «استبدال الحرس» (١٩٧٦).في القصة القصيرة:«نسور الرخمة المنتوفة» (١٩٥٥)، «قصص المناسبات» (١٩٥٨)، «القوارير والرجال» (١٩٦٤)، «ثلاث قصص متمردة» (١٩٦٤)، «الأسرى» (١٩٧٢)، «في الشهر القادم ساسوى» (١٩٧٢)، «للمدخنين فقط» (١٩٨١)في المسرح:«حياة سنتياغو السعيد وهواه» (١٩٦٤)، «الزبون الأخير» (١٩٦٦)، «مسرحيات» (١٩٧٥)أعمال نثرية أخرى:«نثر بلا وطن» (١٩٧٥)، ثم طبعة مزيدة في ١٩٧٨، وطبعة نهائية في ١٩٨٦. «إغراء الفشل» (يوميات شخصية) (١٩٩٢)

محيط الأشياء، ويخلق ما يشبه جواً مسحوراً. الأشخاص الذين يذرعون المدينة في هذه الساعة، يبدون كما لو أنهم مصنوعون من مادة أخرى، تنتمي إلى نسق حياة شبحية. النساء المتدينات يتجرجرن متثاقلات إلى أن يختفـــين في بوابات الكنائس. العائدون متأخرين من السهر، ممن أنهكهم الليل، يرجعون إلى بيوتهم متلفعين بلفاعاتهم وكآبتهم. وجامعو القمامة يبدؤون، من جادة برادو، مشوارهم اليومي المشؤوم، مسلحين بمكانس وعربات صغيرة. في هذه الساعة يُرى كذلك عمالٌ يتوجهون نحو الترام، وشرطيون يتثاءبون في مواجهة الأشجار، وموزعو صحف أصابهم البرد بالازرقاق، وخادمات يُخرجن دلاء القمامة. وفـــي هذه الساعة، أخيراً، كما في نوع من كلمة سر غامضة، تظهر نسور الرخمة التي بلا ريش.

فـــي هذه الساعة، يضع دون سانتوس ساقه الخشبية، ويبدأ الصراخ، وهو جالس على الفراش:

- انهضا! إفران، إنريكي! لقد حان موعد النهوض!

يركض الصغيران إلى بركة الحوش الكبير، وهما يفركان عيونهما الغمصاء. وفـــي الأعماق الشفافة للماء الذي ركد في هدأة الليل، تظهر أعشاب نامية وانسياب طفــيليات رشيقة. بعد أن بلل الصغيران وجهيهما، تناول كل واحد منهما علبته الصفــيح، وانطلقا إلى الشارع. وفـــي أثناء ذلك، اقترب دون سانتوس من الزريبة، وضرب بعصا طويلة ظهر خنزيره الذي كان يتمرغ في الفضلات.

– لم يبق لك سوى وقت قصير أيها الخنزير! فانتظر، سيأتي دورك.

كان إفرين وإنريكي يتأخران في الطريق، وهما يتسلقان الأشجار، لقطف ثمار التوت أو لالتقاط أحجار، من تلك الأحجار ذات الحواف الحادة التي تقطع الهواء، وتجرح في الظهر. ولأن الوقت مازال سماوياً، فإنهما سيصلان إلى ميدانهما، وهو شارع طويل تزينه بيوت أنيقة، يصب في الكورنيش.

لم يكونا الوحيدين. ففي أحواش أخرى، في أرباض أخرى، أطلق أحد ما صوت الإنذار، ونهض كثيرون. بعضهم يحملون علب صفيح، وآخرون علب كرتون، وفي بعض الأحيان تكفي صحيفة قديمة. ودون أن يعرف بعضهم بعضاً، يشكلون نوعاً من المنظمة السرّية، تتوزع فيما بينها أحياء المدينة. هناك من يطوفون حول المباني العامة الحكومية، وآخرون اختاروا الحدائق أو المزابل. وحتى الكلاب اكتسبت عاداتها، وسبلها، التي تعلمتها في خضم البؤس.

إفرين وإنريكي سيبدأان عملهما، بعد استراحة قصيرة. سيختار كل منهما رصيفاً من رصيفي الشارع. دلاء القمامة مصفوفة أمام الأبواب. يجب إفراغها بالكامل على الأرض، ثم البدء في السبر بعد ذلك. فدلو الزبالة، على الدوام، هو صندوق مفاجآت. توجد فيه علب سردين، أحذية قديمة، كسرات من

الخبز، جرذان ميتة، أقطان متسخة. ولكن ما يهمهما هو بقايا الطعام فقط. ففـــي زريبته، في أقصى الفناء، يتقبل باسكوال أي شيء، ويفضل الخضراوات المتعفنة بعض الشيء. علبة كل واحد منهما تأخذ بالامتلاء بالبندورة المتعفنة، وقطع الشحم، وصلصات غريبة لا ترد في أي مرجع في الطبخ. وليس نادراً مع ذلك، العثور على لقية ثمينة. ففـــي أحد الأيام، عثر إفرين على حمالة سروال، صنع منها مقلاعاً. وفـــي مرة أخرى، عثر على إجاصة شبه سليمة، فالتهمها على الفور. إما إنريكي بالمقابل، فهو محظوظ في العثور على علب أدوية، وقنانٍ براقة، وفراشي أسنان مستعملة، وأشياء أخرى مشابهة، يجمعها بحرص.

بعد عملية انتقاء صارمة، يعيدان القمامة إلى الدلو، وينقضّان على التالي. فمن غير المناسب لهما أن يتأخرا كثيراً، لأن العدو يقف لهما بالمرصاد دوماً. ففـــي بعض الأحيان تفاجئهما الخادمات، ويكون عليهما أن يهربا تاركين غنيمتهما مبعثرة على الأرض. ولكن سيارة جمع القمامة هي التي تظهر، غالباً، ويحكم عندئذ على يوم عملهما بالضياع.

عندما تطل الشمس من فوق الجبل، تصل الساعة السماوية إلى منتهاها. فالضباب قد انقشع، والمتدينات يخرجن من الكنيسة في حالة نشوة، والمتأخرون في السهر قد ناموا، وموزعو

الصحف قد انتهوا من توزيعها، والعمال يصعدون إلى السقالات. النور يشتت عالم الفجر السحري. وتعود نسور الرخمة الرمامة التي بلا ريش إلى أعشاشها.

*   *   *

دون سانتوس ينتظرهما وقد أعد القهوة.

- فلنر، ما الذي أتيتماني به؟

يتشمم علبتي الصفـيح، فإذا كانت المؤونة جيدة، ينطق بالتعليق نفسه دائماً:

- سيحصل باسكوال اليوم على وليمة جيدة.

ولكنه في معظم الأحيان ينفجر صارخاً:

- أحمقان! ما الذي فعلتماه اليوم؟ لقد استغرقتما في اللعب بالتأكيد! سيموت باسكوال من الجوع!

فـيهربان إلى المخاضة، بآذان ملتهبة من الضرب، بينما العجوز يجرجر نفسه إلى الزريبة. ومن أقصى محبسه، يبدأ الخنزير بالقباع. فـينثر له دون سانتوس الطعام.

- مسكيني باسكوال! اليوم ستبقى جائعاً بسبب هذين الكسولين. إنهما لا يفهمانك مثلي. لا بد من ضربهما لكي يفهما.

*   *   *

مع بداية الشتاء، كان الخنزير قد تحول إلى نوع من المسخ الذي لا يشبع. كل شيء يبدو له قليلاً. ودون سانتوس ينتقم، لجوع الحيوان، من حفــيديه. كان يجبرهما على الاستيقاظ في وقت أبكر، وعلى غزو مناطق الآخرين، حيث القمامة تحتوي فضلات أكثر. ثم أجبرهما، أخيراً، على الذهاب إلى مقلب الزبالة الذي عند حافة البحر.

– هناك ستجدان مزيداً من الأشياء. وسيكون الحال أسهل فوق ذلك، لأن كل شيء مختلط.

وذات يوم أحد، وصل إفرين وإنريكي إلى وهدة الساحل. وكانت عربات نقل القمامة، مقتفــية أثراً على الأرض، تُفرغ القمامة من فوق بروز صخري. ومن الكورنيش، كانت المزبلة تشكل ما يشبه جرفاً قاتماً ومدخناً، حيث طيور الرخمة والكلاب تتحرك كالنمال. قذف الصغيران أحجاراً من بعيد لإبعاد خصومهما. فابتعد كلب وهو ينبح. وعندما صارا قريبين، أحسا برائحة تبعث على الغثيان، نفذت حتى رئتيهما. كانت أقدامهما تتغرس في كومة من الريش، من الفضلات، من مواد متفسخة أو محروقة. بدأا البحث بغرس أيديهما. فــيكتشفان أحياناً، تحت جريدة صفراء، جيفة ملتهمة حتى نصفها. وفــي الوهاد القريبة، تترصد نسور الرخمة بجزع، ويدنو بعضها متقافزاً من حجر إلى حجر، وكأنها تريد محاصرتهما. كان إفرين يصرخ لإخافتها، فتدوي صرخاته في الجروف، وتجعل بعض الحصى

تفلت من الجرف، وتتدحرج حتى البحر. بعد ساعة من العمل، رجعا إلى الحوش بدلويهما الممتلئين.

- أحسنتما - هتف دون سانتوس -. يجب تكرار هذا مرتين أو ثلاث مرات كل أسبوع.

منذ ذلك الحين، صار إفرين وإنريكي يقومان بالرحلة إلى مقلب القمامة في أيام الأربعاء والأحد من كل أسبوع. وسرعان ما صارا جزءاً من مملكة الحيوان الغريبة في تلك الأماكن. وطيور الرخمة التي اعتادت حضورهما، صارت تعمل إلى جانبهما، تنعق، تخفق أجنحتها، تنبش بمناقيرها الصفراء، وكأنها تساعدهما في اكتشاف القاذورات الثمينة.

وأثناء الرجوع من إحدى تلك الرحلات، أحس إفرين بألم في باطن قدمه. فقد سببت له قطعة زجاج جرحاً صغيراً. وفي اليوم التالي تورمت قدمه. ولكنه واصل، مع ذلك، عمله. وحين رجعا لم يعد بإمكانه المشي تقريباً، لكن دون سانتوس لم ينتبه لذلك، إذ كان لديه زائر. فقد كان برفقة رجل بدين، يداه ملطختان بالدم، يتفحص الزريبة.

وكان الرجل يقول:

- بعد عشرين أو ثلاثين يوماً سأحضر إلى هنا. وأظن أنه سيكون جاهزاً خلال هذا الوقت.

عندما غادر الرجل، كان دون سانتوس يطلق الشرر من عينيه.

– إلى العمل! إلى العمل! لا بد من مضاعفة وجبات باسكوال، من الآن فصاعداً! الصفقة صارت على السكة.

ومع ذلك، عندما أيقظ دون سانتوس حفـيديه، في صباح اليوم التالي، لم يستطع إفرين النهوض.

– هناك جرح في قدمه – أوضح إنريكي –. لقد جُرح أمس بقطعة زجاج.

تفحص دون سانتوس قدم حفـيده. كان الالتهاب قد بدأ.

– هذه أكاذيب! فلتغسل قدمك في البركة، ولتلفها بخرقة.

فتدخل إنريكي:

– ولكنها تؤلمه! ولا يمكنه المشي جيداً.

فكر دون سانتوس لحظة. وكان قباع باسكوال، يأتي من جهة الزريبة، في زمجرات قوية.

– وأنا؟ – سأل وهو يربت براحة يده على ساقه الخشبية – ألا تؤلمني ساقي؟ عمري سبعون سنة وأشتغل. لا بد من التخلي عن النزوات!

خرج إفرين إلى الشارع حاملاً صفـيحته، مستنداً إلى كتف أخيه. ولكنهما رجعا بعد نصف ساعة، وصفـيحتاهما شبه فارغتين.

– لم يعد بمقدوره التحرك – قال إنريكي للجد – لقد صار إفرين نصف أعرج.

تفحص دون سانتوس حفــيديه كما لو أنه يفكر في إصدار حكم.

– حسن، حسن – قال وهو يحك ذقنه الخفــيفة، ثم أمسك إفرين من زوره ودفعه باتجاه الحجرة – المرضى إلى الفراش! إلى التعفن في الفراش! – ثم التفت إلى إنريكي:– وأنت عليك إنجاز عمل أخيك. امض الآن فوراً إلى مقلب القمامة!

* * *

عند منتصف النهار تقريباً، رجع إنريكي بالدلوين مترعين. وكان يتبعه زائر غريب: كلب ضامر ونصف أجرب.

– وجدته في مقلب القمامة – أوضح إنريكي – وقد لحق بي.

تناول دون سانتوس العصا.

– فم آخر في الحوش!

ضم إنريكي الكلب إلى صدره، وهرب باتجاه الباب.

– لا تؤذه يا جدي! سأطعمه أنا من طعامي.

تقدم دون سانتوس وهو يغرس ساقه الخشبية في الوحل.

– لا أريد كلاباً هنا! لدي ما يكفــي بكما!

فتح إنريكي الباب المؤدي إلى الشارع.

– إذا ما ذهب الكلب، فسوف أذهب أنا أيضاً.

توقف الجد. فانتهز إنريكي الفرصة ليلح:

- إنه لا يأكل شيئاً تقريباً... انظر كم هو هزيل. كما أنه سيساعدني طالما بقي إفرين مريضاً. إنه يعرف المزبلة جيداً، وله أنف جيد في تشمم القمامة.

استغرق دون سانتوس في التفكير وهو ينظر إلى السماء، حيث تتكثف سحب الرذاذ. ثم أفلت العصا دون أن يقول شيئاً، وتناول الدلوين ومضى باتجاه الزريبة، وهو يجدف مزمجراً.

ابتسم إنريكي سعيداً، وركض بصديقه الملتصق بقلبه إلى حيث يرقد أخوه.

كان الجد يترنم:

- باسكوال، باسكوال... باسكوال!

قال إنريكي وهو يداعب رأس الكلب:

- سيكون اسمك بيدرو - ودخل إلى حيث إفرين.

تبخرت سعادته: فقد كان إفرين غارقاً في العرق، ويتقلب من الألم في الفراش. كانت قدمه متورمة كما لو أنها بالون مطاط ممتلئ بالهواء. وكانت الأصابع قد فقدت شكلها تقريباً.

- لقد جئتك بهذه الهدية، انظر - قال وهو يعرض الكلب -. اسمه بيدرو، إنه لك، لكي يرافقك... عندما أذهبُ إلى مقلب القمامة. سأتركه معك، وستلعبان طوال النهار. ستعلمه أن يحضر لك أحجاراً بفمه.

– وماذا عن الجد؟ – سال إفرين وهو يمد يده نحو الحيوان.

فزفر إنريكي:

– الجد لن يقول شيئاً.

نظر كلاهما باتجاه الباب. كان الرذاذ قد بدأ بالهطول. وكان صوت الجد يصلهما:

– باسكوال، باسكوال... باسكوال!

* * *

فـــي تلك الليلة بالذات، طلع القمر بدراً. وقد أحس الحفـــيدان بالقلق، ففـــي مثل هذا الموسم يتحول الجد إلى شخص لا يطاق. منذ الغروب رأياه يتجول في أنحاء الحوش، متكلماً إلى نفسه، ضارباً الأرض بعصاه. وكان في بعض اللحظات، يدنو من الحجرة، يلقي نظرة نحو الداخل، وحين يرى حفـــيديه صامتين، يطلق صفـــيراً مشحوناً بالضغينة. كان بيدرو يخافه، فـــيتكور على نفسه كلما رآه، ويبقى جامداً دون حراك، كأنه حجر.

– قذارة، لا شيء سوى القذارة! – كرر الجد ذلك طوال الليل، وهو ينظر إلى القمر.

فـــي صباح اليوم التالي، استيقظ إنريكي مزكوماً. العجوز الذي سمعه يعطس في الفجر، لم يقل شيئاً. ولكنه كان يشعر في

أعماقه، بكارثة وشيكة. إذا ما مرض إنريكي، فمن سيهتم بأمر باسكوال؟ كان نهم الخنزير يتزايد مع تزايد سمنته. وكان يزمجر في الأمسيات ومخطمه مدفون في الوحل. ومن حوش نيميسيو الذي يسكن على مسافة كوادرا، جاؤوا للشكوى.

في اليوم التالي، حدث ما لا يمكن تفاديه. إنريكي لم يستطع النهوض. كان قد سعل طوال الليل، وأمضى الليل مرتجفاً، ومحترقاً بالحمى.

- وأنت أيضاً؟ - سأله الجد.

أشار إنريكي إلى صدره الذي يشخر. خرج الجد غاضباً من الحجرة. وبعد خمس دقائق قفل راجعاً.

- سيئ جداً أن تخدعاني بهذا الشكل - قال نائحاً -. أن تستغلاني، لأني لا أستطيع المشي. أنتما تعرفان جيداً أني عجوز، وأني أعرج. لولا ذلك لأرسلتكما إلى الجحيم، وتوليت بنفسي أمر إطعام باسكوال!

استيقظ إفرين وهو يئن، وبدأ إنريكي يسعل.

- ولكن ليس مهماً! أنا سأتولى أمره. أنتما قمامة، لستما سوى قمامة! مجرد نسري رخمة بلا ريش! ستريان كيف سأتفوق عليكما. فالجد لا يزال قوياً. ولكن عليكما أن تعرفا أيضاً، اليوم لا يوجد طعام لكما! لن تحصلا على طعام إلى أن تستطيعا النهوض والعمل!

ومن خلال عتبة الباب، رأياه يحمل الصفـــيحتين ويندفع إلى الشارع. بعد نصف ساعة من ذلك، رجع مهزوماً. فقد سبقته شاحنة جمع القمامة، لأنه لا يتمتع بخفة حفـــيديه. أضف على ذلك أن الكلاب أرادت أن تعضه.

– فتات قمامة! أنتما تعرفان، ستبقيان دون طعام إلى أن تعملا!

حاول في اليوم التالي تكرار العملية، ولكنه اضطر إلى التخلي عن ذلك. فساقه الخشبية فقدت عادة المشي على شوارع الإسفلت، وعلى الأرصفة القاسية، وكل خطوة يخطوها كانت أشبه بطعنة حربة في أصل الفخذ. في الليلة السماوية لليوم الثالث، بقي مطروحاً في فراشه، دون أي حماسة أخرى سوى الشتم.

كان يصرخ:

– إذا ما مات، فسيكون الذنب ذنبكما!

*   *   *

منذ ذلك الحين بدأت أيام ممضة، لانهائية. كان الثلاثة يقضون النهار محبوسين في الحجرة، دون كلام، يعانون نوعاً من الحجز الاضطراري. كان إفرين يتقلب دون توقف. وإنريكي

يسعل. وبيدرو ينهض، وبعد أن يقوم بجولة في الحوش، يعود وفـــي فمه حجر، يضعه في يدي صاحبيه. وكان دون سانتوس، نصف المستلقي، يلعب بساقه الخشبية، ويوجه إليهم نظرات قاسية. وعند الظهيرة، يجرجر نفسه إلى ركن الحوش، حيث تنمو بعض الخضراوات، فـــيعدّ غداءه الذي يلتهمه خفـــية. ويرمي أحياناً خسة، أو جزرة نيئة، إلى فراش حفـــيديه، وفـــي نيته استثارة شهيتهما، معتقداً أنه يجعل عقوبتهما بذلك، أشد وطأة.

لم تعد لدى إفرين قوى حتى للأنين. إنريكي وحده هو الذي كان يشعر بتنامي خوف غريب في قلبه، وحين ينظر إلى عيني الجد، يخيل إليه أنه يجهلهما، كما لو أنهما فقدتا تعبيرهما البشري. وفـــي الليل، عندما يعلو القمر، يأخذ بيدرو بين ذراعيه، ويمسده برفق إلى أن يجعله يتأوه. في هذا الوقت، يبدأ الخنزير بالقباع، ويتذمر الجد كما لو أنهم يشنقونه. أحياناً يربط ساقه الخشبية، ويخرج إلى الحوش. وعلى ضوء القمر، يراه إنريكي وهو يتنقل عشر مرات بين الزريبة والبستان، رافعاً قبضتيه، ومتعثراً بما يجده في طريقه. وأخيراً يرجع إلى الحجرة، ويظل ينظر إليهما بثبات، كما لو أنه يريد تحميلهما مسؤولية جوع باسكوال.

* * *

فـــي الليلة الأخيرة، لم يستطع أحد النوم. فقد كان باسكوال يجأر بقباع حقيقي. كان إنريكي قد سمع بأن الخنازير، عندما تجوع، تصاب بالجنون كالبشر. بقي الجد ساهراً، حتى إنه لم يطفئ المصباح. لم يخرج في هذه المرة إلى الحوش، ولم يلعن من بين أسنانه. كان ينظر بثبات من خلال الباب، وهو غارق في فراشه. يبدو كما لو أنه يعجن في داخله غضباً قديماً جداً، يلاعبه، ويستعد لإطلاقه. عندما بدأت السماء تتضح فوق الجبال، فتح فمه، وأبقى فجوته المظلمة موجهة نحو حفـــيديه، وأطلق زمجرة.

– انهضا، انهضا، انهضا! – وبدأت الضربات بالتوالي كالمطر –. انهضا أيها الكسولان! إلى متى سنبقى هكذا؟ لقد انتهت هذه الحال! انهضا!...

انفجر إفرين بالبكاء. ونهض إنريكي، مستنداً إلى الجدار. بدت عينا الجد كما لو أنهما تسحرانه إلى حدّ عدم الإحساس بالضربات. كان يرى العصا تعلو وتنزل على رأسه، كما لو أنها عصا من الكرتون. وأخيراً استطاع الإتيان برد فعل.

– إفرين لا! إفرين لا ذنب له! دعني وحدي، أنا سأخرج، أنا سأذهب إلى مقلب القمامة!

توقف الجد لاهثاً، وتأخر طويلاً في استرداد أنفاسه.

– الآن بالذات... إلى مقلب القمامة... خذ معك دلوين، بل أربعة دلاء...

ابتعد إنريكي، حمل الدلاء ومضى راكضاً. كان يتعثر من إنهاك الجوع والنقاهة. عندما فتح باب الحوش، أراد بيدرو اللحاق به.

- أنت لا. ابق هنا لرعاية إفرين.

واندفع إلى الشارع، متنفساً هواء الصباح بملء رئتيه. وفي الطريق أكل أعشاباً، وكان على وشك أن يمضغ التراب. كان يرى كل شيء من خلال ضباب سحري. لقد جعله الضعف خفيفاً أبدياً: كان يطير مثل عصفور تقريباً. وفي مقلب القمامة أحس بأنه نسر رخمة آخر، بين نسور الرخمة هناك. عندما امتلأت الدلاء تماماً، انطلق عائداً. المتدينات، والمتأخرون في السهر، وموزعو الصحف الحفاة، جميع إفرازات الفجر بدأت تنتشر في المدينة. وكان إنريكي العائد إلى عالمه، يمشي سعيداً بينهم، في عالمه من الكلاب والأشباح، ممسوساً بالساعة السماوية.

أحس حين دخل الحوش بهواء ثقيل ضاغط، مقاوم، أجبره على التوقف. فقد أحس كما لو أن عالماً ينتهي هناك، عند العتبة، ويبدأ عالم آخر مصنوع من الوحل، من الزمجرة، من عقوبات تكفير عبثية. ولكن المفاجئ في هذه المرة، مع ذلك، هو أن صمتاً مشحوناً بنذر مشؤومة كان يخيم على الحوش، كما لو أن كل العنف يقف في حالة توازن متأرجح، ويوشك على الانهيار. كان الجد، عند حافة الحظيرة، ينظر نحو العمق. يبدو

كما لو أن شجرة تنمو من ساقه الخشبية. أحدث إنريكي ضجة، ولكن الجد لم يتحرك.

- ها هي ذي الدلاء!

أدار له دون سانتوس ظهره، وبقي ثابتاً. أفلت إنريكي الدلاء، وركض قلقاً نحو الحجرة. وما كاد إفرين يراه، حتى بدأ يئن:

- بيدرو... بيدرو...

- بيدرو عض الجد... الجد تناول العصا... وبعد ذلك سمعته ينبح.

خرج إنريكي من الحجرة.

- بيدرو، تعال إليّ! أين أنت، يا بيدرو؟

لم يجبه أحد. بقي الجد دون حراك، ونظره إلى الجدار. راود إنريكي هاجس مشؤوم. وبقفزة واحدة دنا من العجوز.

- أين هو بيدرو؟

انخفضت نظرته إلى الزريبة. كان باسكوال يلتهم شيئاً وسط الوحل. وكانت لا تزال هناك قوائم الكلب وذيله.

-لا! - صرخ إنريكي وهو يغطي عينيه -. لا، لا! - ومن خلال الدموع، بحث عن نظرة الجد. فأعرض هذا عنه، مستديراً، بحركة خرقاء، على ساقه الخشبية. راح إنريكي يرقص في ما حوله، متعلقاً بقميصه، صارخاً، راكلاً، محاولاً النظر إلى عينيه، العثور على جواب.

- لماذا فعلت هذا؟ لماذا؟

لم يجب الجد. وأخيراً، فقد صبره، ووجه صفعة إلى حفـــيده أوقعته أرضاً. ومن هناك رأى إنريكي العجوز، المنتصب كمارد، ينظر بإصرار إلى وليمة باسكوال. وحين مدّ يده، وجد العصا التي كان طرفها ملوثاً بالدم. ومستنداً إليها، نهض على رؤوس أصابعه، واقترب من العجوز.

- استدر! - صرخ - استدر!

وعندما استدار دون سانتوس، رأى العصا تشق الهواء وتصطدم بوجنته.

- خذ! - صاح إنريكي ورفع يده من جديد. ولكنه توقف فجأة، وقد أرعبه ما أقدم عليه، ثم ألقى العصا جانباً وهو ينظر إلى جده بما يشبه الندم. تراجع العجوز خطوة ممسكاً بوجهه، لامست ساقه الخشبية أرضاً رطبة، فانزلق، وهوى إلى الوراء، وهو يطلق صرخة، وسقط في الزريبة.

تراجع إنريكي بضع خطوات. أرهف في أول الأمر سمعه، ولكنه لم يكن يسمع أية ضجة. وشيئاً فشيئاً راح يقترب. كان الجد مطروحاً على ظهره في الوحل، وقد كُسرت ساقه الخشبية. كان فمه مفتوحاً، وعيناه تبحثان عن باسكوال الذي لاذ بأحد الأركان، متشمماً الوحل بطريقة مريبة.

راح إنريكي يتراجع بالحذر نفسه الذي تقدم به. ربما تمكن الجد من لمحه، فقد بدا له أنه سمعه، بينما هو يركض باتجاه الحجرة، يناديه باسمه، بنبرة عذبة لم يسمعها من قبل.

- إليّ يا إنريكي، إلي!...

- أسرع! - صاح إنريكي وهو يرتمي على أخيه - أسرع يا إفرين! لقد وقع العجوز في الزريبة! يجب أن نغادر هذا المكان!

- إلى أين؟ - سأله إفرين.

- إلى أي مكان، إلى مقلب القمامة، حيث يمكننا أكل شيء ما، حيث طيور الرخمة!

- لا أستطيع الوقوف!

أمسك إنريكي أخاه بكلتا يديه، وضمه على صدره. وتعانقا إلى حدّ شكلا معه شخصاً واحداً، اجتازا الحوش ببطء. وعندما فتحا البوابة المؤدية إلى الشارع، أدركا أن الساعة السماوية قد انقضت، وأن المدينة، المستيقظة والصاخبة، تفتح لهما أشداقها العملاقة.

ومن الزريبة كانت تصلهما ضجة عراك.

خوليو كورتاثر[1]

Julio Cortázar

أبواب السماء

Las puertas del cielo

فـــي الساعة الثامنة، جاء خوسيه ماريا حاملاً النبأ، وقال لي، دون أي مداورة تقريباً، إن سيلينا قد توفـــيت للتو. أذكر

---

(١) ولد في بروكسيل (بلجيكا) عام ١٩١٤، حيث كان أبوه يقوم بمهمة دبلوماسية. ورجع إلى الأرجنتين مع أبويه عام ١٩١٩.تلقى دراسته الابتدائية والثانوية في الأرجنتين، ثم اضطرته ظروفه المادية إلى التخلي عن الدراسة الجامعية، ليعمل مدرساً للغة الفرنسية.فـــي عام ١٩٥١ حصل على منحة قصيرة للدراسة في فرنسا، وبعد انتهاء فترة المنحة، مارس عدداً من الأعمال للبقاء في باريس، إلى أن حصل على وظيفة مترجم في اليونسكو، فاستقرت إقامته منذ ذلك الحين في العاصمة الفرنسية، لكنه كان يقوم بزيارات شبه سنوية إلى بلدان أميركا اللاتينية (وخصوصاً الأرجنتين وكوبا والمكسيك ونيكاراغوا).دخل عالم الأدب بمجموعة شعرية بعنوان «حضور»، أصدرها بالاسم المستعار «خوليو دينيس» ثم أتبعها بعمل مسرحي «الملوك» عام ١٩٤٩.يعتبر إلى جانب غارسيا ماركيز وكارلوس فوينتس وماريو بارغاس يوسا، أحد أعمدة ما عرف بتيار الواقعية السحرية في أميركا اللاتينية.توفـــي في باريس عام ١٩٨٤.من أبرز أعماله: فـــي الرواية: «الجوائز» (١٩٦٠)، «لعبة الحجلة» (١٩٦٣)، «٦٢: موديل للتركيب» (١٩٦٨) «كتاب مانويل» (١٩٧٣)، «الامتحان» ١٩٨٦)، «يوميات أندريس فافا» (١٩٩٥) فـــي القصة:«كتاب الحيوان» (١٩٥١)، «نهاية اللعبة» (١٩٥٦)، «الأسلحة السرية» (١٩٥٩)، «كل النيران، النار» (١٩٦٦)، «أحدهم يمضي هناك وقصص أخرى» (١٩٧٧)، «نحب غليندا كثيراً» (١٩٨٠).نصوص متنوعة: «حول اليوم في ثمانين عالماً» (١٩٦٧)، «الجولة الأخيرة» (١٩٦٩)، «فانتوماس ضد مصاصي الدماء متعددي الجنسيات: يوتوبيا قابلة التحقيق» (١٩٧٥)، «المدعو لوقا» (١٩٧٩)، «نيكاراغوا، عذبة بعنف شديد» (١٩٨٣)، دراسات:«رحلة حول منضدة» (دراسة حول الأدب والالتزام ١٩٧٠)، «أراضٍ» (١٩٧٨)، «نصوص سياسية» (١٩٨٤)، وثلاثة مجلدات من الأعمال النقدية.

أنني أنعمت التفكير، لأول وهلة، في الجملة: «لقد ماتت سيلينا للتو»، وكأنها هي نفسها، إلى حدّ ما، قد حددت اللحظة التي يتوجب فـــيها إنهاء ذلك. كان الوقت يكاد يكون ليلاً، وكانت شفتا خوسيه ماريا ترتعشان، وهو يقول لي ذلك.

– لقد كان وقع الأمر شديداً جداً على ماورو، وقد تركته وهو كالمجنون. من الأفضل أن نذهب إلى هناك.

كان عليّ أن أنهي تدوين بعض الملاحظات، فضلاً عن أنني كنت قد وعدت صديقة، باصطحابها للعشاء. أجريتُ اتصالين هاتفـــيين، وخرجت مع خوسيه ماريا بحثاً عن سيارة أجرة. كان ماورو وسيلينا يسكنان في ناحية كانينغ وسانتافـــيه، بحيث أضعنا عشر دقائق منذ مغادرتنا البيت، وحين اقتربنا، رأينا أناساً يقفون في المدخل، وعليهم ملامح الشعور بالذنب والارتباك. وكنت قد علمت، ونحن في الطريق، بأن سيلينا بدأت تتقيأ دماً، منذ الساعة السادسة، وأن ماورو أحضر الطبيب، وأن أمه كانت معهما. ويبدو أن الطبيب كان قد بدأ بكتابة وصفة طبية طويلة، عندما فتحت سيلينا عينيها، وماتت وسط نوع من السعال، أو ما هو أقرب، بالأصح، إلى الصفـــير.

– أنا أمسكت بماورو وثبته. وكان على الطبيب أن يغادر، لأن ماورو أراد الانقضاض عليه. وأنت تعرف كيف يكون حين يغضب.

كنتُ أفكر في سيلينا، في وجه سيلينا الأخير الذي ينتظرنا في البيت، وكنت لا أكاد أسمع ندب العجائز، والفوضى التي تعم الفناء؛ ولكنني أتذكر أن أجرة سيارة التكسي كانت بيزوين اثنين وستين سنتافو، وأن السائق كان يعتمر قبعة من قماش قطني مُلمع. ورأيت صديقين أو ثلاثة من معارف ماورو، كانوا يقرؤون جريدة «لاراسون» عند الباب. وكانت هناك صبية ترتدي فستاناً أزرق، تحمل بين ذراعيها القط الأصهب، وتمسد شاربيه بعناية. وكانت قد بدأت في الداخل، جلبة أصوات الحزن، ورائحة الازدحام في مكان مغلق.

قلتُ لخوسيه ماريا:

- اذهب إلى ماورو. أنت تعرف أنه من المناسب توفير المساندة له.

وفي المطبخ، كانوا قد بدؤوا بتناول مشروب المتة. وكان السهر على الميتة ينتظم تلقائياً: الوجوه، المشروبات، الحر. لقد ماتت سيلينا للتو، ومن الصعب تصديق كيف ينهي أهل الحي كل شيء (بما في ذلك الاستماع إلى الأسئلة والأجوبة) ليتجمعوا في مكان الحدث. سُمع صوت صاخب يصدر من أنبوب شرب «المتة»، لدى مروري بجانب المطبخ، وأطللتُ على حجرة التسجية. نظرت ميسيا مارتيتا، وامرأة أخرى، إليّ من أقصى الحجرة المعتم، حيث بدا السرير كأنه يطفو في هلام من

السفرجل. وأدركتُ من مظهر اعتدادهما بأنهما قد انتهتا من غسل سيلينا وتكفــينها؛ بل وكانت تفوح رائحة خل خفــيفة.

قالت ميسيا مارتيتا:

– يا للمتوفاة المسكينة! ادخل يا دكتور، ادخل لرؤيتها. تبدو كأنها نائمة.

كبحت رغبتي في شتمها، ودخلت جو الحجرة الحار. منذ بعض الوقت، وأنا أنظر إلى سيلينا، دون أن أراها. أسلمت نفسي الآن للذهاب إليها: الشعر الأسود والسَّبط الذي ينبت من جبهة ضيقة تلمع مثل صدَف جيتار، وصحن وجهها المسطح شديد البياض الذي لم يعد له من علاج. انتبهت إلى أنه ليس لديّ ما أفعله هناك، وأن هذه الغرفة صارت الآن للنساء، للنادبات اللواتي يتوافدن في الليل. بل لم يكن بإمكان ماورو أن يدخل الغرفة، ليجلس بهدوء إلى جوار سيلينا، وحتى سيلينا نفسها لم تكن تنتظر هناك، فهذا الشيء الأبيض والأسود الذي ينكفئ إلى جانب النائحات، يشجعهن في موضوعهن الدائم المكرور. من الأفضل، الذهاب بحثاً عن ماورو الذي ما يزال في جهتنا.

من الغرفة المأتمية إلى قاعة الطعام، هناك حرّاس صمٌّ يدخنون في الممر الذي بلا ضوء. بينيا، وباثان الأبله، شقيقا ماورو الأصغران، ورجل عجوز غير معروف، حيّوني باحترام.

– شكراً لمجيئك يا دكتور – قال لي أحدهم – لقد كنتَ على الدوام صديقاً مقرباً من المسكين ماورو.

– الأصدقاء يُعرفون في هذه الشدائد – قال الرجل العجوز، وهو يمد لي يداً، بدت مثل سمكة سردين حية.

كل هذا كان يحدث. ولكنني كنتُ، مرة أخرى، مع سيلينا وماورو، في **لونا بارك**، نرقص في كرنفال عام اثنين وأربعين. سيلينا ترتدي ثوباً أزرق سماوياً، يبدو غير ملائم لهيئتها شبه الصينية، وماورو بزي بالما بيتش، وأنا مع ست كؤوس ويسكي، وسكرة فاقعة. كنت أحب الخروج مع سيلينا وماورو، لأشهد عن قرب سعادتهما القاسية والدافئة. وكلما أُلام على هذا النوع من الصداقات، كنت أزداد تمسكاً بها (بأيامي، بساعاتي)، لأشهد حياتهما التي لم يكونا هما نفساهما يعرفان عنها شيئاً.

انتزعت نفسي من الرقص، وكانت أنَّة آتية من الغرفة، متسلقة من الأبواب.

– لا بد أنها الأم. – قال باثان الأبله، بسعادة تقريباً.

وفكرتُ: «مقاس متقن للخشوع. تموت سيلينا، فتأتي الأم، وتبكي الأم». أحسست بالقرف لتفكيري على هذا النحو، ولكوني أفكر، مرة أخرى، في كل ما يكتفي الآخرون بالشعور به. لم تكن سيلينا وماورو أرنبي اختباراتي، لا. لقد كنت أحبهما، مثلما أواصل حبهما. وكل ما هنالك أنني لم أستطع قط الدخول في بساطتهما، وأنني وجدت نفسي مضطراً للتغذي بانعكاس بريق دمهما؛ فأنا الدكتور هاردوي، محام لا يكتفي بمجتمع بوينس آيرس القضائي، أو الموسيقي، أو الفروسي، ويتقدم قدر ما

يستطيع عبر بوابات أخرى. وأعرف أن وراء هذا يكمن الفضول، والملاحظات التي تملأ، شيئاً فشيئاً، علبة جُذاذاتي. أما مع سيلينا وماورو، فلا. سيلينا وماورو، لا.

– من كان يصدق هذا؟ – سمعتُ بينيا يقول – هكذا، بهذه السرعة...

– حسن، أنت تعلم أن رئتاها كانتا في حالة سيئة جداً.

– أجل، ولكن...

كانوا يدفعون عن أنفسهم التوغل في الأرض المفتوحة. الرئتان في حالة سيئة جداً. ولكن بالرغم من ذلك... وسيلينا أيضاً لم تكن تتوقع موتها؛ فالسل في نظرها، وفـي نظر ماورو، هو حالة «وهن». ومرة أخرى، رأيتها تدور متحمسة بين ذراعي ماورو. أوركسترا **كانارو** هناك في الأعلى، ورائحة بودرة رخيصة. وبعد ذلك رقصت معي رقصة سامبا متشيتشا. وكانت الحلبة تزدحم بالناس والدخان. «يا لجودة رقص حضرتك يا مارثيلو»، قالت ذلك كمن هي مندهشة، من قدرة محام على متابعة رقصة سامبا متشيتشا. لم تكن هي، ولا ماورو، يرفعان الكلفة عند التحدث معي. وكنتُ أتوجه إلى ماورو بـــ «أنت»، أما سيلينا فكنت أعاملها تهذباً بالمثل. لقد وجدت سيلينا صعوبة في التخلي عن مناداتي بالـــ «دكتور»، ربما لأنها كانت تشعر بالفخر، وهي تطلق اللقب عليّ أمام آخرين: صديقي الدكتور. وقد طلبتُ من ماورو أن يتخلى عن

ذلك، وحينئذ بدأت مناداتي بــ «مارثيلو». وهكذا اقتربا مني بعض الشيء، أما أنا فبقيت بعيداً كالسابق. ولم ينفع في شيء، ذهابنا معاً إلى صالات الرقص الشعبية، وإلى مباريات الملاكمة، وحتى مباريات كرة القدم (كان ماورو قد لعب فــيما مضى مع فريق «الراسينغ») أو تناولنا مشروب المتة، في المطبخ، حتى ساعة متأخرة. وحين انتهت الدعوى القضائية، ومكّنت ماورو من كسب خمسة آلاف بيزو، كانت سيلينا هي أول من طلب مني ألا ابتعد، وأن آتي لزيارتهما. ولم تكن، منذ ذلك الحين، بصحة جيدة، فصوتها الذي فــيه شيء من البحة، كان يضعف أكثر فأكثر. وكانت تباغتها نوبات السعال في الليل، فــيشتري لها ماورو شراب النيوروفوسفاتو إسكاء، وهو ما كان حماقة، وكذلك الهيرو كينا بيسليري، هذه الأشياء التي تُقرأ في المجلات، وتوحي إلى الناس بالثقة.

كنا نذهب معاً إلى صالات الرقص، وكنتُ أراهما يعيشان.

- من الأفضل أن تُكلّم ماورو - قال لي ذلك خوسيه ماريا الذي ظهر فجأة بجانبي، وأضاف:- لأن ذلك سيحسن من حالته.

ذهبتُ إليه، ولكنني بقيت طول الوقت أفكر في سيلينا. من القبيح الاعتراف بهذا، فما كنتُ أفعله، في الواقع، هو إعادة تجميع وتصنيف جذاذاتي عن سيلينا، وهي جذاذات لم تُدون قط، ولكنها في متناول يدي تماماً. كان ماورو يبكي بوجه سافر، مثل أي حيوان سليم، ومن هذا العالم، دون أدنى شعور بالخجل.

أمسك يديّ، وراح يبللهما بعرقه المحموم. وحين يجبره خوسيه ماريا على شرب كأس من الجن، كان يبتلعه بين اجهاشتين، مُصدراً صوتاً غريباً. وعباراته، تلك الهمهمة من الحماقات التي يضمنها كل حياته، والوعي الغامض بأن شيئاً لا علاج له قد حدث لسيلينا، لكنه هو وحده الذي يتهم نفسه ويشعر به. النرجسية الكبيرة اعتذرت أخيراً، وبحرية من أجل ذلك الاستعراض. أحسست بالقرف من ماورو، لكن قرفـــي من نفسي كان أكبر، فرحت أشرب كونياكاً رخيصاً، يحرق فمي، دون منحي متعة. كان السهر على الجثمان يمضي في سبيله. فماورو، وحتى من هم دونه، كانوا جميعهم على ما يرام، حتى إن تلك الليلة كانت تساعد على ذلك، بدفئها ورتابتها؛ فهي ليلة جميلة لقضائها في الفناء، والتحدث عن الفقيدة، للنمِّ عن سيلينا في الهواء الطلق، ريثما يأتي الفجر.

كان ذلك في يوم اثنين. وكان عليّ أن أذهب، بعد ذلك، إلى روساريو، لحضور مؤتمر محامين، حيث لم يجر شيء سوى تصفـــيق بعضهم لبعض، والشرب كمجانين، ورجعتُ في نهاية الأسبوع. وفـــي القطار، كانت تسافر راقصتان من «المولان روج»؛ تعرفتُ على أصغرهما سناً، فتظاهرت بعدم معرفتي. أمضيتُ ذلك الصباح بطوله، وأنا أفكر في سيلينا؛ ليس لأني مهتم كثيراً بموت سيلينا، وإنما بسبب انهيار نظام معين، انهيار عادة ضرورية. فعندما رأيت الفتاتين، فكرت في مسار حياة

سيلينا، وفـــي مأثرة ماورو الذي أخرجها من مرقص اليوناني كازيديس، وأخذها معه. كان انتظار شيء مهم من هذه المرأة، يتطلب شجاعة كبيرة. وكان أن تعرفتُ عليه في تلك الفترة، عندما جاء لاستشارتي في أمر دعوى قضائية، لأمه العجوز، حول أراض في ساناغاستا. وفـــي المرة الثانية، جاءت سيلينا معه. كانت ما تزال تتبرج مثل مومس محترفة، تتحرك بتغنج واضح، لكن دون أن تفلت ذراعه. ولم أتكلف مشقة في تقدير حالهما، والإحساس ببساطة ماورو العدوانية، وجهده المكتوم لتغيير سيلينا تماماً. وعندما بدأت التعامل معهما، بدا لي أنه قد توصل إلى ذلك، على الأقل في الظاهر، وفـــي الحياة اليومية. ولكنني قدّرت الأمر بصورة أفضل، في ما بعد. لقد كانت سيلينا تفلت منه قليلاً إلى نزواتها، إلى ولعها بالرقصات الشعبية، واستغراقها الطويل في الأحلام، بجانب المذياع، بينما يداها مشغولتان بالرفو أو الحياكة. وحين سمعتها تغني، في ليلة فاز فـــيها «النيبيولو» على «الراسينغ» بأربعة أهداف لهدف واحد، أدركت أنها ما زالت مع كازيديس، بعيداً عن المنزل المستقر، وعن ماورو. وللتعرف عليها بصورة أفضل، شجعتُ رغباتها الرخيصة، فذهبنا، نحن الثلاثة، إلى أماكن كثيرة تضج فـــيها مكبرات صوت مبهرة، وبيتزا ساخنة محرقة، وأوراق ملوثة بالدهون على الأرض. لكن ماورو كان يفضل فناء البيت، وساعات تبادل الحديث مع الجيران، وتناول مشروب المتة. كان

يتقبل الخروج قليلاً، وينصاع دون أن يستسلم. فكانت سيلينا تتظاهر عندئذ بالرضا، وربما تكون قد اقتنعت بتقبل الخروج أقل، وأن تكون امرأة بيتها. كنت أنا من أتوصل إلى إقناع ماورو، بالذهاب إلى حفلات الرقص؛ وأعرف أنها كانت ممتنة لذلك في البدء. لقد كانا متحابين، وكانت سعادة سيلينا تكفيهما هما الاثنين، وتكفينا نحن الثلاثة أحياناً.

بدا لي أنه من المناسب أن أستحم، وأن أتصل هاتفياً بنيلدا، لأقول لها إنني سأمر لاصطحابها يوم الأحد، وأنا في طريقي إلى ميدان سباق الخيل، وأن أذهب في الحال لزيارة ماورو. وجدته في فناء بيته، يدخن بين كؤوس لانهائية من المتة. أشفقت عليه، لمرأى ثقبين أو ثلاثة ثقوب في قميصه، وربت على كتفه وأنا أحييه. كان له الوجه نفسه الذي رأيته فيه آخر مرة، إلى جانب القبر، عندما ألقى حفنة من التراب، وتراجع إلى الوراء كالمبهور. لكنني وجدت بريقاً صافياً في عينيه، وكانت يده صلبة حين ضغط على يدي.

- شكراً لأنك جئتَ لزيارتي. أشعر أن الوقت طويل يا مارثيلو.

- عليك الذهاب إلى المسلخ، أم أن هناك من سيحل محلك؟

- سيذهب أخي الأعرج. فأنا لا أجد الحماسة للذهاب، كما لو أن النهار يبدو لي أبدياً بلا نهاية.

- بالطبع. عليك أن تسلو نفسك. ارتد ملابسك، ولنقم معاً بجولة في باليرمو.

- هيا بنا، لا فرق عندي.

ارتدى بذلة زرقاء، ووضع منديلاً مطرزاً، ورأيته يتعطر بعطر كان لسيلينا. كانت تروقني الطريقة التي يعتمر بها قبعته، برفع حافتها؛ ومشيته الخفـيفة والصامتة، كرفـيق طيب. استسلمت لسماعه يقول «الأصدقاء يُعرفون في مثل هذه الشدائد»، وعند زجاجة الجعة الثانية، باح لي بكل ما في أعماقه. كنا جالسين إلى منضدة في أقصى المقهى، وحيدين تقريباً. تركته يتكلم، ولكنني كنتُ أملأ كأسه بالبيرة، بين حين وآخر. لم أعد أتذكر كل ما قاله. وأظن في الواقع، أنه الكلام نفسه الذي يقوله دائماً. ولكن بقيت لدي جملة واحدة مما قاله: «إنها لديّ، هنا» وأشار غارساً إصبعه السبابة، في وسط صدره، كما لو أنه يشير إلى ألم أو إلى وسام.

وكان يقول أيضاً:

- أريد أن أنسى. أن أفعل أي شيء، أن أسكر، أن أذهب إلى المرقص، أن أضاجع أول أنثى أصادفها. أنت تفهمني يا مارثيلو، أنت - كانت السبابة تصعد، كأحجية، وتنطبق على نفسها فجأة مثل مطواة بري الأقلام. لقد كان مستعداً، بعد بلوغه هذا الحد، لتقبل أي شيء، وعندما جئتُ على ذكر فندق **سانتافـيه بالاس**، وكأنني أفعل ذلك بصورة عابرة، اعتبر هو أن ذهابنا للرقص هناك، صار أمراً واقعاً. وكان من نهض أولاً، وهو ينظر إلى ساعته.

مشينا دون تبادل الكلام، يكاد يقتلنا الحر. وكنت أتوقع، طوال الوقت، حديثاً من ماورو، تعبيراً عن ذهوله المتكرر، لعدم إحساسه بسعادة سيلينا على ذراعه، وهو في الطريق إلى الرقص.

- لم آخذها قط إلى هذا الفندق - قال لي فجأة - لقد جئتُ إليه قبل أن أتعرف إليها. كان مرقصاً صاخباً. هل ترتاده بكثرة؟

هناك في بطاقات ملاحظاتي، وصف جيد لفندق **سانتافيه بالاس** الذي لا يسمى سانتافيه، ولا يقوم في الشارع الذي يحمل هذا الاسم، وإن كان يقوم، في الواقع، في شارع مجاور. من المؤسف أنه لا يمكن وصف شيء من هذا حقاً، لا الواجهة المتواضعة بلافتاتها الواعدة، ولا كوة قطع التذاكر الغبشة، وأقل من ذلك القوّادون الذين يقضون الوقت عند المدخل، ويتفحصون المار من أعلى إلى أسفل. وما يلي ذلك أسوأ، والسيئ هو أنه لا وجود لشيء محدد المعالم هناك، إنه الفوضى بالضبط، الاضطراب المتحول إلى نظام زائف: الجحيم ودوائره. جحيم حديقة يابانية، رسم الدخول إليها بيزوان وخمسون سنتافو، وللسيدات بخمسين سنتافو. مقصورات معزولة بصورة سيئة، هي أشبه بباحات مسقوفة متتالية، في المقصورة الأولى تُعزف موسيقى تقليدية، وفي الثانية موسيقى نموذجية، وفي الثالثة موسيقى المنطقة الشمالية، مع مغنين وآلات موسيقية شماليه. وحين نكون (أنا فيرجيل) في ممر وسيط، نسمع الموسيقات

الثلاث، ونرى حلبات الرقص الثلاث؛ وعندئذ يُختار أفضلها، أو يجري التنقل من حلبة رقص إلى أخرى، ومن كأس جن إلى آخر، بحثاً عن موائد ونساء.

- الحال ليست سيئة - قال ماورو بمزاجه الحزين، وأضاف:- ولكن هذا الحر مؤسف. كان عليهم أن يضعوا مكيفات هواء.

(عبارة من أجل جذاذة: لا بد من اقتفاء أثر أورتيغا، في دراسة الاتصالات بين رجل من عامة الشعب والتقنية. فحيث يعتقد بوجود صدمة، يكون هناك بالمقابل تمثل عنيف واستفادة. ماورو يتحدث عن التبريد أو عن جهاز تضخيم الذبذبات الكهربائية، بعجرفة أهالي بوينس آيرس الذين يعتقدون أن كل شيء مسخّر لهم.) أمسكت به من ذراعه، وسرت به نحو إحدى الموائد، لأنه كان لا يزال شارد الذهن، ويتطلع نحو منصة الموسيقى التقليدية، نحو المغني الذي يمسك الميكروفون بكلتا يديه، ويهزه برفق. جلسنا سعيدين أمام كأسي بيرة قوية، وشرب ماورو كأسه دفعة واحدة.

- البيرة تهدئ في هذا الوضع. يا للعنة، كم من الناس يرتادون هذا المرقص.

نادى طالباً كأساً أخرى، فمنحني فرصة للسهو عنه وإلقاء نظرة. كانت الطاولة ملتصقة بحلبة الرقص؛ وكانت هناك، من الجهة الأخرى، كراس مصفوفة بمحاذاة جدار طويل، وكومة

من النساء يتجددن، بمزاج الساقيات الساهي، عندما يعملن أو يلهون. لم يكن هناك لغط كثير، فكنا نسمع الموسيقى التقليدية جيداً، مشبعة بالنفخ، وتُعزف بشهية. وكان المغني يلح على الحنين، وبدت إعجازية طريقته في إضفاء مسحة درامية على إيقاع أقرب إلى السريع، **ضفائر صينيتي، أحملها في الحقيبة...** وكان يمسك بالميكروفون كما لو أنه على حافة التقيؤ، بنوع من الشهوانية المتعبة، أو الحاجة العضوية. وبين حين وآخر، يلصق شفتيه على مشبك الميكروفون المطلي بالكروم، فـيخرج من المكبرات صوت دبق «أنا رجل نزيه...». وفكرتُ في أن إخفاء الميكروفون في دمية مطاطية، ستكون فكرة تجارية جيدة. فهكذا سيتمكن المغني من أن يأخذها بين ذراعيه، وأن يتهيج على هواه، وهو يغني لها. لكنها لن تنفع في أغنيات التانغو، وأفضل منها ستكون العصا المطلية بالكروم، مع جمجمة لامعة في أعلاها، والابتسامة الكزازية على شبكة الميكروفون.

يبدو لي أنه من المناسب القول هنا، إنني كنت أذهب إلى ذلك المرقص من أجل المسوخ، وإنني لم أكن أعرف مكاناً آخر، يجتمع فـيه مثل ذلك العدد منهم. يبدؤون بالمجيء في الحادية عشرة ليلاً، ينزلون من أحياء المدينة التي يلفها الغموض، هادئين وواثقين، يأتون أفراداً منفردين، أو كل اثنين معاً. النساء شبه قزمات ومولدات، والشبان لهم ملامح أهل جاوا، أو قصار جداً ومربوعون، محشورون في بدلات ذات مربعات أو سوداء،

شعورهم قاسية، مسرحة بمشقة، البريانتين عليها يعكس الالتماعات الزرقاء أو الوردية. والنساء بتسريحات عالية جداً تزيدهن تقزماً، تسريحات قاسية وشاقة، بقي لهن منها الإرهاق والكبرياء. أما الرجال، فإنهم يميلون الآن إلى الشعر الطليق، والمرفوع في الوسط، تسريحات هائلة ومخنثة لا علاقة لها إطلاقاً بالوجه الفظ الذي تحتها، وهيئة عدوانية متأهبة، تنتظر ساعتها، وجذوع فعالة فوق خصور رشيقة. إنهم يتعارفون ويتبادلون الإعجاب في صمت، دون أن يظهروا شيئاً من ذلك. إنها حفلة رقصهم، ومكان لقائهم، ليل الملونين. (للتسجيل في بطاقة ملاحظات: من أين يخرجون، ما هي المهن التي يتظاهرون بممارستها في النهار، وأية عبوديات غامضة تعزل بعضهم عن بعض، وتُنَكِّرهم.) إنهم يأتون لأجل هذا؛ المسوخ يتواصلون فـــيما بينهم باحترام وقور، ومعزوفة بعد معزوفة، يدورون راقصين بتمهل ودون كلام. كثيرون منهم يغمضون أعينهم، مستمتعين أخيراً بالمساواة، بالتكامل. ولكنهم يعودون هم أنفسهم في الاستراحات، ويصيرون متبجحين وهم على الموائد. النساء يتكلمن صارخات ليلفتن الأنظار، حينئذ يصير الذكور أكثر خراقة. وقد رأيتُ أنا نفسي، ذات يوم، صفعة فتلت وجه، ونصف تسريحة، فتاة حولاء ترتدي فستاناً أبيض، وتشرب كأساً من خمرة اليانسون. وهناك، فوق ذلك، الرائحة. لا يمكن تصور أولئك المسوخ دون رائحة البودرة المبللة على بشرتهم، رائحة

ثمار متعفنة؛ ويرتاب المرء بالاغتسال السريع، والخرقة المبللة التي تمرر على الوجه وتحت الإبطين، والشيء المهم بعد ذلك هو مستحضرات الغسل، والكحل، والبودرة على وجوههن جميعاً؛ قشرة بياض مصطنع، وتحتها تستشف لطخات داكنة سمراء. ويستخدمن كذلك الأوكسجين، والزنجيات يرفعن عرانيس ذرة يابسة على أرض وجوههن الكثيفة، حتى إنهن يدرسن إيماءات امرأة شقراء، ويلبسن فساتين خضراء، ويقنعن أنفسهن بتحولهن، ويزدرين الأخريات اللواتي يدافعن عن لونهن. كنت أنظر بطرف عيني إلى ماورو، أدرس الفرق بين وجهه ذي الملامح الإيطالية، وجه ابن بوينس آيرس الأصيل، دون أي مزيج زنجي أو ريفـــي. وتذكرت فجأة سيلينا، الأقرب إلى المسوخ، أقرب إليهم بكثير من قربها إلى ماورو وإليّ. وأعتقد أن كازيديس قد استخدمها في حانته لإرضاء الفريق المولد من زبائنه، أولئك القلائل الذين كانوا يملؤون ملهاه بالحيوية. أنا لم أذهب قط إلى ملهى كازيديس في أزمنة سيلينا، لكنني، في ما بعد، نزلت إلى هناك في إحدى الليالي (للتعرف على المكان الذي كانت تعمل فـــيه، قبل أن يُخرجها منه ماورو)، ولم أر سوى بيضاوات، وشقراوات، أو سمراوات، إنما بيضاوات.

– إنهم يثيرون في الرغبة لأرقص التانغو – قال ماورو متذمراً. وكان ثملاً بعض الشيء، عندما بدأ بتناول الكأس الرابعة. أما أنا، فكنت أفكر في سيلينا، ونحن في محلها هنا،

بالضبط هنا، إلى حيث لم يأت بها ماورو أبداً. كانت أنيتا لوثانو تتلقى الآن تصفـــيق الجمهور الشديد، وهي تُحيي من شرفتها. كنت قد سمعتها من قبل في «الروفـــيلتي»، عندما كانت في أوج صعودها، بينما هي الآن هرمة وهزيلة، لكنها لا تزال تحتفظ بكل جمال صوتها في أغنيات التانغو. بل أفضل مما كان عليه، لأن أسلوبها الوغد في الغناء، يتطلب صوتاً فـــيه شيء من البحة والقذارة، من أجل تلك الكلمات التشهيرية. لقد كان لسيلينا مثل هذا الصوت، عندما تكون مخمورة. وانتبهتُ فجأة، أدركتُ أن **السانتافـــيه**، هو سيلينا، إنه حضور سيلينا الذي يكاد لا يطاق.

لقد كان ذهابها مع ماورو خطأ فاحشاً. وقد تحملته لأنها أحبت ماورو، ولأن ماورو أخرجها من قذارة حانة كازيديس، ومن الخلط والتشوش، ومن كؤوس الماء المحلى بالسكر، بين ضربات الركب الأولى، وأنفاس الزبائن في وجهها. ولكن لو لم تكن سيلينا مجبرة على العمل في الحانات، لفضلت البقاء فـــيها. كان ذلك يبدو واضحاً في وركيها، وفـــي فمها، فقد خُلقت من أجل التانغو، ولدت من أعلى إلى أسفل، من أجل حفلات القصف. ولهذا كان لا بد لماورو من أن يأخذها إلى حفلات الرقص. لقد رأيتها تتحول منذ دخولها واستنشاقها، أول نفحات الهواء الساخن، والإيقاعات. في هذه الساعة، وأنا مستغرق بالكامل في جو **سانتافـــيه**. كنت أقدّر عظمة سيلينا، وشجاعتها

بأن تكافئ ماورو بقضاء بضعة أعوام في المطبخ، وفـــي تناول أكواب المتة المحلاة، في الفناء. لقد تخلت عن سمائها المفعمة بالسهر والقصف، وعن ميلها إلى الخمر ورقصات الفالس الكريولية. كما لو أنها تضحي بنفسها، عن وعي، من أجل ماورو، وحياة ماورو. وتلوي بمشقة عنق عالمه، لكي يصطحبها، أحياناً، إلى حفلة رقص.

كان ماورو قد عانق فتاة سمراء، أطول قامة من الأخريات، ذات قوام رشيق، وليست قبيحة إطلاقاً. لقد أضحكني اختياره الغريزي، والمتعمد في الوقت نفسه؛ كانت الساقية الصغيرة، هي الأقل شبهاً بالمسوخ. عندئذ عادت إليّ فكرة أن سيلينا كانت، في حينها، بطريقة ما، مسخاً مثلهم، غير أن ذلك لم يكن يلاحظ، في الخارج، ونهاراً، مثلما يلاحظ هنا. تساءلتُ إذا ما كان ماورو قد لاحظ ذلك، وخشيت بعض الشيء من أن يؤنبني، لأنني جئت به إلى مكان تكبر فـــيه ذكرى كل شيء، مثل شعر على ذراع.

لم يكن هناك تصفـــيق هذه المرة. وعاد ماورو مع الفتاة التي بدت، فجأة، منهوكة وبليدة، خارج رقصة التانغو.

- أقدم لكِ صديقاً.

قال كل منا للآخر عبارات «تشرفنا» المتداولة في بيونس آيرس، وقدمنا لها شراباً، دون أية شكليات أخرى. أسعدتني رؤية ماورو يندمج في الجو الليلي، بل إنني تبادلت كذلك بعض العبارات مع المرأة، وكانت تدعى إيمّا، وهو اسم لا يناسب

النحيفات. بدا ماورو على قدر لا بأس به من الحماسة، وكان يتكلم عن الفرق الموسيقية، بالعبارات المقتضبة والرصينة التي أقدرها فيه. وكانت إيمّا تذكر أسماء مغنين، وتتذكر فيا كريسبو وإلتالار. وفي أثناء ذلك، أعلنت آنيتا لوثانو عن تقديمها أغنية تانغو قديمة، فتعالى تصفيق وصياح بين المسوخ، خاصة بين الريفيين الذين يفضلونها دون تحفظ. لم يكن ماورو ثملاً إلى حد ينسى معه كل شيء. وحين أعادت الفرقة الموسيقية فتح عزفها، نظر إليّ فجأة، وهو متوتر ومتيبس، وكأنه يتذكر. فرأيت نفسي مجدداً في «الراسينغ»، وماورو وسيلينا متعانقان بقوة، على أنغام هذا التانغو الذي بقيت هي تترنم به، بعد ذلك، طوال تلك الليلة، وفي سيارة الأجرة، أثناء العودة.

– هل نرقصها؟ – قالت إيما وهي تشرب، دفعة واحدة، شراب الرمان، محدثة صوتاً مسموعاً.

لم يوجه إليها ماورو ولو مجرد نظر. ويبدو لي أننا، كلينا، وصلنا معاً في تلك اللحظة إلى عمق الأعماق. والآن (الآن وأنا أكتب)، لا أرى صورة أخرى سوى صورة لي، وأنا في العشرين من عمري، في مسبح نادي « بارّاكاس الرياضي»، أقفز إلى حوض السباحة، وألتقي بسباح آخر في القاع؛ نلمس القاع معاً، وفي الوقت نفسه، يرى أحدنا الآخر، في الماء الأخضر والحرِّيف. دفع ماورو كرسيّه إلى الوراء، واستند

بمرفقه إلى المنضدة. كان ينظر، مثلي، إلى حلبة الرقص، وظلت إيما ضائعة ومهانة، بيننا نحن الاثنين؛ ولكنها أخفت ذلك بأكل بطاطا مقلية. وكانت آنيتا قد بدأت تغني الآن بصوتها المبحوح، وكان الراقصون يرقصون دون أن يتحركوا من أماكنهم تقريباً، وبدا ظاهراً أنهم يستمعون إلى كلمات الأغنية برغبة ولوعة، وبكل متعة اللهو الأخرق. كانت الوجوه تبحث عن المنصة، وتبدو، حتى وهي تدور، أنها تتابع أنيتا المنحنية بحنان ومناجاة على الميكروفون. البعض يحركون شفاههم، مرددين كلمات الأغنية، وآخرون يبتسمون ببلاهة، وكأنهم يفعلون ذلك خفـــية عن أنفسهم. وحين أنهت أنيتا أغنيتها بعبارات: **بقدر ما كنتَ لي، كنت لي بالكامل، أبحث اليوم عنك، ولا أجدك.** ردّ على دخول أنغام آلات النفخ، عنفُ الرقص المتجدد، والتنقلات الجانبية، والثمانية المتعانقون وسط حلبة الرقص. كثيرون كانوا يتعرقون. مرت فتاة مولدة، لا يصل طول قامتها إلى زر سترتي الثاني، بجوار المنضدة، ورأيت الماء يخرج من منبت شعرها، ويسيل على قذالها، حيث الدهن يشكل قناةً أقرب إلى البياض. كان هناك دخان يأتي من القاعة المجاورة، حيث يأكلون شواء، ويرقصون رقصات فلاحية. كان الشواء والسجائر يطلقان سحابة، تشوه أشكال الوجوه ولوحات الرسم الرخيصة، المعلقة على الجدار المقابل. وأعتقد أنني كنت أساعد في ذلك التشوه، من الداخل، بأربع كؤوس الخمر التي شربتها. كان ماورو يسند ذقنه بظاهر يده، وينظر بثبات إلى

أمام. لم يلفت انتباهنا أن لحن التانغو لا يزال متواصلاً، وسيتواصل هناك، في الأعلى. وقد رأيت ماورو، مرة أو مرتين، يلقي نظرة إلى المنصة، حيث كانت أنيتا تتظاهر بتحريك عصا مايسترو، لكنه عاد يسمر نظره على الراقصين. لا أعرف كيف أعبر عن ذلك، فقد بدا لي أنني كنتُ أتابع نظره، وأدله في الوقت نفسه على الطريق. كنا، دون أن يرى أحدنا الآخر، نعلم (أظن أن ماورو كان يعلم) أننا بتوافق نظراتنا ذاك، نتوجه إلى الثنائي الراقص نفسه، وإلى الشعور والبناطيل نفسها. سمعت إيما تقول شيئاً، اعتذاراً ما، وصار الحيز الذي يفصلني عن ماورو، على المائدة، أكثر صفاء، مع أننا ما زلنا لا نتبادل النظرات. وبدا كما لو أن لحظة سعادة فسيحة، قد نزلت على حلبة الرقص. تنفستُ بعمق، كأنني أندمج في تلك السعادة. وأظن أنني سمعت ماورو يفعل الشيء نفسه. كان الدخان كثيفاً، إلى حد تتشوش معه ملامح الوجوه في ما وراء منتصف حلبة الرقص. وهكذا، لم يعد ممكناً، بين الأجسام المعترضة والضباب، رؤية منطقة الكراسي، حيث النساء اللواتي لم يدعين إلى الرقص. «**بقدر ما كنتَ لي**»، غريبة هذه القرقرة التي يضفيها مكبر الصوت، على صوت أنيتا. ومرة أخرى، تجمد الراقصون (دون أن يتوقفوا عن الحركة) وسيلينا التي كانت إلى اليمين، خارجة من الدخان، وهي تدور منصاعة لضغط رفيقها في الرقص، ظلت متوجهة ببروفيل وجهها نحوي، ثم أدارت ظهرها، ثم البروفيل الآخر، ورفعت رأسها لسماع الموسيقى.

إنني أقول: سيلينا. ولكن المعرفة، في تلك اللحظة، كانت أكثر من الفهم، لقد كانت سيلينا هناك، دون أن تكون هناك طبعاً. كيف يُمكن فهم ذلك في تلك اللحظة. اهتزت المنضدة فجأة، كنت أعرف أنها ذراع ماورو ترتجف، أو ذراعي أنا، لكننا لم نكن نشعر بالخوف، كان ذلك أقرب إلى الفزع والسعادة والمعدية. الحقيقة أنه كان شعوراً أبله، شعوراً بأشياء جانبية غريبة، تمنعنا من الخروج، من استعادة وعينا. كانت سيلينا لا تزال هناك، دون أن ترانا، تشرب أنغام التانغو بكل وجهها الذي يُظهره ويخفـــيه نور دخاني أصفر. يمكن لأي واحدة من هؤلاء الزنجيات، أن تكون شبيهة سيلينا، أكثر من نفسها، في هذه اللحظة. كانت السعادة تبدل شكلها بصورة فظيعة؛ و لم يكن بوسعي أن أتسامح مع سيلينا، مثلما أراها، في هذه اللحظة، وفـــي هذا التانغو. وكان قد بقي لدي ما يكفـــي من الذكاء، لأقدر مدى فتك سعادتها، ووجهها المذهول والبليد في الفردوس الذي بلغته أخيراً. بهذه الحال كان يمكن لها أن تكون في حانة كاسيديس، لولا وجود العمل والزبائن. لم يعد من شيء يقيدها الآن، في سمائها التي لها وحدها. إنها تستسلم بكل جلدها إلى السعادة، وتدخل مرة أخرى، في نظام لا يمكن لماورو أن يلحق بها إليه. إنها سماؤها القاسية المكتسبة، لحن التانغو الخاص بها الذي يعاد عزفه لها وحدها، ولمثيلاتها، حتى التصفـــيق الذي يشبه زجاجاً مكسّراً، في ختام أغنية آنيتا، وسيلينا تظهر بروفـــيلاً، وراقصون آخرون يخفونها، والدخان.

لم أشأ النظر إلى ماورو. إنني أستعيد الآن نفسي، وتراكم وقاحتي المشهورة، تصرفات مستعجلة. كل شيء يتوقف على الطريقة التي سيتطرق بها إلى الأمر، ولذا بقيتُ مثلما كنت، أتأمل حلبة الرقص التي كانت تخلو شيئاً فشيئاً.

- هل لاحظت؟ - قال ماورو.

- أجل.

- هل لاحظتَ كم تشبهها؟

لم أُجبه. كان ثِقل العزاء أكبر من الشفقة. لقد كان من هذا الجانب. كان المسكين من هذا الجانب. ولم يتمكن من تصديق ما رأيناه معاً. رأيته ينهض، واجتاز حلبة الرقص بخطوات رجل سكران، متوجهاً إلى المرأة التي تشبه سيلينا. أنا بقيتُ ساكناً، أدخن لفافة تبغ أشقر، دون استعجال. أنظر إلى ذهابه وإيابه، وأنا أعرف أنه يضيع وقته، وأنه سيعود مثقلاً وظامئاً، دون أن يعثر على أبواب السماء، وسط هذا الدخان وهؤلاء الناس.

سلفادور سالازار آروي[١]

Salvadorsalazar arrue

الجرة

la botija

كان خوسيه باساكا جسداً مطروحاً على قطعة جلد مدبوغ؛ وكان الجلد مطروحاً في كوخ؛ وكان الكوخ مطروحاً على سفح.

كانت بيترونا بولونتو، هي أم ذلك الفم:

– بني: افتح عينيك. فحتى لونهما كدت أنساه!

---

(١) ولد سلفادور سالازار آروي، الشهير بلقب «سالاوري»، سنة ١٨٩٩، في مدينة سونسوناتي، على الساحل السلفادوري، حيث لا تزال ثقافة السكان الأصليين (هنود الناهواتيل) متجذرة وراسخة. نشر في عام ١٩٢٧ قصته الطويلة الأولى «المسيح الأسود»، ثم أتبعها، في العام نفسه، برواية «سيد الفقاعات». وتسود العملين كليهما أجواء العادات والتقاليد المحلية السلفادورية التي يعتبر سالاوري أبرز ممثليها، ليس في بلاده وحسب، وإنما في القارة الأمريكية اللاتينية بأسرها. في عام ١٩٢٩، أصدر مجموعة قصصية بعنوان «أوياركاندال»، ويظهر فيها التأثير الواضح لأحداث انتفاضة عام ١٩٣٢ الفلاحية التي قام بها هنود السلفادور، وانتهت بمقتل أكثر من ثلاثين ألفاً منهم. توفي سنة ١٩٧٥. من أبرز أعماله: **في الرواية:** «سيد الفقاعات» (١٩٢٧). **في القصة القصيرة:** «المسيح الأسود» ١٩٢٧. «أوياركاندال» (١٩٢٩). «هذا وأكثر» (١٩٤٠). «قصص ثيبوتي» «السيف وقصص أخرى».

فـــيتلعثم خوسيه باساكا، وربما يحرك ساقه.

– ما الذي تريدينه يا أمي؟

– لا بد لك من أن تجد مهنة تمتهنها، فقد صرت هندياً بالغاً!

– حسن!...

استعاد المتكاسل شيئاً من اليقظة: فتحول من نائم، إلى حزين متثائب.

فـــي أحد الأيام، دخل أولوخيو ايسو ومعه شيء غريب. شيء يشبه ضفدعاً حجرياً، وجده وهو يحرث الأرض. وكانت للضفدع قلادة من كرات صغيرة، وثلاثة ثقوب: واحد في الفم، واثنان في العينين.

– يا لهذا الكائن القبيح! – قال ذلك لدى وصوله. وكان يضحك مقهقهاً:– إنه يشبه كاندي الأعور تماماً!...

وتركه هناك ليلعب به أبناء ماريا إلينا الصغار.

غير أن العجوز باسوتو، جاء بعد يومين، وما إن رأى الضفدع، حتى قال:

– هذه الأشياء من صنع السابقين، من صنع أجدادنا. في أثناء الحراثة، يُعثر على أشياء كثيرة، ويُعثر كذلك على جرار مملوءة بالذهب.

تنازل خوسيه باساكا، بتقطيب الجلد الذي بين عينيه، هناك حيث يمتلك الآخرون جباههم.

- وكيف ذلك يا باسوتو؟

أجهز باسوتو على السيجار، ورماه جانباً، مع بصقة كبيرة بحجم صندل، كان لها وقع نعل الصندل أيضاً.

- مسألة حظ يا رجل. تكون مستغرقاً في الحراثة، وهوب! تصطدم السكة فجأة بجرة الكنز. تأخذها، وتصير غنياً.

- ماذا! هل تتكلم بجد يا باسوتو؟

- مثلما تسمع!

أشعل العجوز باسوتو سيجاراً، بكل قوة تجعداته، وسرح في الدخان. وفي الحال، روى ألف حكاية عثور على جرار، وجميعها كان شاهداً عليها، ورآها «بهاتين العينين». وعندما انصرف، انصرف دون أن يلحظ أنه، مما قاله، خلّف قشوراً.

ولأن بيترونا بولونتو ماتت في تلك الأيام، فقد نهض خوسيه بفمه، وحمله سائراً عبر الجوار، دون نتيجة مغذية. أكل بعض الموز المسروق، وقرر البحث عن جرار. ولأجل ذلك، وقف وراء محراث وراح يدفع. ومن وراء السكة، كانت عيناه تحرثان الأرض أيضاً. وهكذا صار خوسيه باساكا، أكثر هنود المكان كسلاً، وأكثرهم اجتهاداً في الوقت نفسه. كان يعمل دون أن يعمل - على الأقل دون أن ينتبه إلى ذلك - وكان يعمل كثيراً، حتى إن ساعات الصباح تجده ينضح بالعرق على الدوام، ويده على مقبض المحراث، وعيناه على الثلم.

قملة التلال، يكشط الأرض السوداء بلهفة، ناظراً طوال الوقت إلى الأرض، باهتمام شديد، فـيبدو كما لو أنه يخلف روحه، مزروعة بين كتل التراب، كي تبرعم كسلاً جديداً؛ لأن هذا الرجل، أجل، باساكا، كان معروفاً بأنه أكثر الهنود بطالة في الوادي. لم يكن يعمل. كان يبحث عن جرار مليئة بنقود ذهبية قديمة، تُصدر صوت «كراك!» عندما تصطدم بها سكة المحراث، وتتقيأ فضة وذهباً، مثل ماء البركة، عندما تبدأ الشمس بالاختفاء وراء أملاك الدكتور مارتينيث، وهي السهول التي تلتقي بالسماء.

صارت كبيرة مثله... بهذا الكبر صارت الفكرة المتسلطة على عقله. فالطمع بالحصول على كنز، وليس الجوع، هو ما أوقفه على قدميه، ودفعه إلى سفوح التلال؛ حيث راح يحرث، ويحرث، منذ صياح الديكة التي تبتلع النجوم، إلى أن يشق طائر الغواس الأبح والكئيب، الواقف على أغصان أشجار الثيبا، الصمت، بصرخاته المحمومة.

كان باساكا يصارع التلال طوال الوقت. والسيد المالك الذي أذهلته معجزة تحول خوسيه إلى أكثر المستوطنين دأباً في العمل، صار يقدم له، دون حساب، قطعاً من الأرض، فـيفلحها الهندي الحالم بالكنوز، وعينه متأهبة لالتقاط إشعار، ونقله إلى القلب، لكي ينقض هو بدوره على الجرة، مثل منديل حب متخفٍ. وصار باساكا يزرع، مضطراً، لأن السيد المالك يطالب

بحصته من المحصول. و كان على باساكا، مضطراً، أن يحصد، ومضطراً كذلك، كان يحصل على حبوب وفــيرة من محصوله، فــيخبئها، بإهمال، في حفرة في الكوخ، فلعل وعسى.

لم يكن هناك بين المستوطنين، من يشعر بأن له كبداً قادرة على إنجاز عمل كالذي ينجزه خوسيه. «إنه الرجل الحديدي»، كانوا يقولون: «من يدري ما الذي أصابه، إنه يريد التباهي. ولا بد أنه سيحصل على ثروة جيدة...»

ولكن خوسيه باساكا لم يكن يدرك أنه يملك كنزاً بالفعل. لأن ما كان يبحث عنه، دون هوادة هو جرة. وبما أنهم، مثلما يقال، كانوا يدفنونها في أراضي الحراثة، فلا بد أن يجدها هناك عاجلاً أو آجلاً.

لم يصبح شغيلاً وحسب، في نظر الجيران، بل كريماً أيضاً. فعندما يكون لديه يوم لا يستطيع فــيه الحراثة، لأنه لا يجد من يقدم له أرضاً، يعرض تقديم مساعدته على الآخرين، فيطلب منهم أن يذهبوا ليستريحوا، ويبقى يحرث بدلاً منهم. وكان يفعل ذلك على أحسن ما يرام: أثلام سكته تمضي دوماً متلاصقة تماماً، وعميقة بصورة مثيرة للإعجاب.

– أين ذهبت أيتها اللعينة! – كان الهندي يفكر دون أن يستسلم –: لا بد أن أعثر عليكِ، حتى لو لم ترغبي، حتى لو تكسرتُ بين الأثلام.

وهذا ما حدث، ليس العثور عليها، وإنما الانكسار.

ففي أحد الأيام، في الساعة التي تخضر فيها السماء، وتصير فيها الأنهار خطوطاً بيضاء في السهول، أدرك خوسيه باساكا أنه لا وجود لجرار. أنبأته بذلك دوخة رافقها حمى. انحنى على مقبض المحراث؛ وبدأ الثوران بالتوقف، كما لو أن السكة قد تشابكت بجذور مطمورة. رأيا سوادهما، تحت السماء الصافية، وكانا يلتفتان لرؤية الهندي مطروحاً، يلهث ويزفر الريح القاتمة.

أصيب خوسيه باساكا بالمرض. ولم يوافق على أن يأتي أحد للعناية به. فقد كان يعيش وحيداً، في الكوخ الذي ماتت فيه بيترونا.

وفي إحدى الليالي، قام ببذل مجهود هائل في أحشائه، وخرج متسللاً وهو يحمل جرة قديمة. وكان ينحني مختبئاً وراء الشجيرات كلما سمع صوتاً، وهكذا راح يحفر حفرة بمنجله المتشيتي المعقوف. كان يئن أحياناً، مستنفداً، ولكنه لا يلبث أن يواصل مهمته بدأب. دسّ الجرة في الحفرة، وغطاها جيداً، ومحا كل أثر للتراب المقلوب. وبينما هو يرفع ذراعيه القصبيين نحو النجوم، أفلت في زفرة هذه الكلمات:

هكذا، كيلا يقال إنه لم تعد هناك جرار في الحقول المحروثة!...

سيرخيو راميريث[1]

Sergio Ramírez

لاقط الكرات

El centerfieder

مرّ ضوء المصباح على وجوه السجناء، مرة بعد أخرى، إلى أن توقف عند سرير ينام عليه رجل يدير ظهره، وجذعه عار، يلمع بالعرق.

---

(١) ولد سيرخيو راميريث ميركادو في مدينة ماساتيبي (نيكاراغوا) عام ١٩٤٢.بدأ نتاجه الأدبي بمجموعة قصص قصيرة، صدرت عام ١٩٦٣.درس الحقوق، وانضم خلال دراسته الجامعية إلى الجماعة الأدبية التي اشتهرت باسم «جيل الأوتونوميا»، وهي الجماعة التي خرج منها، في ما بعد، أبرز قادة الجبهة الساندينية.عرفت أعماله انتشاراً على المستوى العالمي في عقد الثمانينيات، بعد إصداره مجموعة قصصية بعنوان «تشارلز أطلس يموت أيضاً»، واعتبرها النقد إحدى أفضل مجموعات القصص القصيرة الأمريكية اللاتينية الصادرة في السبعينيات. وقد عالج فيها مسألة التهميش الثقافي بأسلوب ساخر، كرسه كأحد أبرز الكتّاب الساخرين في أمريكا اللاتينية.انتقل عام ١٩٦٤ إلى كوستاريكا، واختير في العام ١٩٦٩ أميناً عاماً لكنفدرالية جامعات أمريكا الوسطى. وأسس في السنة نفسها «دار النشر الجامعية».ذهب إلى برلين عام ١٩٧٥. وبعد سنتين من الإقامة هناك، رجع إلى كوستاريكا، لينضم إلى الجبهة الساندينية للتحرر الوطني.وفي عام ١٩٧٨، رجع إلى بلاده، نيكاراغوا، متحدياً أمر الاعتقال الذي أصدره نظام سوموزا الدكتاتوري ضده. ولكنه استقبل في ماناغوا بمظاهرة شعبية حاشدة.بعد هزيمة دكتاتورية سوموزا، وفوز الجبهة الساندينية في الانتخابات، تم تعيينه نائباً لرئيس نيكاراغوا، واستمر في هذا المنصب عدة سنوات.حصل عام ١٩٩٨ على جائزة ألفاغوارا الدولية للرواية.من أبرز اعماله:في الرواية: «زمن التألق» (١٩٧٠)، «هل أخافك الدم» (١٩٧٢)، «عقاب إلهي» (١٩٨٨)، «علامة الثعلب» (١٩٩٠)، «رقصة الأقنعة» (١٩٩٥)، مرغريتا، البحر جميل». في القصة:«قصص قصيرة» (١٩٦٣)، «قصص جديدة» (١٩٦٩)، «تشارلز أطلس يموت أيضاً» (١٩٧٩)، «رمز الشمس» (١٩٩٢)، «قصص» (١٩٩٤)، «كاتالينا» (٢٠٠٢).في الدراسات:«الفجر الذهبي: تاريخ نيكاراغوا الحي» (١٩٨٣)، «أنت في نيكاراغوا» (١٩٨٥)، «فوضى الحب» (١٩٩١)، «مهن مشتركة» (١٩٩٤).

– هذا هو، افتح الباب – قال الحارس وهو يتطلع من خلال القضبان.

سُمع صرير القفل الصدئ، يقاوم المفتاح الذي يستخدمه السجان، ويعلقه في طرف سلك كهربائي، يحيط به خصره، ليثبت بنطاله. ثم ضربوا، بعد ذلك، خشب السرير بعقب البندقية، فنهض الرجل وإحدى يديه على عينيه، لأن ضوء المصباح كان يضايقه.

– انهض، إنهم ينتظرونك.

بدأ البحث عن القميص متلمساً. كان يشعر بقشعريرة برد، بالرغم من أن الحر لم يكن يطاق طوال الليل، وكان المعتقلون ينامون بملابسهم الداخلية أو عراة. الكوة الوحيدة في الجدار عالية جداً، والهواء يبقى طافياً عند السقف. وجد القميص، وحشر قدميه في الحذاء الذي بلا رباط.

– بسرعة – قال الحارس.

– إنني آت، ألا ترى.

– لا تتواقح في الرد عليّ، أنت تعرف.

– أعرف ماذا؟

– حسن، أنت تعرف.

تركه الحارس يخرج أولاً.

– هيا – قال له ذلك، وهو يلمس أضلاعه بماسورة البندقية. فأصابته برودة الحديد بقشعريرة.

خرجا إلى الفناء، وفـــي أقصاه، إلى جانب السور، كانت أوراق أشجار اللوز تلمع تحت ضوء القمر. في الساعة الثانية عشرة، يكونون منهمكين في ذبح الماشية في المسلخ، في الجانب الآخر من السور، ويحمل الهواء رائحة الدم والروث.

يا له من فناء بديع للعب البيسبول. يجب أن تقام هنا مباريات بين السجناء، أو بين السجناء والحراس. السور سيكون الحد، وهناك حوالي ثلاثمئة وخمسين قدماً، تنفع كمضمار للجري، حتى لاقط الكرات. ضربة كرة من هذا العمق، سيكون بالإمكان اعتراضها، بالركض نحو أشجار اللوز، والتقاطها بعد ذلك بجانب الجدار. سيبدو المربع بعيداً، والصرخات المطالبة برمي الكرة ستُسمع كأنها منطفئة. وسأرى المضمار ينعطف ثانية، وبقفزة واحدة سأمسك بأحد الأغصان، وأرتقيه بحركة سريعة، وسأصل بقدمي إلى غصن آخر، عند مستوى الجدار الذي تغطي أعلاه قطع زجاج قنانٍ مكسرة، فأضع يدي أولاً، بحذر، ثم أمر بجسدي مستنداً إلى قدمي، حتى لو أدى ذلك إلى إصابتي بجراح، وأنا أقفز إلى الجانب الآخر، وسأسقط على مقلب القمامة. عظام وفضلات، صفائح، وأجزاء كراسٍ مخلعة، خرق، صحف، حيوانات ميتة. وبعد ذلك سأركض بين الأشواك، وسأسقط في قناة ماء الاغتسال. لكنني سأنهض، بينما تدوي ورائي بقسوة وجفاء، رصاصات بنادق الغارند.

– توقف عندك. إلى أين تظن نفسك ذاهباً؟

– للتبول.

– إنك تبول خوفاً أيها القواد.

كان الفناء أشبه بالساحة تقريباً، حيث أشجار الغواروموا[1] إلى جانب مدخل الكنيسة. وأنا بقفازي، أحرس موقع التقاط الكرات. فأنا الوحيد، بين لاقطي الكرات، من لديه قفاز من قماش الخيم السميك. أما الآخرون، فإنهم يلتقطون الكرات بأيديهم العارية. وحتى الساعة السادسة مساء، أواصل التقاط الكرات، بالرغم من انعدام الرؤية، ولكن لا تفلت مني أي ضربة. فمن صوت الضربة وحده، كنت أحدس الكرة الآتية، مثل حمامة، لتستقر في يدي.

– ها هو ذا يا سيدي النقيب – قال الحارس وهو يطل برأسه من الباب الموارب. ومن الداخل، كان يأتي أزيز جهاز تكييف الهواء.

– أدخله وانصرف.

سمع صوت إغلاق الباب وراءه، فأحس كما لو أنه حبيس في الغرفة العارية. كانت الجدران مبيضة بالكلس، وكانت هناك صورة واحدة فقط، في إطار مذهب. وتقويم ذو أرقام كبيرة، حمراء وزرقاء. وكرسي في الوسط، وفي صدر الغرفة طاولة

---

(١) غواروموا guarumo: جنس أشجار ضخمة، خشبها خفيف، وجذعها أجوف.

النقيب. لقد جرى تركيب جهاز التكييف حديثاً في الجدار، لأن الجص الطازج لا يزال ظاهراً.

– في أي ساعة أمسكوا بك؟ – قال النقيب دون أن يرفع رأسه.

بقي صامتاً، مشوشاً، ورغب من أعماق روحه في أن يكون السؤال موجهاً إلى آخر، إلى شخص مختبئ تحت الطاولة.

– إنني أكلمك أنت، أم أنك أصم. في أي ساعة ألقوا القبض عليك؟

– بعيد الساعة السادسة على ما أظن – قال بنعومة، ظن معها أن الآخر لم يسمعه.

– ولماذا تظن أنه بعيد السادسة؟ ألا يمكنك أن تحدد لي الساعة بدقة؟

– لا أملك ساعة يا سيدي، ولكنني كنت قد تناولت العشاء، وأنا آكل في الساعة السادسة.

تعال لتناول العشاء، كانت تصرخ بي أمي من الرصيف. فأردّ عليها: بقيت جولة واحدة، يا أماه. ولكن، ألا ترى يا بني أن الظلام قد حلّ، كيف ستواصل اللعب. هاأنذا آت، بقيت رمية واحدة فقط. وفـــي الكنيسة، بدأت الكمانات والأرغن العزف لقداس المساء، في الوقت الذي كانت الكرة تطير نحو يديّ، من أجل إحراز النقطة الأخيرة، وكسبنا اللعبة مرة أخرى.

- ماذا تعمل؟

- إسكافـــي.

- هل تعمل في ورشة؟

- لا، أقوم بالتصليح في بيتي.

- ولكنك كنتَ لاعب بيسبول، أم أن هذا غير صحيح؟

- بلى، كنت لاعب بيسبول.

- وكانوا يسمونك بارّاليس «المطرقة»، الناقوس باراليس، صحيح؟

- أجل، هكذا كانوا يسمونني، وذلك لطريقتي في الرماية على «الهوم»، لاوياً ذراعي.

- وكنتَ ضمن المنتخب الذي ذهب إلى كوبا؟

- أجل، قبل عشرين سنة. كنتُ لاقط كرات.

- ولكنهم طردوك.

- بعد رجوعنا.

- كنت نصف مشهور بطريقتك في الرماية على «الهوم».

أراد أن يبتسم، ولكن الآخر كان ينظر إليه بغضب.

أفضل لعبة لي، كانت عندما التقطت مرة، كرة محلقة في مدرجات فناء الكنيسة، وأنا أدير ظهري إلى المربع. رفعت القفاز، وسقطت على وجهي فوف المدرجات، ولكنني أمسكت الكرة، ونزف لساني، وربحنا الجولة، فحملوني على الأكتاف

إلى بيتي. وكانت أمي تعدّ العجة، فتركت العجين، وجاءت لتعالجني، وهي مفعمة بالفخر والأسى: ستبقى حماراً، ولكنك ستصير رياضياً، يا بني.

- ولماذا طردوك من الفريق؟

- لأن رمية «فلاي» أفلتت مني، وخسرنا.

- في كوبا؟

- كنا نلعب ضد منتخب جزيرة أروبا، كانت رمية «حمامة» أفلتت من يدي، وحققوا دورتين، فخسرنا.

- لقد طردوا آخرين عديدين.

- الحقيقة أننا كنا نشرب كثيراً، وفـــي اللعب، غير ممكن.

- آه.

«عن إذنك»، أراد أن يقول ذلك، لكي يجلس، لأنه أحس بساقيه تتراخيان، ولكنه بقي ساكناً في المكان نفسه، كما لو أنهم طلوا نعليّ حذائه بالصمغ.

بدأ النقيب يكتب، واستمر ذلك قروناً. ثم رفع رأسه، وبدا على جبهته أثر حافة القبعة الأحمر.

- لماذا جاؤوا بك إلى هنا؟

هز كتفـــيه فقط، ونظر إليه مرتبكاً.

- هيا، لماذا؟

- لا - أجاب.

- لا ماذا.

- لا، لا أعرف.

- آه، لا تعرف.

- لا.

- لدي هنا قصتك - وعرض عليه ملفاً. يمكنني أن اقرأ عليك بعض الفقرات، لكي تعرف عن حياتك - قال النقيب وهو ينهض واقفاً.

من آخر الملعب، كان ارتطام الكرة بالقفاز يُسمع من بعيد جداً، دون أن يثير الاهتمام تقريباً. ولكن عندما يوجه أحدهم الكرة، تنفجر ضربة المضرب الجافة في الأذنين، وتُشحذ كل الحواس متابعة الكرة. وإذا كانت الرمية هوائية وآتية إلى يدي، فإنني أنتظرها بحب، بصبر، راقصاً تحتها إلى أن تصل إليّ. أنتظرها وأنا أضع يدي على مستوى صدري، وكأنني أُعدّ لها عشاً.

- يوم الجمعة، الثامن والعشرين من تموز، في الساعة الخامسة مساء، توقفت قبالة منزلك، سيارة جيب من نوع ويلز، مغطاة بشادر، خضراء اللون، ونزل منها رجلان: أحدهما أسمر، يرتدي بنطالاً كاكياً، ويضع نظارة سوداء؛ والآخر أشقر، يرتدي بنطالاً bluyin، ويضع قبعة قشية. ومن يضع النظارة، كان يحمل حقيبة عليها شعار بان أميريكان، والآخر يحمل جراباً قماشياً. دخلا إلى بيتك، ولم يخرجا حتى العاشرة ليلاً، دون أن يأخذا معهما الحقيبة والجراب.

- ذو النظارة - قال ذلك، وكان يريد أن يواصل، غير أنه أحس بحاجة إلى ابتلاع كمية هائلة من اللعاب. قال بعدها:- الشخص الذي كان يضع النظارة هو ابنـي.

- هذا أمر أعرفه.

سادت فترة صمت أخرى، وأحس أن قدميه تبتلان داخل حذائه، كما لو أنه انتهى من اجتياز تيار متدفق.

- الحقيبة التي تركوها عندك، كانت تحتوي على ذخائر مسدسات رشاشة، وكان الجراب مملوءاً بصواعق. والآن، منذ متى لم تر ابنك؟

- شهور - دمدم.

- ارفع صوتك، فأنا لا أسمعك.

- شهور، لا أدري كم، ولكن شهور. اختفى في أحد الأيام من عمله، وضاع وسط الجموع، ولم نعد نراه.

- ألم تحزن عليه؟

- بالطبع، فالابن هو الابن. سألنا، استفسرنا، ولكن دون جدوى.

ضبط وضع أسنانه الاصطناعية، لأنه أحس أنها بدأت تفلت.

- لكنك كنت تعرف أنه يمضي مع المتمردين؟

- كانت تصلنا إشاعات.

– وعندما جاء بسيارة الجيب، ماذا فكرت؟

– أنه راجع. ولكنه سلّم علينا ومضى. بضع ساعات.

– وطلب أن تخبئوا له الأشياء.

– أجل، وأنه سيرسل من يأخذها.

– آه.

أخرج من الملف مزيداً من الأوراق المكتوبة على الآلة الكاتبة، بحروف بنفسجية. راجع. وأخيراً تناول واحدة منها، ووضعها على الطاولة.

– هنا يقولون إنك كنتَ، طوال ثلاثة شهور، توصل ذخائر، وأسلحة قصيرة، وصواعق، ومنشورات، وأن أعداء الحكومة كانوا ينامون في بيتك.

لم يقل شيئاً. وإنما أخرج منديلاً لينف أنفه وحسب. كان يبدو، تحت المصباح، نحيلاً ومستنفداً، وكأنه قد اختزل إلى هيكله العظمي.

– ولم تكن تلاحظ شيئاً، أليس كذلك؟

– أنت تعرف، الأبناء – قال.

– أبناء العاهرة، من أمثالك.

أخفض بصره إلى حذائه المتسخ، إلى لسان حذائه المفلت، ونعليه الملطخين بالوحل.

– منذ متى؟

- ماذا؟

- منذ متى لم تر ابنك؟

نظر إلى وجهه، وأخرج منديله مجدداً.

- أنت تعرف أنهم قد قتلوه. لماذا تسألني؟

الرمية الأخيرة في المباراة مع منتخب أروبا، تعادل سلبي، والكرة البيضاء آتية نحو يديّ، كأنها تطفو. تأهبت للقائها، انتظرتها. مددت ذراعي، وكنا سنلتقي إلى الأبد، عندما ارتطمت بظاهر يدي، أردت الإمساك بها وهي تسقط، ولكنها طفرت، ومن بعيد رأيت الرجل يكتسح «الهوم». وكان كل شيء يضيع، يا أماه، كنت بحاجة إلى ماء فاتر في جراحي، لأنني دائماً كما تعرفــين، دائماً امتلكت الشجاعة لالتقاط الكرات، حتى لو فقدت حياتي.

- يريد أحدنا أن يكون طيباً معكم، ولكن ذلك غير ممكن - قال النقيب وهو يدور حول الطاولة. دس الملف في الدرج، وعاد ليطفئ جهاز تكييف الهواء. ساد الصمت المفاجئ الحجرة. نزع منشفة معلقة بمسمار، ولفها حول عنقه، ثم نادى:

- أيها الرقيب.

تأهب الرقيب عند الباب، وعندما أخرجوا السجين، رجع ليمثل أمام النقيب.

- ماذا أكتب في التقرير؟ - سأله.

- لقد كان لاعب بيسبول. وهكذا يمكنك أن تخترع أية حماقة: أنه كان يلعب مع السجناء الآخرين، وأنه كان لاقط كرات، وأنه جاءته ضربة اصطدمت بالجدار، وأنه انتهز الفرصة ليصعد شجرة اللوز، وأنه قفز عن السياج، وأنه راح يركض عبر مكب القمامة، فرميناه.

غابرييل غارسيا ماركيز[١]

Gabriel García Márquez

ليلة الخسوف

La noche del eclipse

أسرار أخرى كثيرة، في ذلك الفندق المفرط في غرابته، لم يكن فهمها سهلاً على آنا ماجدلينا باتش. فعندما أشعلت سيجارة، انطلق

(١) ولد في أراكاتا (كولومبيا) في السادس من آذار ١٩٢٨.روائي وقصاص وصحفي وكاتب سيناريو سينمائي.غادر بلاده عام ١٩٤٤، وعمل مراسلا صحفيا في روما وباريس ومكسيكو وكاراكاس وبرشلونة، قبل أن يستقر لسنوات طويلة في المكسيك.عمل مراسلاً لوكالة الصحافة الكوبية «برنسا لاتينا» في نيويورك.تجول طويلاً في المناطق الجنوبية من الولايات المتحدة لاستطلاع عوالم الكاتب الأمريكي وليم فوكنر. وقد قال يوماً: «يجب ألا ننسى أن فوكنر هو كاتب أمريكي لاتيني بطريقة ما، لأن عالمه هو خليج المكسيك».أكثر مؤلفاته طموحاً هي روايته «مئة عام من العزلة» التي تشكل ملحمة بكل معنى الكلمة، والتي كرسته على المستوى العالمي.نقلت قصص كثيرة من تأليفه إلى السينما، وكان من أولها «لا يوجد لصوص في هذه القرية» بإخراج المكسيكي ألبيرتو إساك. وقد شارك غارسيا ماركيز نفسه في تمثيل هذا الفيلم إلى جانب خوان رولفو ولويس بونويل.نال جائزة نوبل للآداب عام ١٩٨٢.من أبز أعماله:في الرواية:«الأوراق المتساقطة» (١٩٥٥)، «ليس لدى الكولونيل من يكاتبه» (١٩٦١)؛ «ساعة الشؤم» (١٩٦٢)، «مئة عام من العزلة» (١٩٦٧)، «خريف البطريرك» (١٩٧٥)، «قصة موت معلن» (١٩٨١)، «الحب في زمن الكوليرا» (١٩٨٥)؛ «الجنرال في متاهته» (١٩٨٩)، «عن الحب وشياطين أخرى» (١٩٩٤)، «خبر اختطاف» (١٩٩٦)القصة القصيرة:«مأتم الأم الكبيرة» (١٩٦٢)، «إيسابيل ترى هطول المطر في ماكوندو» (١٩٦٧)، «الحكاية العجيبة لاريNديرا السانجة وجدتها القاسية» (١٩٧٢) «عينا الكلب الأزرق» (١٩٧٢)، «اثنتا عشرة قصة قصيرة مهاجرة» (١٩٩٢).كتابات نثرية متنوعة:«قصة بحار غريق» (١٩٧٠)، «عندما كنت سعيداً وبلا هوية» (١٩٧٣)، «عن رحلة إلى البلدان الاشتراكية» (١٩٧٨)، «مغامرة ميغيل ليتين السري في تشيلي» (١٩٨٦)، «كيف تحكى حكاية/ بائعة الأحلام/ نزوة القص المباركة» (ثلاثة كتب عن ورشة غارسيا ماركيز لكتابة السيناريو ١٩٩٥)، ومذكراته التي صدرت بعنوان «عشت لأروي» (٢٠٠٣).

جهاز إنذارٍ، بصفاراتٍ وأنوار، وجاءها صوت آمر يقول لها، بثلاث لغات، إن هذه الغرفة مخصصة لغير المدخنين، وهي الغرفة الوحيدة التي وجدتها شاغرة في ليلة المهرجانات تلك. وكان لا بد لها من أن تطلب المساعدة لكي تعرف أنه يمكن لها، ببطاقة فتح الباب نفسها، أن تشعل الأضواء، والتلفزيون، وجهاز تكييف الهواء، والخلفـــية الموسيقية الهادئة. وعلموها كذلك كيف تستخدم لوحة المفاتيح الالكترونية في حوض الحمام الدائري، كي تنظم حركات الماء الإيروتيكية والعلاجية في حوض الجاكوزي. أصابها الفضول بما يشبه الجنون، فخلعت على الفور، ثوبها المضمخ بالعرق من شمس المقبرة، ووضعت طاقية الاستحمام لتحمي تسريحتها، وأسلمت نفسها لدفقات الزبد. وفـــي سعادتها تلك، أجرت اتصالاً خارجياً بالهاتف مع بيتها، وأخبرت زوجها الحقيقة بصوت صارخ: «لا يمكنك أن تتصور مدى افتقادي لك في هذه اللحظة». وكانت التأوهات الضارية التي أطلقتها بالغة الحيوية، إلى حدّ أحس معه، عبر الهاتف، باستثارة ذلك الحمام وتهيجيه. فقال لها:

– يا للعنة. أنت تدينين لي بهذا عندما ترجعين.

وكانت قد فكرت في أن تطلب، أن يأتوها بشيء من الطعام إلى الغرفة، كيلا تضطر إلى ارتداء ملابسها والخروج. ولكن غلاء الخدمة في الغرف، دفعها إلى أن تقرر تناول الطعام، كفقيرة، في كافـــيتريا الفندق. فستان الحرير الأسود، الاسطواني وبالغ الطول بالمقارنة مع الموضة الدارجة، كان مناسباً لها

بتسريحتها تلك. أحست بأنها شبه بائسة، بفتحة صدر فستانها، لكن العقد، والقرطين، وخواتم الزمرد المزيف، رفعت من معنوياتها، وزادت من بريق عينيها.

عندما نزلت لتناول العشاء، كانت الساعة قد بلغت الثامنة. أنهت طعامها بسرعة. ولإحساسها بالضيق من بكاء الأطفال، ومن الموسيقى الصاخبة، قررت العودة إلى غرفتها لتقرأ «يوم الشقوق الثلاثة» لراي برادبوري. وهي الرواية التي تنتظر دورها في القراءة لديها، منذ أكثر من ثلاثة أشهر.

أعاد إليها سكون البهو الحماسة، وحين مرت قبالة قاعة الرقص، لفت نظرها ثنائي محترف يرقص فالس الإمبراطور بتقنية كاملة الإتقان. بقيت مستغرقة بذهول، عند الباب، إلى أن انتهى الاستعراض، واحتل الزبائن العاديون حلبة الرقص. عندئذ أخرجها من أحلامها صوتٌ عذب ورجولي، على مقربة شديدة من ظهرها:

- أنرقص معاً؟

كانا قريبين جداً أحدهما من الآخر، حتى أنها أحست برائحة حيائه الخفـيفة فـيما وراء رائحة عطر الحلاقة. عندئذ نظرت إليه من فوق كتفها، وفقدت أنفاسها. «اعذرني - قالت له بارتباك - ولكنني لا أرتدي ثوباً مناسباً للرقص». وكان ردّه مباشراً وفورياً:

- أنت من ترتدين الثوب المناسب يا سيدتي.

كان للجملة وقع مبهر عليها. وبحركة غير واعية، لمست نهديها المكتملين، وذراعيها العاريين، ووركيها المتينين، إلى أن تحققت من أن جسدها موجود فعلاً حيث تشعر به. عندئذ نظرت من جديد من فوق كتفها، لا لتتعرف عليه، وإنما لتستحوذ عليه بأجمل عينين رآهما على الإطلاق.

وقالت بافتتان:

– أنت رجل مهذب جداً. لم يعد هناك رجال يقولون مثل هذه الأشياء.

عندئذ وقف هو إلى جانبها، وكرر لها، بصمت، الدعوة إلى الرقص. فأمسكت آنا مجدلينا باتش، الوحيدة والحرة في جزيرتها، بتلك اليد، بكل ما في روحها من قوة، كما لو أنها تقف على شفــير هاوية.

رقصا ثلاثة فالسات على الطريقة القديمة. وقد افترضت هي، منذ الخطوات الأولى، بسبب براعته الاستعراضية، أنه راقص محترف آخر ممن يستأجرهم الفندق لبعث الحماسة في ليالي الرقص. وأطلقت لنفسها العنان منقادة للحركات الدائرية الطائرة، ولكنها أبقته بعيداً عنها بقدر طول ذراعها. قال لها وهو ينظر إلى عينيها: «ترقصين كفنانة». كانت تعرف أن ذلك صحيح، ولكنها كانت تعرف أيضاً أنه يقول ذلك، على أي حال، لأي امرأة يريد أخذها إلى الفراش.

فـــي رقصة الفالس الثانية، حاول هو أن يشدها إلى جسده، ولكنها أبقته في مكانه. وقد بالغ هو في إظهار فنه، مقتاداً إياها من خصرها برؤوس أصابعه، مثل زهرة. وفـــي منتصف الفالس الثالث صارت تعرفه، وكأنها تعرفه منذ الأزل.

لم تتصور قطّ، رجلاً على هذه الدرجة من التعلق بالقديم، يكون ذا مظهر بهذا الجمال. فقد كانت له بشرة داكنة السمرة، وعينان متوقدتان تحت حاجبين كثيفـــين، وشعر كهرماني مطلق السواد، وممسد بمادة صمغية،مع فرق متقن الدقة في الوسط. ويشد السموكينغ التروبيكالي الحريري على وركيه الضيقين، ليكمل هيئته المتأنقة. كل شيء فـــيه كان مصطنعاًمثل أساليبه السلوكية، لكن عينيه المحمومتين تبدوان متعطشتين لتلقي الشفقة.

بعد نوبة الفالسات، اقتادها إلى مائدة منـــزوية دون إشعار ولا استئذان. ولم تكن ثمة حاجة إلى ذلك؛ فقد كانت تعرف كل شيء مسبقاً، وأبهجها أنه طلب شمبانيا. كانت الصالة شبه المظلمة مكاناً جيداً للعيش، وكان لكل مائدة جوها الحميم الخاص.

قدرت آنا مجدلينا أن عمر مرافقها لا يتعدى الثلاثين سنة، لأنه يكاد لا يحسن التحرك في رقصة البوليرو. وقد اقتادته هي بلمسة جديّة، إلى أن استطاع التوصل إلى الخطوة المناسبة. أبقته على مبعدة منها، كيلا تمنحه متعة الإحساس بالدم المحموم،

بفعل الشمبانيا، في عروقها. ولكنه واصل ضغطه، برفق في بادئ الأمر، وبعد ذلك بكل قوة ذراعه حول خصرها. فأحست هي عندئذ، في فخذها، بما رغب هو في أن تحس به، لكي يحدد قدراتها. ولعنت نفسها لتلاطم دمها في عروقها، وللهيب أنفاسها. ولكنها عرفت كيف تحول دون طلب زجاجة الشمبانيا الثانية. ولا بد أنه لاحظ ذلك، إذ إنه دعاها إلى نزهة على الشاطئ. فوارت هي استياءها بخفة مشفقة:

- أتعرف كم هو عمري؟

فقال:

- لا يمكنني أن أتخيل أن لك عمراً - ثم أضاف:- سوى العمر الذي تريدينه أنت وحسب.

لم يكن قد انتهى من قول ذلك، عندما طرحت هي، وقد سئمت كل ذلك الرياء، المعضلة الحاسمة على جسدها: إما أن أغادر الآن أو أنني لن أفعل أبداً. «آسفة»، قالت وهي تنهض واقفة. فذُعر هو.

- ماذا جرى؟

فقالت:

- عليّ أن أذهب. الشمبانيا ليست مشروبي المفضل.

اقترح عليها برامج أخرى بريئة، ربما دون أن يدري بأن المرأة عندما تذهب، لن تكون هناك قوة بشرية ولا إلهية قادرة على إيقافها. وأخيراً استسلم.

– أتسمحين لي بأن أرافقك؟

فقالت:

– لا تزعج نفسك. وأشكرك حقاً. لقد كانت ليلة لا تُنسى.

كانت قد بدأت تشعر بالندم وهي في المصعد. وأحست بضغينة قاسية تجاه نفسها، إنما عوَّض عنها شعورها بمتعة أنها فعلت ما يجب عليها أن تفعله. دخلت إلى الغرفة، خلعت حذاءها، ثم استلقت على السرير وأشعلت سيجارة. وفي اللحظة نفسها تقريباً، طُرق الباب، فلعنت الفندق الذي يطارد قانونه النزلاء حتى في حميميتهم المقدسة. ولكنّ من طرق الباب لم يكن القانون، وإنما هو نفسه.

بدا كما لو أنه تمثال من متحف الشمع في عتمة الممر. تثبتت هي من ذلك ويدها على مقبض الباب، دون ذرة واحدة من التساهل، وأخيراً أفسحت له الطريق. فدخل كما لو أنه يدخل إلى بيته.

– قدمي لي شيئاً – قال.

– اخدم نفسك بنفسك – قالت هي، ثم أضافت:– ليست لدي أدنى فكرة عن كيفية عمل هذه المركبة الفضائية.

أما هو بالمقابل، فكان يعرف كل شيء. قام بخفض الأنوار، وشغّل موسيقى هادئة، وسكب كأسين من الشمبانيا من الميني بار بمهارة مايسترو أوركسترا. واستجابت هي للعبة، ليس على أنها هي نفسها، وإنما كممثلة لدورها بالذات. كانا يتبادلان النخب

عندما رنّ جرس الهاتف، فردت مذعورة. نبهها أحد ضباط أمن الفندق، بلطف شديد، بأنه لا يمكن لأي ضيف البقاء في غرف الفندق بعد منتصف الليل، ما لم يكن مسجلاً لدى الاستقبال ضمن النزلاء.

فقاطعته محتدة:

- لا حاجة بك لأن تشرح لي هذا. بعد إذنك.

أغلقت سماعة الهاتف بوجه محتقن من الحياء. أما هو، كما لو أنه قد سمع التنبيه، فقد برره بمسوغ سهل: «إنهم مرمونيون متدينون». ثم دعاها دون مزيد من المداورة، لمشاهدة خسوف كامل للقمر من الشاطئ. كان خبر الخسوف جديداً بالنسبة لها. وقد كانت تتشوق منذ طفولتها لرؤية الخسوفات، ولكنها بعد أن أمضت تلك الليلة كلها في المناظرة بين الاحتشام والإغواء، لم تجد مبرراً نافعاً لعدم الموافقة.

وقال هو:

- لا مهرب لدينا. إنه قدرنا.

تلك المناشدة الخارقة للطبيعة أعفتها من الوساوس. وهكذا ذهبا في سيارته الكبيرة لمشاهدة الخسوف، في شاطئ متوارٍ عن الأنظار، بين أشجار جوز الهند، لا أثر فــيه للسائحين. كان يظهر في الأفق وميض المدينة البعيد، وكانت السماء صافــية، بقمر متوحد وكئيب. أوقف السيارة في كنف أشجار النخيل، خلع حذاءه، أرخى حزامه، وأمال المقعد ليسترخي. واكتشفت هي أنه

لا يوجد في السيارة سوى المقعدين الأماميين، وأنهما يتحولان إلى سريرين بمجرد الضغط على زر. وما تبقى يشغله بار صغير، وجهاز موسيقى تنبعث منه أنغام ساكسيفون لفاوستو بابيتا، وحمام صغير فــيه مرحاض نقال وراء ستارة قرمزية. ففهمت كل شيء.

قالت:

- لا وجود لأي خسوف. فالخسوفات لا تحدث إلا عندما يكون القمر بدراً، ونحن في الهلال.

فقال:

- لا بد أنه كسوف شمسي إذن. لدينا متسع من الوقت.

لم تكن ثمة حاجة إلى مزيد من المساعي والشكليات. كلاهما كان يعرف ما ينتظرهما. وكانت هي تعرف فوق ذلك، أن هذا هو المصير الوحيد الذي يمكن لها أن تنتظره منه، منذ أن رقصا معاً رقصة البوليرو الأولى. أذهلتها براعة ساحر الصالونات التي عراها بها قطعة فقطعة، خيطاً فخيطاً تقريباً، برؤوس أصابعه، ودون أن يكاد يلمسها، كما لو أنه ينــزع طبقات بصلة. ومع انقضاضة المينوتورو الأولى، أحست بأنها تموت من ألم مهانة مريعة لدجاجة مقطعة الأوصال. فقدت أنفاسها، وبللها عرق جليدي. ولكنها استعانت بغرائزها البدائية كيلا تشعر بالدونية، وكيلا تتيح لنفسها بأن تشعر بأنها أقل منه. واستسلما معاً لمتعة القوة البهيمية العاتية، المروضة بالرقة.

لم تعد آنا مجدلينا إلى الاهتمام بمعرفة من يكون، ولم تحاول معرفة ذلك، إلى ما بعد ثلاث سنوات من تلك الليلة التي لا تُنسى، عندما تعرَّفت في التلفاز على صورته، كمصاص دماء حزين، مطلوب لدى كل أجهزة الشرطة في منطقة الكاريبي، باعتباره محتالاً يغوي آرامل سعيدات ومتوحدات، وقاتلاً محتملاً لشخصين.

٢٠٠٣

كارلوس فوينتيس[(١)]

Carlos Fuentes

الحدود الزجاجية

La frontera de cristal

(١) ولد في بنما عام ١٩٢٨، وأمضى طفولته متنقلاً في بلدان عديدة، بسبب طبيعة عمل أبيه الدبلوماسي. إذ تنقل من بنما إلى الولايات المتحدة، وسنتياغو دي تشيلي، ومونتيفيديو، وبوينس آيرس، وريو دي جانيرو، وجنيف.يعتبر أحد أهم الروائيين الأمريكيين اللاتينيين المعاصرين، وأحد أربعة شكلوا عماد صعود الرواية الأمريكية اللاتينية في القرن العشرين (إضافة إلى خوليو كوتاثر، وماريو بارغاس يوسا، وغابرييل غارسيا ماركيز).تتميز أعماله بنبرة نقدية حادة، وباعتبار الكتابة أداة تحليل اجتماعي وتاريخي وفني.نال العديد من الجوائز الأدبية في بلاده وخارجها، ففي المكسيك حصل على جائزة ألفونسو رييس عام ١٩٨٠، وعلى الجائزة الوطنية للآداب عام ١٩٨٤، ونال جائزة روميلو غاييغوس الدولية في فنزويلا عام ١٩٧٧. أما في إسبانيا فحصل على عدد كبير من الجوائز، أبرزها جائزة بوبليتيكا بريفي عام ١٩٦٧، وجائزة ثربانتس لسنة ١٩٨٧، وجائزة أمير استورياس للآداب عام ١٩٩٤. منحته الحكومة الفرنسية وسام جوقة الشرف عام ١٩٩٢.من أبرز أعماله:في الرواية«المنطقة الأكثر شفافية» (١٩٥٨)، «النوايا الطيبة» (١٩٥٩)، «موت أرتيميو كروث» (١٩٦٢)، «آورا» (١٩٦٢)، «ترّا نوسترا» (١٩٧٥)، «رأس هيدرا» (١٩٧٨)، «أسرة نائية» (١٩٨٠)، «الغرينغو العجوز» (١٩٨٥)، «كريستوبال نوناتو» (١٩٨٧)، «كونستانثا وروايات أخرى للعذارى» (١٩٨٩)، «الحملة» (١٩٩٠)، «شجرة البرتقال، أو دوائر الزمن» (١٩٩٣) «ديانا، أو الصيادة المتوحدة» (١٩٩٤)، «الحدود الزجاجية، رواية في تسع قصص» (١٩٩٣)، «سنوات مع لاورا دياث» (١٩٩٩)، «غريزة إينيس» (٢٠٠١)، «كرسي النسر» (٢٠٠٣).في القصة القصيرة«الأيام المقنّعة» (١٩٥٤)، «نشيد العميان» (١٩٦٤)، «ماءٍ محروق» (١٩٨٢).في المسرح: «كل القطط رمادية» (١٩٧٥)، «الأعور ملكاً» (١٩٧٠)، «أزهار أوركيديا تحت ضوء القمر» (١٩٨٢).في الدراسات: «باريس، ثورة أيار» (١٩٦٨)، «الرواية الإسبانوأمريكية الجديدة» (١٩٦٩)، «ثربانتس أو نقد القراءة» (١٩٧٦)، «عالم جديد شجاع: الملحمية، واليوتوبيا، والأسطورة في الرواية الإسبانوأمريكية» (١٩٩٠)، «جغرافية الرواية» (١٩٩٣)، «أزمنة مكسيكية جديدة» (١٩٩٤)، «هذا ما أؤمن به» (٢٠٠٢).

إلى خورخي بوستامانتي

-١-

فـــي مقصورة الدرجة الأولى، لرحلة شركة دلتا، من مدينة مكسيكو إلى نيويورك، مباشرة ودون توقف، كان يسافر دون ليوناردو باروسو. وكانت ترافقه امرأة باهرة الجمال، ذات شعر أسود، طويل ولامع. وكان الشعر يبدو كأنه لحية جذابة مشطورة، تشكل إطاراً يحيط بنجمة ذلك الوجه. وكان دون ليوناردو، ذو البضع والخمسين سنة، يشعر بالاعتزاز بمرافقتِه الأنثوية. أما هي، فكانت تجلس إلى جوار النافذة، ترى نفسها في تضاريس الأرض، في التنوع، والجمال، وبُعد المشهد الأرضي والسماء. لقد كان المتوددون إليها يقولون لها دوماً، إن لها رموشاً سحابية، وإن هناك مسحة ضبابية خفـــيفة في محيط عينيها. مغازلات المتوددين المكسيكيين أشبه بأغنية سيريناد.

وبينما ميتشلينا تنظر من السماء، كانت تتذكر مراحل المراهقة، عندما كان خاطبو ودّها يأتونها بغنائهم الليلي، ويكتبون لها رسائل تنضح بالطلاوة. رموش سحابية، ومسحة ضبابية خفـــيفة في محيط العينين. تنهدت. لا يمكن البقاء في سن الخامسة عشرة مدى الحياة. لماذا إذن يعاودها، فجأة، الحنين غير المرغوب لصباها، عندما كانت تذهب إلى حفلات الرقص، ويغازلها فتيان مجتمع العاصمة المترفـــون؟

دون ليوناردو يُفضل الجلوس في المقعد المجاور للممر. فعلى الرغم من اعتياده السفر بالطائرة، إلا أن فكرة وجوده محشوراً، في قلم من الألمنيوم، على ارتفاع ثلاثين ألف قدم، دون سند مرئي، ما زالت تستثير أعصابه. ولكنه كان سعيداً سعادة هائلة بالمقابل، لأن هذه الرحلة هي نتاج مبادرته.

فما إن تم إبرام اتفاقية التجارة الحرة، حتى بدأ دون ليوناردو بمناورات مكثفة، ليس من أجل النظر إلى هجرة العمالة المكسيكية إلى الولايات المتحدة، على أنها «خدمات»، بل «تجارة خارجية» أيضاً.

لقد أوضح رجل الأعمال والداعية الديناميكي، في واشنطن ومكسيكو، أن صادرات المكسيك الأساسية ليست المنتجات الزراعية أو الصناعية، ولا حتى رؤوس أموال، لدفع الدين الخارجي (الدين الأبدي)، وإنما قوة العمل. فنحن نصدّر عمالة أكثر مما نصدر إسمنتاً أو بندورة. وكانت لديه خطة، لتجنب تحول مسألة العمل إلى نزاع. وهي خطة بسيطة جداً: تجنب العبور من الحدود. تجنب اللاشرعية.

– سيواصل العمال المجيء – أوضح لوزير العمل روبرت رايش – سيأتون لأنكم بحاجة إليهم. وحتى لو فاض العمل عن الحاجة في المكسيك، فسوف تبقون بحاجة إلى عمال مكسيكيين.

فقال الوزير:

- ولكن، يجب أن يكونوا عمالاً شرعيين... العمال الشرعيون، مقبولون. أما غير الشرعيين فلا.

- لا يمكن الإيمان بالتجارة الحرة، وإغلاق الأبواب في الوقت نفسه أمام تدفق العمالة. هذا أشبه بإغلاقها في وجه الاستثمارات. ما الذي جرى لسحر سياسة السوق؟

- الواجب يفرض علينا حماية حدودنا - واصل رايش - هذه مسألة سياسية. فالجمهوريون يستغلون الحماسة المتصاعدة ضد المهاجرين.

- لا يمكن عسكرة الحدود - حك دون ليوناردو ذقنه بفتور، باحثاً هناك عن غمازة الحسن نفسها التي لدى كنته - إنها حدود طويلة جداً، قاحلة، نفوذة. لا يمكن لكم أن تكونوا مرنين عندما تحتاجون إلى العمال، ومتصلبين عندما لا تحتاجون إليهم.

وقال الوزير رايش:

- أنا أؤيد كل ما يضيف قيمة إلى الاقتصاد الأميركي. وبهذا فقط، سنضيف قيمة إلى اقتصاد العالم - أو العكس - ما الذي تقترحه حضرتك؟

وما اقترحَهُ دون ليوناردو صار واقعاً الآن، يسافر في الدرجة السياحية، اسمه ليساندرو تشافـيث، ويحاول النظر من النافذة الصغيرة، غير أن زميله الذي إلى اليمين، يحول دون ذلك وهو ينظر بإمعان إلى الغيوم، وكأنه يستعيد وطناً منسياً،

ويحجب النافذة بحواف قبعته القشية. وكان هناك، إلى يسار ليساندرو، عامل آخر، ينام وقبعته مدفوعة حتى قصبة أنفه. ليساندرو وحده هو الذي يسافر دون قبعة، وكان يمر بيده على شعره الأسود، الناعم، الأجعد، ويداعب شاربه الكث المشذب، ويفرك بين حين وآخر، رموشه الثخينة الزيتية.

عندما صعد إلى الطائرة، رأى، على الفور، رجل الأعمال الشهير ليوناردو باروسو، جالساً في الدرجة الأولى. وطفر قلب ليساندرو طفرة صغيرة. لقد تعرّف، في الجالسة إلى جانب باروسو، على فتاة تعامل معها في صباه، حين كان يذهب إلى الحفلات وصالات الرقص في لوماس، وبيدريغال، وبولانكو. إنها ميتشلينا لابوردي التي كان جميع الفتيان يرغبون في مراقصتها. كانوا يريدون في الواقع تجاوز الحدود قليلاً معها.

وكان الفتيان الآخرون يقولون:

- إنها من الأسر العريقة، ولكنها لا تملك أي ثروة. إياك والتجاوز معها. ستضطر إلى الزواج منها. ليس لديها دوطة.

دعاها ليساندرو إلى الرقص مرة، وهو لا يتذكر إذا ما كان قد قال لها، أم أنه فكر فقط، في أنهما كليهما فقير، وهذا أمر مشترك بينهما، وهما يدعيان إلى هذه الحفلات، لأنها من أسر راقية، ولأنه يذهب إلى مدرسة أبناء الأغنياء نفسها. ولكن أوجه الشبه بينهما أكبر من أوجه الاختلاف، ألا ترى هي ذلك؟

لا يتذكر بماذا ردت عليه ميتشيلينا. حتى إنه لا يتذكر إذا ما قال لها ذلك بصوت عالٍ، أم أنه فكر فـــيه فقط. ثم دعاها بعد ذلك آخرون إلى الرقص، ولم يرها منذ ذلك الحين، حتى اليوم.

لم يجرؤ على تحيتها. وكيف يمكن لها أن تتذكره؟ وماذا سيقول لها؟ أتتذكرين أننا تعارفنا، قبل إحدى عشرة سنة، في حفلة كاتشيتون كاسييّاس، ودعوتك إلى الرقص؟ هي لم تنظر إليه. أما دون ليوناردو ففعل، رفع عينيه عن قراءته لمجلة **فورتونا** التي أوردت حسابات دقيقة، لأكثر الرجال ثراء في المكسيك. ولحسن الحظ، استبعدوه منها مرة أخرى. فلا هو، ولا السياسيون الأثرياء، يظهرون في تلك القوائم مطلقاً. السياسيون لا يظهرون لأنه لا توجد أي شركة من شركاتهم مسجلة بأسمائهم، فهم يختبئون وراء طبقات بصل عديدة من الشركاء، والأسماء المستعارة، والمؤسسات... وقد قلدهم دون ليوناردو في ذلك. فكان من الصعب أن تنسب إليه الثروة التي كان يملكها فعلاً.

رفع بصره لأنه رأى، أو أحس، بأحد مختلف. منذ بدأ العمال المتعاقدون لأعمال الخدمات الصعود، هنأ دون ليوناردو، في أول الأمر، نفسه لنجاح مساعيه، ثم أقر بعد ذلك بانزعاجه، لرؤية مرور كل ذلك العدد من ذوي البشرة القاتمة، وقبعات القش الرخيصة، من مقصورة الدرجة الأولى. ولهذا السبب، توقف عن النظر إليهم. هناك طائرات أخرى لها مدخلان،

أحدهما في الأمام، وآخر في الخلف. فمن المزعج، إلى حد ما، دفع ثمن تذكرة الدرجة الأولى، والاضطرار إلى تحمل مرور أناس سيئي الملبس، سيئي النظافة...

شيء ما أجبره على النظر. إنه مرور ليساندرو تشافـيث الذي لا يعتمر قبعة، ويبدو أنه من طبقة أخرى، وله بروفـيل مختلف، وهو يأتي مستعداً لبرد كانون الأول في نيويورك. أما الآخرون فـيأتون بملابس من نسيج رقيق. لم ينبههم أحد إلى أن الجو بارد في نيويورك. كان ليساندرو يرتدي سترة ذات مربعات سوداء وحمراء، من الصوف، ولها سحاب يصل حتى الحنجرة. واصل دون ليوناردو قراءة «**فورتونا**». وشربت ميتشيلينا لابوردي دي باروسو كأس الميموزا ببطء.

قرر ليساندرو تشافـيث إغماض عينيه خلال بقية الرحلة. طلب ألا يقدموا له وجبة الطعام، وأن يتركوه نائماً. نظرت إليه المضيفة بحيرة. هذا أمر يطلبونه في الدرجة الأولى فقط. أرادت أن تكون لطيفة: - «بيلاف الأرز» الذي نقدمه لذيذ. الواقع أن سؤالاً ملحاً، مثل بعوضة فولاذية، كان يثقب جبهة ليساندرو: ما الذي أفعله أنا هنا؟ ما كان علي أن أقدم على فعل هذا. فهذا لستُ أنا.

فأناه – الذي لم يكن هناك – كانت له طموحات أخرى، وقد استطاعت أسرته تشجيع تلك الطموحات، حتى مرحلة الدراسة الثانوية. فمصنع المياه الغازية الذي يملكه أبوه، كان يزدهر،

لأن المكسيك بلاد حارة، تُستهلك المرطبات فـيها على الدوام. وكلما كان هناك مزيد من المرطبات، كانت الفرص أكبر بإرسال أليساندرو إلى مدارس خاصة، والحصول على قرض من أجل المنزل في رابية كواوهتيموك، ودفع أقساط الشفروليه الشهرية، والحفاظ على أسطول شاحنات التوزيع. وكذلك الذهاب مرة في السنة إلى هوستن، ولو لمدة يومين فقط، والمرور على محلات «الشوبينغ مول»، والقول إنهم قد دخلوا المستشفى هناك، لإجراء فحوصهم الطبية السنوية... وكان ليساندرو يُقابل بالاستلطاف، ويذهب إلى الحفلات، ويقرأ غارسيا ماركيز، وبشيء من الحظ، سيتوقف في السنة القادمة عن الذهاب في الحافلة المدرسية، وستكون له سيارته الفوكسفاغن الخاصة...

لم يشأ النظر إلى أسفل، لأنه كان يخشى اكتشاف شيء رهيب، ربما لا يمكن رؤيته إلا من السماء؛ لم تعد هناك بلاد، لم تعد هناك مكسيك، فالبلاد كانت خيالاً أو أنها، بكلمة أدق، حلم تحافظ عليه حفنة من المجانين الذين صدقوا يوماً بوجود المكسيك... لا يمكن لأسرة مثل أسرته أن تتحمل عشرين سنة من الأزمات، والديون، والإفلاس، والآمال المتجددة، لمجرد الوقوع مجدداً في الأزمة، كل ست سنوات، وفـي كل مرة أكثر من السابق، الفقر، البطالة... لم يعد بمقدور أبيه دفع ديونه بالدولار، لتجديد المصنع. وتركّز بيع المرطبات، وترسّخ في يد شركتين احتكاريتين. فكان عليهم أن يبيعوا المصنع بسعر بخس،

ويخرجوا من السوق. وما هو العمل الذي سأقوم به الآن، هكذا كان يتساءل أبوه وهو يمشي كشبح في الشقة، في حي نارفارتي، عندما لم يعد بالإمكان دفع قرض منزل كواوهتيموك، وعندما لم يعد ممكناً دفع أقساط الشفروليه الشهرية، وعندما اضطرت أمه لأن تعلق على النافذة إعلاناً يقول **نقوم بأعمال الخياطة**، وعندما تبخرت المدخرات، أولاً بسبب التضخم النقدي في العام ٨٥، ثم بعد ذلك في تخفــيض قيمة العملة عام ٩٥. وبسبب الديون المتراكمة التي لا يمكن تسديدها، انتهت المدارس الخاصة، وأحلام امتلاك سيارة خاصة. عمك روبرتو يتمتع بصوت جيد، وهو يكسب بعض البيزوات من الغناء وعزف الجيتار عند إحدى النواصي، ولكننا لم ننحدر إلى هذا الحد بعد يا ليساندرو، ولسنا مضطرين بعد إلى عرض أنفسنا لعمل مؤقت مأجور، في ساحة الكاتدرائية، ونحن نحمل عدّتنا ولوحة تقول **عامل تمديدات صحية، نجار، ميكانيكي، كهربائي، بنّاء.** لم ننحدر بعد إلى الحد الذي بلغه أبناء خدمنا السابقين الذين اضطروا إلى الذهاب إلى الشارع، فقطعوا دراستهم، وارتدوا ثياب المهرجين، وطلوا وجوههم بالأبيض، ليقذفوا كرات في الهواء، عند تقاطع شارعي إنسورخينتس وريفورما. هل تتذكر ابن روسيتا الذي كنتَ تلعب معه، عندما ولد هنا في البيت؟ حسن، أعني في البيت الذي كنا نملكه من قبل، في ريو ناثاس، لقد مات. أظن أنه كان يدعى ليساندرو، مثلك، طبعاً، لقد أطلقوا

عليه هذا الاسم لكي تكون عرابه. وقد اضطر إلى مغادرة بيته، وهو في السابعة عشرة، وتحول إلى آكل نار، في تقاطعات الشوارع. رسم دمعتين سوداوين على وجهه، وابتلع النار طوال سنة، مالئاً فمه بجرعات من البنزين، مُدخلاً مُشاقة قنب مشتعلة في حلقه. وبقي على تلك الحال، إلى أن تلف دماغه، يا ليساندرو، تخرب دماغه، تحول إلى ما يشبه عجينة الدقيق، مع أنه كان أكبر أفراد الأسرة. كان الأمل... الصغار منهم الآن، يبيعون كلينكس، تشكلس. أخبرتني خادمتنا روسيتا - أنت تتذكرها - أن النضال مع الصغار هو من أجل الحيلولة دون أن يبدؤوا باستنشاق مطاط محروق، لكي يدوخوا، من العمل في الشارع، مع عصابات أطفال دون سقف يتنافسون مع الكلاب الشاردة في العدد، والجوع، والهجران. ليساندرو: ماذا ستقول أم لأطفال يخرجون إلى الشارع، لكي يقيموا أودها، لكي يجيئوا بشيء إلى البيت؟، ليساندرو، انظر إلى مدينتك تغرق في نسيان ما كانته. ولكن، قبل كل شيء، في نسيان ما أرادت أن تكونه. لا حق لي بشيء، قال ليساندرو تشافـيث ذلك لنفسه في أحد الأيام. يجب أن أنضم إلى تضحية الجميع، إلى البلد الأضحية، سيئ الحكم، الفاسد، غير المبالي. يجب أن أنسى أحلامي، أن أكسب شيئاً ما، أن أخدم رؤسائي، أن أعمل ما يمكن أن يسبب لي أقل قدر من المذلة، عملاً شريفاً، عملاً ينقذني من الإحساس بالازدراء تجاه والديّ، من الحقد على بلدي، من الخجل من

نفسي، ومن سخرية أصدقائي كذلك. أمضيت سنوات وأنا أحاول جمع أطراف الخيوط، أحاول نسيان أوهام الماضي، التخلص من طموحات المستقبل، العدوى بالقدرية، الحماية من الضغينة... ذليل عزيز النفس يعمل بعناده، للخروج قُدماً، بالرغم من كل شيء: ليساندرو تشافــيث، سبع وعشرون سنة، أوهام ضائعة. والآن فرصة جديدة، الذهاب إلى نيويورك كعامل خدمات، دون معرفة أن دون ليوناردو باروسو كان قد قال:

- لماذا الجميع سمر البشرة جداً؟

- إنهم الأكثرية يا دون ليوناردو. البلاد لا تعطي أفضل من ذلك.

- فلنرَ إذن إن كانوا يجدون لي واحداً على الأقل، له وجه أقرب إلى الناس المحترمين، وجه أكثر كريولي، فإنني سأرضى. هذه هي الرحلة الأولى إلى نيويورك. أي نوع من الانطباعات سنخلّفه يا رفــيقي؟

والآن، عندما مرّ ليساندرو من مقصورة الدرجة الأولى، نظر إليه دون ليوناردو، ولم يتصور أنه أحد العمال المتعاقدين، وتمنى لو يكون الجميع مثل هذا الشاب، العامل الذي له وجه أناس محترمين، ذي التقاطيع المرهفة، ولكن شاربه مثل شارب ماريانتشي جيد. إنه مختلف. وأمعن المليونير النظر، إنه شاب مختلف، ألا ترين ذلك يا ميتشي؟ غير أن كنته وعشيقته كانت قد نامت.

-٢-

عندما حطوا في مطار جون فوستر كينديي، وسط عاصفة ثلجية، أراد باروسو أن ينزل بأسرع ما يمكن. لكن ميتشيلين كانت متكورة إلى جانب النافذة، متدثرة بلحاف، ورأسها يستريح على وسادة. تَصنّع التلكؤ. دعهم ينزلوا جميعهم، طلبت من دون ليوناردو.

كان يريد النزول، ليسلّم على المسؤولين عن جمع العمال المكسيكيين المتعاقدين، لتنظيف عدة بنايات في منهاتن، خلال عطلة نهاية الأسبوع، حين تكون المكاتب خاوية. فعقد الخدمات يوضح ذلك تماماً: سيأتون من مكسيكو إلى نيويورك، في أيام الجمعة ليلاً، ليعملوا يومي السبت والأحد، ثم يرجعون إلى مدينة مكسيكو يوم الأحد ليلاً.

– مع كل التكاليف، وتذاكر السفر بالطائرة، يظلون أرخص من التعاقد مع عمال من هنا، في مانهاتن. إننا نوفر ما بين ٢٥ و٣٠ بالمئة – شرح له شريكه الغرينغو.

ولكنه نسي أن يخبر المكسيكيين بأن الجو بارد. ولهذا أراد دون ليوناردو، المعجب بإنسانيته بالذات، أن ينزل أولاً لكي ينبه إلى أن هؤلاء الشبان يحتاجون إلى سترات، بطانيات، شيء ما.

بدؤوا بالمرور. والحقيقة أنه كان بينهم من كل الأصناف. ضاعف دون ليوناردو اعتزازه الإنساني، وأضاف إليه الآن،

اعتزازه القومي. فالبلاد تعاني ضائقة شديدة، بعد أن ظننا أنها قد استقرت. وحلمنا بأننا صرنا من العالم الأول، فاستيقظنا لنجد أنفسنا، مرة أخرى، في العالم الثالث. هذا وقت بذل مزيد من الجهد من أجل المكسيك، يجب عدم القنوط. لا بد من إيجاد حلول جديدة. مثل هذا الحل. هناك من كل شيء، ليس فقط الشاب ذو الشارب وسترة المربعات، هناك آخرون أيضاً لم يكن رجل الأعمال قد أمعن النظر إليهم، لأن صورة «الظهر المبلول»[١] النمطية، صورة الفلاح ذي القبعة والشارب الخفيف، طغت على كل شيء. لقد بدأ الآن بتمييزهم، بملاحظة تفردهم، بإعادة شخصيتهم إليهم؛ كرب عمل، مثلما هو منذ أربعين سنة من التعامل مع عمال، مدراء، مهنيين، موظفين، جميعهم في خدمته، دوماً في خدمته، لا أحد فوقه البتّة، هذا هو شعار استقلاليته؛ لا أحد، ولا حتى رئيس الجمهورية، فوق ليوناردو باروسو، أو مثلما كان يقول لشركائه الأمريكيين:

–I am my own man. I'm just like you, a self-made man. I don't owe nobody nothing.[١]

---

(١) الظهر المبلول: تسمية تُطلق على المكسيكيين الذين يجتازون نهر ريو غراندي، للدخول بصورة غير شرعية إلى الولايات المتحدة، طلباً للعمل.

(١) أنا ملك نفسي، أنا مثلكم بالضبط، صنعت نفسي بنفسي. لستُ مديناً لأحد بشيء.

لم يكن ينكر هذا التميز على أحد. ففضلاً عن الشاب الوسيم ذي الشارب، رغب باروسو في أن يميز الشبان الريفـــيين، ممن يلبسون بطريقة معينة، ومن هم أكثر تخلفاً، ولكنهم في الوقت نفسه أكثر لفتاً للأنظار، وأكثر رمادية أحياناً، من تشيلانغيي مدينة مكسيكو، وبين هؤلاء، بدأ يميز عن القطيع، الشبان الذين كانوا يُشاهدون، قبل سنتين أو ثلاث سنوات، في أثناء فورة الملح، وهم يأكلون في مطاعم دينيس، أو يقضون إجازات في بويرتو بايّارتا، أو في عروض السينما في **المدينة الهامشية**. كان يميزهم لأنهم الأشد حزناً، وإن كانوا الأقل خضوعاً أيضاً، ممن يتساءلون مثل ليساندرو تشافــيث: ما الذي أفعله هنا؟، أنا لا أنتمي إلى هنا. بلى، إنك تنتمي، كان بود بروسو أن يجيبهم، إنك تنتمي إلى حد لو زحفت معه، في المكسيك، على ركبتيك، إلى وادي سيدتنا عذراء غوادالوبي، فلن تكسب، ولو بمعجزة، مئة دولار مقابل ثلاثة أيام عمل. اربعمئة دولار في الشهر، ثلاثة آلاف بيزو شهرياً، وهذا ما لا تمنحك إياه السيدة العذراء نفسها.

نظر إليهم على أنهم من ممتلكاته الشخصية، مصدر فخره، أبناؤه، نتاج فكرته.

كانت ميتشيلين لا تزال مغمضة العينين. لم تشأ رؤية مرور العمال. كانوا شباباً. وهم الآن مهلهلون. ولكنها متعبة من كثرة السفر مع ليوناردو. لقد أعجبها ذلك في البدء، منحها شيئاً من

التميز، وكلفها استنكار البعض، واستسلام آخرين، وتفهم أسرتها، غير المستاءة؛ فدون ليوناردو يوفر لهم، في نهاية المطاف، العيش المريح، ولا سيما في فترات الأزمات هذه. ما الذي كان سيحل بهم لولا ميتشيلينا؟ ما الذي كان سيحل بالجدة دونيا ثارينا التي تجاوزت التسعين، وما زالت تجمع أشياء غريبة في علبها الكرتونية، موقنة أن بورفـــيريو دياث لا يزال رئيس الجمهورية؟ وما الذي كان سيحل بأبيها الدبلوماسي السابق الذي يعرف أنساب كل أنبذة بورغونيا، وقلاع لويرا؟ وما الذي سيحل بأمها التي تحتاج الكثير من وسائل الراحة، ونقوداً لتفعل الشيء الوحيد الذي يروقها عمله حقاً: عدم فتح فمها مطلقاً، ولو من أجل الأكل، لأنها تخجل من عمل ذلك أمام الملأ؟ وما الذي سيحل بأخوتها المتكلين على كرم ليوناردو باروسو، على خبطة موفقة من هنا، وعلى رخصة من هناك، وعلى هذه الصفقة الصغيرة، أو تلك الوكالة...؟ ولكنها متعبة الآن. لا تريد فتح عينيها. لا تريد أن تلتقيا بعيني أي رجل شاب. واجبها هو مع ليوناردو. ولا تريد، قبل كل شيء، أن تفكر في زوجها، ابن ليوناردو الذي لا تفتقده، والذي كان سعيداً في عزلته في المزرعة، والذي لا يجرمها في شيء، في أنها تمضي مع أبيه...

بدأت ميتشيلينا تخشى نظرة رجل آخر.

أعطوهم بطانياتهم التي استخدموها، بحكم العادة المتأصلة، كعباءات البونتشو، وأصعدوهم إلى حافلات. وكان البرد الذي أحسوا به، من مخرج المطار حتى الصعود إلى الحافلة، كافياً لأن يشعروا بالامتنان للسترة الاحتياطية، ولفاع العنق العارض، ودفء الأجساد الأخرى. كانوا يبحثون بعضهم عن بعض، ويتوافقون اجتماعياً. وكان لا بد من التقصي، من أجل تحديد الرفيق الذي يمكن له أن يشبه كل واحد منهم، ذي التفكير المماثل، الأرضية المشتركة. بالنسبة للفلاحين، لأبناء المنطقة نفسها، هناك على الدوام جسر لفظي، ولكن شرطهم ذاك كان نوعاً من الشكلانية الرسمية المغرقة في القدم. أشكال من اللياقة لا تتوصل إلى إخفاء الحماية، وإن كان الأمر لا يخلو أبداً من الحمقى الذين يتعاملون بدونية مع من هم أكثر بؤساً منهم، فيكلمونهم دون احترام، ويوجهون إليهم الأوامر، ويؤنبونهم. ولكن هذا مستحيل هنا، الآن. فجميعهم في ضيق، والمحنة تفرض المساواة.

هناك بينهم، من ليس لهم وجه ولا زي القرويين، يفرض على نفسه أيضاً، حتى الآن، تحفظاً مُتجهماً، إرادة عدم تقبل أنهم هناك، وأن الأحوال سيئة في المكسيك، في بيوتهم، وأنه لا مفر لهم من الإذعان أمام ثلاثة الآلاف بيزو شهرياً، مقابل يومي عمل كل أسبوع، في نيويورك، مدينة الغربة التي لا يمتون لها بصلة. مدينة غريبة تماماً، لا حاجة فيها إلى العلاقات

الحميمية، والمجازفة بالبوح، والسخرية، وإساءة الفهم في تعامل المرء مع أبناء بلده.

لهذا كان هناك صمت بارد، كبرودة الهواء، يجوب الحافلة من صف إلى صف، حيث يجلس ثلاثة وتسعون عاملاً مكسيكياً. وتخيل ليساندرو تشافيث أنهم جميعهم، في الواقع، وإن كانت لديهم أشياء يروونها، كانوا بكماً بسبب الثلج، بسبب الصمت الذي يفرضه الثلج، بسبب مطر النجوم البيضاء الصامت، تلك النجوم التي تسقط دون أن تحدث ضجة، لتذوب في ما تلامسه، وتعود إلى الماء الذي لا لون له. كيف هي المدينة في ما وراء حجابها الثلجي؟ ليساندرو يكاد لا يميز بعض المعالم العمرانية المعروفة، بفضل السينما، أشباح المدينة، هيئات ضبابية وثلجية، لناطحات سحاب وجسور، لمتاجر وأرصفة...

دخلوا متعبين، مسرعين، إلى قاعة الرياضة المملوءة بالأسرة الفردية. ألقوا بحزمهم على أسرة الجيش الأمريكي التي اشتراها باروسو من متجر لتجهيزات الجيش والبحرية. انتقلوا إلى المائدة المفتوحة التي أقيمت في أحد الأركان. وكانت الحمامات هناك في الخلف. بعضهم بدؤوا يتآلفون، يتبادلون المزاح، بل إن اثنين أو ثلاثة غنوا بأصوات ناشزة أغنية «**الزورق الذهبي**»، فأسكتهم الآخرون، لأنهم يريدون أن يناموا، فالنهار يبدأ في الخامسة صباحاً، أنا سأذهب إلى المرفأ حيث يوجد الزورق الذهبي الذي سيحملني.

السبت في السادسة صباحاً: لقد صار بالإمكان الآن الإحساس بالمدينة، شمها، لمسها، أما رؤيتها فليست ممكنة بعد، فالضباب المثقل بالثلج يجعلها غير مرئية. لكن رائحة منهاتن، تدخل مثل مدية حديدية، من منخري ليساندرو تشافيث وفمه. إنه دخان، دخان حامضي ولاذع من المجاري والقطارات تحت الأرضية، من شاحنات حمولة ضخمة لها اثنتا عشرة عجلة، من عوادم غاز وشباك حديدية على مستوى الأرصفة الصلبة واللامعة، كأنها أرضية من جلد مصقول. في كل شارع تنفتح الأفواه الحديدية لتبتلع صناديق، ومزيداً من صناديق الفاكهة، الخضراوات، المعلبات، البيرة، المياه الغازية التي تذكره بأبيه، وقد صار فجأة غريباً في مدينته مكسيكو، مثلما هو ابنه في مدينة نيويورك. كلاهما يتساءل: ما الذي نفعله هنا... ترانا ولدنا لعمل هذا... ألم يكن قدرنا مختلفاً، ما الذي جرى...؟

– أناس محترمون يا ليساندرو. لا يمكن لأحد أن يقول لك عكس هذا. لقد كنا أناساً محترمين على الدوام. فعلنا كل شيء باستقامة. لم نخرق أي قانون. ألهذا السبب ساءت أمورنا؟ ألأننا أناس محترمون؟ ألأننا عشنا كطبقة متوسطة نزيهة؟ لماذا تسير أمورنا إلى الأسوأ دوماً؟ لماذا لا تنتهي هذه القصة، أبداً، نهاية سعيدة يا بني؟

يتذكر من نيويورك أباه التائه في شقة، في نارفارتي، كما لو أنه يسير في صحراء، دون ملجأ، دون ماء، دون علامات،

محوّلاً الشقة إلى صحراء حيرته، متشبثاً بدوامة أحداث غير متوقعة، لا تفسير لها، كما لو أن البلاد بأسرها قد جمحت خارجة عن مسارها، طافرة، هاربة من نفسها، هاربة وسط صراخ وإطلاق رصاص، من سجن النظام، من التوقعات المسبقة، من المؤسساتية، كما تقول الصحف، من المؤسساتية. أين هو الآن، ما هو، وما نفعه؟ كان ليساندرو يرى جثثاً، رجالاً مقتولين، موظفــين فاسدين، مكايد لانهائية، لا يمكن فهمها، صراعات حتى الموت من أجل السلطة، المال، النساء، المخنثين... موت، بؤس، تراجيديا. لقد سقط أبوه في هذه الدوامة التي لا يمكن تفسيرها، مستسلما إزاء الفوضى، عاجزاً عن الخروج للنضال، للعمل. معتمداً على ابنه مثلما كان هو في طفولته، يعتمد على أبيه. كم يدفعون لأمه مقابل خياطة ملابس ممزقة، مقابل حياكتها الأبدية لشال أو كنزة؟

عسى أن تنزل على مدينة مكسيكو أيضاً ستارة من الثلج، تغطي كل شيء، تخبئ الأحقاد، والأسئلة التي بلا أجوبة، وحس الخداع الجماعي. فالحال ليست نفسها عند النظر إلى غبار مكسيكو الملتهب، وقناع شمس لا تكل، والإذعان لفقدان المدينة، والإعجاب بالتاج الثلجي الذي يكلل جدران نيويورك الرمادية وشوارعها السوداء، والإحساس بدفعة حيوية: نيويورك تبني نفسها انطلاقاً من تفككها، من قدرها المحتوم كمدينة للجميع، مدينة مندفعة، لا تعرف الكلل، قاسية، مدينة قاتلة للعالم بأسره،

حيث يمكن لنا جميعنا أن نتعارف، وأن نرى أسوء ما فــينا، وأفضل ما لدينا...

هذه هي العمارة. رفض ليساندرو تشافــيث أن ينظر كفلاح ساذج إلى أعالي الأربعين طابقاً. وتساءل فقط، كيف سينظفون زجاج النوافذ وسط عاصفة ثلجية تتمكن أحياناً من إذابة هيئة البناء نفسه، كما لو أن ناطحة السحاب مصنوعة أيضاً من جليد. إنها وهم. عندما يضيء النهار، سيكون بالإمكان رؤية بناء كامل من الزجاج، دون أي مواد ليست شفافة: علبة موسيقى هائلة مصنوعة من مرايا، ملتحمة بواسطة زجاجها نفسه المقوى بالكروم، بالنيكل. قصر من أوراق لعب زجاجية، لعبة متاهات مطلية بالقصدير.

جاؤوا لتنظيف واجهات البناء من الداخل. هكذا أوضحوا لهم حين جمعوهم في الردهة الداخلية التي كانت أشبه بفناء إنارة رمادي، تنتصب من جهاته الست، مثل جروف شاهقة، ستة جدران من الزجاج الخالص. حتى المصعدان من الزجاج. أربعون في ست: مئتان وستون واجهة زجاجية داخلية، لمبنى المكاتب الذي يعيش حياته السرية والشفافة في الوقت نفسه، حول ردهة مدنية، بئر محفورة في قلب القصر اللعبة، حلم طفل على شاطئ البحر يبني قلعة. والفرق الوحيد هو أنهم قدموا له زجاجاً بدل الرمل.

السقالات كانت تنتظرهم، ليرفعوها إلى مختلف الطوابق في مبنى يأخذ بالضيق، عند القمة، بصورة هرمية، وكأنه أحد أهرامات تيوتيهواكان، مبني من زجاج. بدأ العمال بالصعود حتى الطابق العاشر، العشرين، الثلاثين؛ لكي يبدؤوا من هناك بتنظيف الزجاج، والنزول عشرة طوابق فعشرة، مسلحين بأدوات تنظيف يدوية، واسطوانات على ظهورهم، مثل عبوات أكسجين مكتشف تحت مائي. صعد ليساندرو إلى سماء الزجاج، ولكنه كان يشعر بالغرق، يشعر كما لو أنه ينزل إلى بحر زجاجي عجيب، في عالم مجهول، وساقاه إلى أعلى...

– هل مواد التنظيف مضمونة وآمنة؟ – استفسر ليوناردو باروسو.

– إنها آمنة جداً. فهي تتحلل حيوياً. ما إن تُستخدم، حتى تتحلل إلى عناصر غير مضرة – أجابه شركاؤه اليانكيون.

– هذا أنفع لكم. لقد أدخلت بنداً في العقد، أحملكم فيه مسؤولية الأمراض التي تنشأ عن العمل. فالمرء يموت هنا بالسرطان، لمجرد تنفسه الهواء.

– آه، يا دون ليوناردو – ضحك اليانكيون – أنت أكثر تشدداً منا.

– Welcome a tough Mexican – اختتم رجل الأعمال.

– You're one tough hombre![١] – احتفى الغرينغيون.

---

(١) السطران بالإنكليزية في الأصل:

– أهلاً بكم عند المتشدد المكسيكي.

– أنت أكثر تشدداً منا يا رجل.

-٣-

كانت قد مشت، بإحساس بالامتنان، من شقتها في الشارع السابع والستين شرقاً، إلى البناء القائم في بارك أفــينو. لقد أمضت ليلة الجمعة محبوسة في شقتها. أمرت البواب بألا يسمح لأحد بالدخول، خاصة زوجها السابق الذي سمعت صوته، طوال الليل، يلح في الهاتف، متكلماً إلى المجيب الآلي، طالباً منها أن تستقبله: اسمعي يا حبي. دعيني أتكلم. لقد تسرعنا، كان علينا أن نفكر في الأمر بصورة أفضل، أن ننتظر إلى أن تندمل الجراح. أنت تعرفــين أنني لا أريد إلحاق الأذى بك، ولكن الحياة تتعقد أحياناً. وما كنتُ أعرفه دوماً، حتى في أسوأ اللحظات، هو أنك لي، وأنني أستطيع العودة إليك. أنت ستتفهمين، ستغفرين، لأنه لو كان الوضع مقلوباً، لكنتُ غفرت لكِ...

- لا! – صرخت المرأة اليائسة، في الهاتف، متوجهة إلى صوت زوجها السابق، غير المرئي – لا! كنتَ ستتقاضى الثمن بقسوة، بأنانية، وكنتَ ستستعبدني بمغفرتك...

أمضت ليلة مخيفة، ذاهبة وآيبة في الشقة الصغيرة، إنما حسنة الترتيب، بل المترفة في بعض التفاصيل، ذاهبة وآيبة بين النافذة الواسعة ذات الستارة القماشية المفتوحة، من أجل أن تنصرف إلى مشهد الثلج المترف، وعين السيكلوب الشوهاء التي تحمي الناس من الترصد الأبدي، من تهديد المدينة المؤرق. كوة

الباب الزجاجية تتيح لها رؤية الممر، تتيح لها أن ترى دون أن تُرى، ولكنها رؤية عالم مشوه، عالم تحت بحري. عين عمياء لسمكة قرش منهوكة. غير أنها لا تستطيع منح نفسها ترف الاستراحة. ستغرق، ستذهب إلى أعماق البحر. أسماك القرش يجب أن تظل في حركة أبدية، لكي تبقى على قيد الحياة.

لم تشعر بالخوف في صباح اليوم التالي. كانت العاصفة قد توقفت، وكانت المدينة مغطاة بالبياض، وكأنها تبرجت لحفلة. ما زالت هناك ثلاثة أسابيع لأعياد الميلاد، وكل شيء يتجمل، كل شيء يغص بالأنوار، يلمع مثل مرآة عظيمة. زوجها لا يستيقظ أبداً قبل الساعة التاسعة. وكانت الساعة السابعة، عندما خرجت لتذهب مشياً إلى المكتب. أحست بالامتنان لأن عطلة نهاية الأسبوع هذه، قدمت لها فرصة الانزواء للعمل وحدها، إعادة ترتيب الأوراق، إملاء تعليمات. كل ذلك دون تلقي مكالمات هاتفــية، ودون فكسات، ودون مزاح الزملاء، ودون طقوس المكتب النيويوركي المعهودة، والاضطرار لأن تكون غير مبالية ومرحة في الوقت نفسه، أن تكون حكيمة التصرف: الدعابة جاهزة وفورية، على الشفتين، ومعرفة قطع المحادثات، والمكالمات الهاتفــية بحزم، وعدم التلامس أبداً، وخاصة عدم الملامسة الجسدية، لا عناق مطلقاً، ولا حتى قبلة اجتماعية على الخد. الأجساد متباعدة، والنظرات متحاشاة... يا للروعة؛ لن يعثر عليها زوجها هنا. فليست لديه فكرة... سيصيبه الجنون وهو يحاول الاتصال بها، وفــي محاولة التسلل إلى الشقة...

امرأة تشعر بأنها حرة هذا الصباح. لقد تصدت للعالم الخارجي. فزوجها، وهو الآن خارجي عنها، طُرد من دخيلتها، الجسدية والعاطفـــية. كانت تتصدى للحشود التي تبتلعها كل صباح، وهي تمشي ذاهبة إلى عملها، فتجعلها تشعر بأنها جزء من القطيع، وغير ذات قيمة فردية، مجردة من الأهمية؛ ألا يفعل مئات الأشخاص، ممن يجتازون في أي ساعة من ساعات الصباح، ذلك الجزء من جادة بارك، بين الشارع ٦٧ والشارع ٦٦، شيئاً بأهمية ما تفعله هي، أو أكثر أهمية منه، أو ربما ضئيل القيمة مثلها، أو أقل منها...؟

لم تكن هناك وجوه سعيدة.

لم تكن هناك وجوه فخورة بما تفعله.

لم تكن هناك وجوه راضية عن وظيفتها.

لأن الوجه يعمل أيضاً، يغمز، يومئ، يُظهر العينين بيضاوين، يقوم بتكشيرات رعب متصنع، ذهول حقيقي، تردد، عدم اهتمام، استهزاء، سخرية، تسلط: ونادراً، راحت تمشي بسرعة، مستمتعة بعزلة المدينة المغطاة بالثلج، نادراً ما تُظهر، أو يُظهر لها الآخرون، الوجه الحقيقي، العفوي، دون قناع الإيماءات المدروسة، لإرضاء الآخرين، لإقناعهم، إخافتهم، فرض الاحترام عليهم، مشاطرتهم المكايد...

وحيدة، منيعة، سيدة نفسها، مسيطرة على كل أجزاء جسدها وروحها، من الداخل والخارج، متحدة، كاملة. الصباح البارد،

والوحدة، والخطوات الواثقة، الرشيقة، الخاصة بها، منحتها كل هذا في الطريق، بين شقتها ومكتبها.

وجدت المكتب ممتلئاً بعمال. لقد نسيت. ضحكت من نفسها. لقد اختارت، للبقاء وحدها، اليوم الذي سيجرون فيه تنظيف الزجاج الداخلي للمبنى. لقد أعلنوا ذلك منذ بعض الوقت. ولكنها نسيت. صعدت باسمة إلى الطابق الأخير، دون أن تنتظر إلى أحد، مثل عصفور يخلط بين قفصه وحريته. سارت في ممر الطابق الأربعين – جدران من الزجاج، أبواب من بلور، تعيش معلقة في الهواء، حتى الأرضية من زجاج داكن، فقد كان المهندس طاغية، منع فرش السجاد في عمله الزجاجي الباهر – . دخلت إلى مكتبها القائم بين الممر الزجاجي والفناء الداخلي. لم تكن للمكتب إطلالة على الشارع. ولم يكن يتسرب إليه هواء الشارع الملوث. وإنما هواء تكييف خالص. فالبناء مختوم، معزول، مثلما تريد هي أن تشعر بنفسها اليوم. الباب يؤدي إلى الممر. ولكنّ كل الجدار الزجاجي يطل على الفناء، وأحياناً يروقها أن تنحدر نظرتها أربعين طابقاً، متحولة، في الطريق، إلى ندفة ثلج، ريشة، فراشة.

زجاج يطل على الممر. وزجاج في الجانبين. أي أن المكتبين الملاصقين لمكتبها كانا شفافين أيضاً، مما يضطر زملاءها إلى الحفاظ على شيء من الحذر في عاداتهم الجسدية، ولكن مع إبقائهم، مع ذلك، على قدر لا بأس به من تلقائية العادات. فخلع

الأحذية، ووضع القدمين فوق المنضدة، كان مسموحاً به للجميع. ولكن، يمكن للرجال أن يحكوا آباطهم وما بين سيقانهم، أما النساء فلا. غير أنه يمكن للنساء أن ينظرن في المرآة ويصلحن مكياجهن. أما الرجال – ما عدا بعض الاستثناءات – فلا.

-٤-

أصعدوا ليساندرو تشافيث، وحيداً على السقالة، حتى أعلى طابق. كانوا قد سألوهم جميعاً إذا ما كانوا يصابون بالدوار. وتذكر هو أنه يعاني من ذلك أحياناً. ففي إحدى المرات، وبينما هو في عجلة الحظ الدوارة، في أحد المهرجانات، راودته رغبة في إلقاء نفسه في الفراغ، ولكنه صمت.

في البدء، وهو مشغول في ترتيب خرقه وأدوات التنظيف، ومشغول قبل كل شيء، في تأمين وضع مريح لنفسه، لم يرها، لم يتطلع نحو الداخل. فقد كان هدفه هو الزجاج. ومن المفترض أن أحداً لا يذهب إلى العمل يوم السبت.

رأته هي أولاً، ولم توله اهتماماً. رأته دون أن تراه. رأته في الحالة نفسها التي يُرى أو لا يُرى فيها الأشخاص الذين يتصادف وجودهم حين ندخل مصعداً، أو نركب حافلة، أو نجلس على مقعد في صالة سينما. ابتسمت هي. عملها كمديرة تنفيذية، في شركة إعلان، يضطرها إلى ركوب طائرات، للتحدث إلى زبائن في بلاد لها حجم الكون، مثلما هي USA. لم

تكن تخشى شيئاً مثل زميل مهذار، في المقعد المجاور، من أولئك الذين يروون لكِ همومهم، ويحدثونك عن مهنتهم، وعن النقود التي يكسبونها، وينتهون، بعد ثلاث كؤوس من «بلودي ماريز» ، بوضع أيديهم على ركبتيكِ. عادت تبتسم. كانت قد نامت في مرات كثيرة بوجود غرباء مجهولين إلى جانبها، كل منهم ملتف ببطانيته المقدمة من الطائرة، كعشاق عذريين...

عندما التقت عينا ليساندرو بعيني أودريّ، حيّته هي بإحناء رأسها، مثلما تحيي، تهذباً، نادلاً في مطعم، بقدر أقل من الانفتاح الذي تحيي به بواب عمارة سكنية... كان ليساندرو قد نظف جيداً النافذة الأولى، نافذة مكتب أودريّ. وكلما نزع عنها طبقة رقيقة من الغبار والرماد، كانت هي تظهر، بعيدة وضبابية في البدء، ثم آخذة بالاقتراب بعد ذلك،... شيئاً فشيئاً، بالاقتراب دون أن تتحرك، بفضل نظافة الزجاج المتنامية. بدا ذلك أشبه بضبط بؤرة آلة تصوير. وكما لو أنه آخذ بالاستحواذ عليها.

راحت شفافــية الزجاج تكشف وجهها. وكانت إنارة المكتب تضيء رأس المرأة من الخلف، مانحة شعرها الكستنائي، نعومة وحركة حقل حبوب، تتشابك سنابله في الضفــيرة الجميلة الشقراء التي تسقط مثل حبل على رقبتها. هناك في الرقبة، يتركز الضوء أكثر مما في بقية الرأس. وبينما هي تُبعد الضفــيرة الشقراء والغضة، كان ضوء الرقبة يُبرز التموج الأشقر لكل شعرة تصعد من الظهر، مثل قبضة حبوب تمضي

للقاء أرضها، خصوبتها العالية والحسية في كتلة الشعر المضفور.

كانت تعمل منحنية الرأس على الأوراق، غير مبالية به، غير عابئة بعمل الآخرين، العبودي، اليدوي، المختلف جداً عن عملها، منهمكة في العثور على جملة مناسبة، جذابة، مرحة، من أجل إعلان تلفزيوني لبيبسي كولا. أحس هو بعدم الراحة، بخوف من تشتيت فكرها بحركة ذراعيه على الزجاج. إذا ما رفعت عينيها، هل ستفعل ذلك بغضب، بانزعاج من حشرية العامل؟

كيف ستنظر إليه عندما تعود للنظر إليه؟

– يا يسوع – قالت بصوت خافت – لقد أخبروني أن عمالاً سيأتون. آمل ألا يكون هذا الرجل يراقبني. أشعر بأنني مراقبة. إنني آخذة بالغضب. إنني آخذة بفقدان القدرة على التركيز.

رفعت نظرها والتقت بنظر ليساندرو. أرادت أن تنزعج، ولكنها لم تستطع. كان هناك، في ذلك الوجه، شيء أذهلها. لم تلحظ، في البدء، التفاصيل الجسدية. ما هز اهتمامها هو شيء آخر. شيء لم تجده تقريباً في رجل. ناضلت بيأس مع مفرداتها بالذات، هي المحترفة في انتقاء الكلمات، في صوغ الشعارات، باحثة عن كلمة تصف موقف، وجه، العامل الذي ينظف نوافذ المكتب.

ووجدتها في ومضة ذهنية: تهذب. ما كان في ذلك الرجل، في موقفه، في بُعده، في طريقته بإحناء رأسه، في مزيج الحزن والسعادة الغريب في نظرته، هو تهذب، غياب غير معقول للابتذال.

– هذا الرجل – قالت لنفسها – لا يمكن له مطلقاً أن يتصل بي بالهاتف، يائساً، في الساعة الثانية فجراً، طالباً مني الصفح. سيتحمل. سيحترم وحدتي، وأنا سأحترم وحدته.

ما الذي يمكن لهذا الرجل أن يفعله من أجلكِ؟، سألت نفسها على الفور.

– سيدعوني إلى العشاء ثم يرافقني بعد ذلك حتى باب بيتي. لن يتركني أذهب وحيدة في سيارة تكسي ليلاً.

رأى هو، بلمحة عابرة، العينين الكستنائيتين، الكبيرتين والعميقتين، عندما رفعت هي نظرها، فارتبك، خفض بصره، واصل عمله؛ ولكنه تذكر في الحال أنها ابتسمت. أتراه تصور ذلك أم كان حقيقة؟ تجرأ على النظر إليها. كانت المرأة تبتسم له، باقتضاب شديد، وبتهذب شديد، قبل أن تخفض رأسها، وتعود إلى عملها.

كانت النظرة كافــية. لم يكن ينتظر رؤية كآبة في نظرة غرينغية. لقد قيل له إنهن جميعهن قويات جداً، واثقات جداً بأنفسهن، مهنيات جداً، دقيقات جداً في مواعيدهن. وهذا لا يعني أن جميع المكسيكيات ضعيفات، غير واثقات، مرتجلات

ومتخلفات عن المواعيد، لا، لا شيء من ذلك. ما يحدث هو أن امرأة، تأتي لتعمل في أيام السبت، يمكن لها أن تكون أي شيء، باستثناء أن تكون مكتئبة. ربما تكون رقيقة، ربما تكون مغرمة. هذا ما رآه بوضوح ليساندرو في نظرة المرأة. لديها حزن، لديها لهفة شوق. إنها متلهفة. هذا ما تقوله النظرة: – أريد شيئاً ينقصني.

أخفضت أودريّ رأسها أكثر مما هو ضروري، لكي تضيع في أوراقها. هذا مضحك. هل ستقع في حب أول رجل تصادفه، لمجرد أن تقطع علاقتها نهائياً بزوجها، أن تجعله يعتبر، بتأثير الصدمة وحدها؟ لقد كان العامل وسيماً، وهذا هو السيئ في الموضوع، لديه هذا الموقف الفروسي الفريد، وشبه المهين تقريباً، في غير مكانه، كما لو أنه يستغل دونيته. ولكن له عينين لامعتين أيضاً، تنعكس فـــيهما لحظات الحزن والسعادة بالزخم نفسه، وله بشرة كامدة، زيتونية، حسية، وأنف قصير وحاد، بزعنفتين راعشتين، وشعر أسود، أجعد، شاب، وشارب كثيف. إنه نقيض زوجها تماماً. إنه – وعادت تبتسم – سراب.

ردّ هو لها الابتسامة. له أسنان قوية، بيضاء. وفكر ليساندرو في أنه تجنب كل الأعمال التي تحط من مستواه، أمام من عرفهم عندما كان صبياً لديه طموحاته. لقد قبل وظيفة نادل في «فوكولاري». وكان الموقف مؤلماً جداً، عندما اضطر إلى خدمة مائدة عليها زملاء قدماء من المدرسة الثانوية. جميعهم

كانوا قد ازدهروا، باستثنائه هو. أحزنهم، أحزنوه. لم يدروا كيف يستدعونه، وماذا يقولون له. أتتذكر الهدف الذي سجلته في المباراة ضد فريق سيمون بوليفار؟ كان هذا هو ألطف ما سمعه منهم، بعد صمت مشحون ومثقل.

إنه لا يصلح للعمل المكتبي، فقد ترك المدرسة بعد السنة الثانوية الثالثة، وهو لا يعرف الطباعة على الآلة الكاتبة. وكان العمل كسائق تكسي أسوأ. فهو يحسد الزبائن الأغنياء، ويزدري الفقراء. وكانت مدينة مكسيكو وحركة مرورها تخرجه عن طوره، تستثير نزقه، تحوله إلى صلف، وشاتم أمهات، وكل ما لا يرغب في أن يكونه... بائع في متجر، موظف محطة وقود، أي عمل، بالطبع. السيئ أنه لم يجد حتى مثل هذه الأعمال. فالجميع عاطلون عن العمل، حتى المتسوّلون كانوا يعتبرون عاطلين عن العمل. شكر حظه لأنه قبل هذا العمل في الولايات المتحدة. شكر حظه من أجل عيني المرأة التي تنظر إليه الآن مباشرة.

لم يدر أنها لم تكن تنظر إليه فقط، وإنما تتخيله. لقد كانت تسبقه بخطوة. تتخيله في كل أنواع الأوضاع. رفعت القلم إلى أسنانها. أي نوع من الرياضة يروقه؟ يبدو قوياً جداً، رياضياً جداً. أي أفلام، وأي ممثلين، وهل يحب السينما، الأوبرا، مسلسلات التلفزيون، ماذا؟ أهو ممن يروون كيف تنتهي الأفلام؟ بالطبع لا. هذا يُلحظ على الفور. ابتسمت له مباشرة، أهو ممن

يتحملون أن تروي لهم امرأة مثلها كيف ينتهي الفيلم، الرواية البوليسية، كل شيء ما عدا القصة الشخصية، فهذه لا يمكن معرفة كيف ستنتهي مطلقاً؟

ربما خمن هو شيئاً مما يدور في رأسها. وكان يرغب في أن يقول لها مباشرة، إنني مختلف، لا تثقي بالمظاهر. ما كان علي أن أكون في هذا العمل، فهذا ليس أنا، لستُ ما تتخيلينه. ولكنه لا يستطيع التكلم إلى الزجاج، لا يمكنه إلا أن يحب ضوء الزجاج الذي يمكنه الدخول إليها، ملامستها؛ فالضوء مشترك بينهما.

رغب بزخم في امتلاكها، في ملامستها، ولو عبر الزجاج.

نهضت هي، مضطربة، وخرجت من المكتب.

هل هناك ما أغضبها؟ أتكون حركة ما، إيماءة منه غير مناسبة؟ أيكون قد تجاوز الحد بسبب جهله بأساليب اللياقة الغرينغية؟ غضب من نفسه لأنه يبالغ في الخوف، يبالغ في اليأس، يبالغ في القلق. ربما تكون قد انصرفت نهائياً. ما اسمها؟ أتراها تسأل نفسها السؤال نفسه؟ ما اسمه؟ ما هو المشترك بينهما؟

رجعت وقلم أحمر الشفاه في يدها.

أبقته منزوع الغطاء، منتصباً، وهي تنظر بثبات إلى ليساندرو.

مضت عدة دقائق، وهما يتبادلان النظر على ذلك النحو، بصمت، تفصل بينهما الحدود الزجاجية.

كانت تتولد بين الاثنين مشاركة ساخرة، إنها مشاركة العزلة والانفصال. كل منهما كان يتذكر حياته الخاصة، متخيلاً حياة الآخر، والشوارع التي يجتازانها، والمنعطفات التي سيرابطان فـــيها، وغابات كل من المدينتين، نيويورك ومكسيكو، والأخطار، والفقر، ومخاطر مدينتيهما، ولصوص السطو، ورجال الشرطة، والمتسولين، والمتشردين، ورعب مدينتين كبيرتين تغصان بأناس مثلهما، أشخاص صغار جداً، غير قادرين على حماية أنفسهم من كل تلك المخاطر.

– هذا ليس أنا – قال لنفسه ببلاهة، دون أن ينتبه إلى أنها تريده أن يكون هو، مثلما هو عليه، مثلما اكتشفته هذا الصباح، عندما استيقظت وقالت لنفسها:– رباه، ممن كنتُ متزوجة؟ كيف يكون ذلك ممكناً؟ مع من كنتُ أعيش؟، ثم وجدته هو بعد ذلك، ونسبت إليه كل ما هو نقيض ما تكرهه في زوجها، اللباقة، التهذب، الكآبة، وعدم ضيقه من أنها تكشف له كيف تنتهي الأفلام...

هو وهي ، وحيدان.

هو وهي، مصانة حرمة وحدتهما.

مفصولان عن الآخرين. هي وهو متقابلان وجهاً لوجه، في صباح يوم سبت فريد، يتخيلان.

هو وهي، تفصل بينهما الحدود الزجاجية.

كيف يُدعيان؟ كلاهما فكر في الشيء نفسه. يمكنني أن أضع لهذا الرجل الاسم الذي يروقني. وفكر هو: على البعض أن يتخيلوا المحبوبة كامرأة مجهولة؛ وهو عليه أن يتخيل المرأة المجهولة كمحبوبة.

لم تكن ثمة حاجة إلى قول «نعم».

كتبت هي اسمها على الزجاج بقلم الشفاه. كتبته معكوساً، كما في مرآة: YARDUA («**يردوا**»، اسمها «أودريّ» معكوساً). بدا اسماً غريباً، اسم إلهة هندية.

تردد هو في كتابة اسمه، الطويل جداً، ونادر التواتر بالإنكليزية. وبصورة عمياء، دون تأمل، وربما ببلاهة، بصورة تنم عن عقدة ما، لم يعرف ذلك حتى هذا اليوم، كتب جنسيته فقط: NACIXEM («**نكيسكم**» كلمة «مكسيكي» معكوسة).

أومأت هي كمن تطلب شيئاً آخر، راحتان منفصلتان ومفتوحتان؛ –شيئاً آخر؟

لا، نفى برأسه، لا شيء آخر.

ومن أسفل، بدؤوا يصرخون به: ماذا تفعل طوال هذا الوقت هناك في الأعلى، ألم تنتهِ بعد، لا تكن بليداً، أسرع، لقد صارت الساعة التاسعة، علينا أن ننتقل إلى المبنى التالي.

شيئاً آخر؟، طلبت منه الإيماءة، طلب صوت أودري الصامت.

قرّب هو شفتيه من الزجاج. لم تتردد هي في عمل الشيء نفسه. واتحدت الشفاه عبر الزجاج. أغمض كلاهما عينيه. لم تعد هي إلى فتحهما طوال عدة دقائق. وعندما استعادت النظر، لم يكن هناك.

ماريو بارغاس يوسا(١)

Mario Vargas Llosa

يوم أحد

Día domingo

حبس أنفاسه لحظة. غرس أظفاره في راحتي يديه، وقال بسرعة: «إنني مغرم بكِ». رآها تصطبغ، فجأة، بحمرة الخجل،

---

(١) ولد ماريو بارغاس يوسا في مدينة اريكيبا في الثامن والعشرين من آذار (مارس) ١٩٣٦.درس الآداب والفلسفة في جامعة سان ماركوس في ليما، وبدأ بنشر قصصه القصيرة الأولى. وقد حصلت إحدى تلك القصص على جائزة أتاحت له السفر إلى أوروبا والحصول على منحة في فرنسا.

حصل على الدكتوراه في الآداب من جامعة مدريد.عمل في التدريس كأستاذ دائم أو زائر في عدد كبير من الجامعات الإنكليزية والإسبانية والأمريكية والفرنسية والأمريكية اللاتينية.خاض انتخابات الرئاسة في البيرو عام ١٩٩٢، ولكنه خسرها في مواجهة منافسه الرئيس السابق فوجيموري، فغادر البيرو، وحصل على الجنسية الإسبانية (مع احتفاظه بجنسيته البيروية).تمكنٍ بارغاس يوسا (الأسلوبي على طريقة فلوبير) مِن تجدِيد الرواية الواقعية، متجاوزا الأشكال القديمة من الواقعية الوثائقية. نال عدداً كبيراً من الجوائز الأدبية، مثل جائزة بيبليوتيكا بريفي (١٩٦٢)، جائزة النقد (١٩٦٣ و١٩٦٦) جائزة روميلو غييغو الدولية للأدب (١٩٦٧) جائزة ثيرفانتس (١٩٩٢) وجائزة بلانيتا (١٩٩٤)، وهو «مرشح دائم لجائزة نوبل».

يتناول في رواياته موضوعات العنف، والنفاق الاجتماعي، والفساد الأخلاقي (خصوصاً في المؤسسة العسكرية) ويعريها بقسوة.من أبرز أعماله:

في القصة القصيرة:«القادة» (١٩٥٩). «الجراء/ قصة طويلة» (١٩٦٧).في الرواية:«المدينة والكلاب» (١٩٦٢)، «البيت الأخضر» (١٩٦٦)، «محادثة في الكاتدرائية» (١٩٩٦)، «العمة خوليا والمخربش» (١٩٧٧)، «حرب نهاية العالم» (١٩٨٠)، «قصة مايتا» (١٩٨٤)، «من قتل بالومينو موليرو؟» (١٩٨٦)، «امتداح الخالة» (١٩٨٨)، «ليتوما في جبال الأنديز» (١٩٩٥)، «دفاتر دون ريغوبيرتو» (١٩٩٧)، «حفلة التيس» (٢٠٠٠)، «الفردوس على الناصية الأخرى» (٢٠٠٣).الدراسات:«غابرييل غارسيا ماركيز، قصة محطم آلهة» (١٩٧١)، «الرواية ومسألة التعبير الأدبي في البيرو» (١٩٧٢)، «المجون الأبدي، فلوبير ومدام بوفاري» (١٩٧٥)، «خوسيه ماريا أرغويديس، بين الضفادع والنسور» (١٩٧٨)، «ضد الريح والموج» (١٩٨٣)، «رسائل إلى روائي شاب» (١٩٩٧). المسرح: «آنسة تاكنا» (١٩٨١)، «كاثي وفرس النهر» (١٩٨٣)، «لاتشونغا» (١٩٨٦).

كما لو أن أحداً قد لطم خدها ذا الشحوب المتألق، والناعم جداً. أصابه الهلع، وأحس بأن الاضطراب يصعد من أعماقه، ويحجر لسانه. رغب في الخروج راكضاً، لينتهي. في الصباح الشتائي الساكن، برز هذا الخمود الحميم الذي يداهمه دائماً في اللحظات الحاسمة. قبل لحظات من ذلك، بين الحشود المتحمسة والباسمة التي تجوب أنحاء حديقة ميرافلوريس المركزية، كان ميغيل لا يزال يردد بينه وبين نفسه: «الآن، عندما نصل إلى جادة برادو. سوف أتجرأ. آه يا روبين، لو تعلم كم أكرهك!». بل وقبل ذلك أيضاً، في الكنيسة، بينما هو يبحث عن فلورا بعينيه، ويلمحها عند أحد الأعمدة، ويشق طريقه بالمنكبين، دون استئذان من السيدات اللواتي يتدافعن، تمكن من الاقتراب منها، وحياها بصوت خافت. عاد يقول لنفسه، بعناد، مثلما في الفجر، وهو ممدد في فراشه، مترصداً ظهور النور: «لا مناص. يجب أن أفعل ذلك اليوم. في الصباح. سأجعلك تدفع الثمن يا روبين». وكان، في الليلة السابقة، قد بكى، للمرة الأولى منذ سنوات طويلة، حين علم أنه يعد هذا الكمين الشائن. كان الناس لا يزالون في الحديقة، بينما أقفرت جادة برادو. كانوا يمشون في طريق الحور، تحت الأشجار ذات الأغصان العالية والكثيفة. وكان ميغيل يفكر: «يجب أن أسرع، وإلا خرجتُ خاسراً». نظر بطرف عينه في ما حوله: لم يكن هناك أحد. مدّ يده اليسرى حتى لمست يدها، وكشفت لها الملامسة أنه يتعرق. تضرع أن تحدث معجزة، أن تتوقف تلك المهانة. وفكر: «فلأصارحها، فلأصارحها». كانت هي قد سحبت يدها للتو، وأحس بأنه

مخذول ومضحك. وكل العبارات البراقة التي أعدها بصورة محمومة في العشية، تلاشت كأنها فقاعات زبد. قال متلعثماً:

– فلورا، لقد انتظرت طويلاً هذه اللحظة. أنا لا أفكر، منذ عرفتك، إلا فــيك. إنني عاشق لأول مرة، صدقيني. لم أعرف قط، فتاة مثلك.

ومرة أخرى، طغت على ذهنه بقعة بياض، فراغ. لم يعد بالإمكان زيادة الضغط؛ فالجلد يتمزق كأنه المطاط، وتصل الأظفار حتى العظم. ومع ذلك، واصل التكلم، بمشقة، مع وقفات كبيرة، متغلباً على تلعثمه الحانق، محاولاً شرح عاطفة جامحة وشاملة، إلى أن اكتشف، براحة، أنهما وصلا إلى أول منحنى في جادة برادو، عندئذ صمت. بين شجرتي الفيكوس الثانية والثالثة، بعد المنحنى، يقوم المنزل الذي تعيش فــيه فلورا. توقفا، ونظر كل منهما إلى الآخر. كانت فلورا لا تزال متأججة، وقد ملأت البلبلة عينيها ببريق رطب. قال ميغيل بينه وبين نفسه، بيأس، إنها لم تبد له قط بمثل هذا الجمال: شريط أزرق يربط شعرها، ويمكنه هو، أن يرى منبت عنقها، وأذنيها اللتين مثل إشارتي استفهام، صغيرتين ومتقنتين.

– انظر يا ميغيل – قالت فلورا؛ وكان صوتها ناعماً، مفعماً بالموسيقى، واثقاً – لا يمكنني أن أعطيك جواباً الآن. ولكن أمي لا تريدني أن أخرج مع فتيان إلى أن أنهي المدرسة.

- كل الأمهات يقلن الكلام نفسه يا فلورا - أصر ميغيل - وكيف ستعلم؟ سنتقابل حينما تريدين ذلك، حتى لو اقتصر اللقاء على أيام الآحاد وحدها.

- سوف أعطيك الرد. عليّ أن أفكر في الأمر أولاً - قالت فلورا وهي تخفض بصرها. ثم أضافت بعد ثوان:- اعذرني، فعليّ أن أذهب الآن، لقد تأخرت.

أحس ميغيل بإعياء شديد، بشيء يسري في كل أنحاء جسده، ويوهنه. قال متذللاً:

- أنت غير غاضبة مني، أليس كذلك يا فلورا؟

- دعك من البلاهة - ردت عليه بحيوية - فأنا لست غاضبة.

- سأنتظر ما تشائين من الوقت - قال ميغيل - لكننا سنواصل اللقاء، أليس كذلك؟ هل نذهب معاً إلى السينما، هذا المساء.

- لا يمكنني الذهاب هذا المساء - قالت هي بعذوبة - فقد دعتني مارتا إلى بيتها.

اجتاحه تيار ساخن، عنيف، وأحس بأنه جريح، فاقد للوعي، حيال هذا الرد الذي كان ينتظره، والذي بدا له الآن ضرباً من القسوة. لقد كان صحيحاً إذن، ما همس به ميلانيس، بتعثر، في أذنه، مساء يوم السبت. سوف تتركهما مارتا وحدهما؛ إنه التكتيك المعهود. وبعد ذلك، سيخبر روبين «شلة النسور» كيف

رتب، هو وأخته، الظروف، والمكان والزمان. لا بد أن مارتا قد طلبت، ثمناً لتواطئها، بأن يكون لها حق التجسس عليهما من وراء الستار. بلل الغضب يديه فجأة.

– لا تكوني هكذا يا فلورا. فلنذهب إلى حفلة السينما مثلما اتفقنا. لن أحدثك في أمرنا. أعاهدك.

– لا أستطيع. حقاً لا أستطيع – قالت فلورا – علي أن أذهب إلى مارتا. فقد حضرت أمس إلى منزلي لتدعوني. ولكني سأذهب معها بعد ذلك إلى حديقة سالازار.

لم يجد حتى في هذه الكلمات الأخيرة أي بارقة أمل. وبعد قليل من ذلك، كان يتأمل المكان الذي اختفت فيه تلك الصورة الهشة السماوية، تحت القوس المهيب الذي تشكله أشجار الفيكوس في الجادة. بإمكانه الكفاح ضد خصم بسيط، ولكن ليس ضد روبين. تذكر أسماء الفتيات اللواتي دعتهن مارتا، في مساء يوم أحد. لم يعد بمقدوره عمل أي شيء، إنه مهزوم. ومرةً أخرى برزت له تلك الصورة التي تنقذه دوماً، كلما أصابه الإحباط: من خلفية سحب سوداء منتفخة بدخان أسود، كان يتقدم هو، على رأس فرقة من طلبة الكلية البحرية، باتجاه منضدة مقامة في المتنزه، شخصيات ترتدي ملابس الإيتكيت، وقبعاتهم العالية في أيديهم، ونسوة يتزيّنّ بمجوهرات براقة، يصفقون له. وكان هناك حشد متجمع على الأرصفة، تبرز منه وجوه أصدقائه وأعدائه، والجميع ينظرون إليه مبهورين،

ويهمسون باسمه. كان يرتدي بدلة زرقاء، وعباءة واسعة تطفو وراء ظهره، فقد كان ميغيل في مقدمة الاستعراض، ينظر إلى الأفق، شاهراً السيف. أدار رأسه راسماً نصف دائرة في الهواء: هناك، في منتصف المنصة، كانت فلورا، باسمة. وفـــي أحد الأركان، اكتشف وجود روبين، مشعثاً، مكللاً بالعار: اكتفى بأن وجه إليه نظرة ازدراء. وواصل سيره، ليختفـــي وسط الهتافات.

تلاشت الصورة، مثلما يتلاشى البخار عن سطح المرآة عند مسحه. كان قد بلغ باب منزله، وأحس بكراهية نحو العالم بأسره، وبكراهيته لنفسه أيضاً. دخل، وصعد مباشرة إلى غرفته، استلقى على بطنه فوق السرير. وفـــي الظلمة الفاترة، بين حدقتيه وأهدابه، ظهر وجه الفتاة – «أحبك يا فلورا» قال ذلك بصوت عالٍ – ثم ظهر له وجه روبين، بفكه الوقح وابتسامته العدائية. كان الوجهان متجاورين، يتقاربان، وتلتفت عينا روبين لتنظرا إليه بسخرية، بينما فمه يتقدم باتجاه فلورا.

قفز من السرير. وأظهرت له مرآة الخزانة وجهاً مزرقاً، شاحباً. وقرر بتصميم: «لن يراها. لن يفعل بي ذلك، لن أسمح له أن يلعب بي هذه اللعبة القذرة.

كانت جادة برادو لا تزال مقفرة. غذّ الخطى دون هوادة، سائراً حتى التقاطع مع جادة غراو. وهناك انتابه التردد. أحس بالبرد، فقد نسي السترة في حجرته. والقميص وحده لم يكن

كافــياً لحمايته من الرياح الآتية من البحر، والتي تتشابك بأغصان أشجار الفيكوس الكثيفة، بحفــيفها الرتيب. منحته صورة فلورا وروبين الرهيبة، مزيداً من الشجاعة، فواصل السير قُدماً. ومن باب الحانة المجاورة لسينما مونتي كارلو، رآهم حول منضدتهم المعهودة، سادة الركن الذي يشكله جدار صدر المحل والجدار الأيسر. اكتشف وجوده كل من فرانثيسكو، وميلانيس، وتوبياس، والتلميذ، وبعد لحظة من دهشة المفاجأة، التفتوا إلى روبين، بوجوه ماكرة، ومستثارة. استعاد توازنه فوراً؛ فهو يعرف كيف يحسن التصرف في مواجهة الرجال.

- مرحباً - قال لهم وهو يقترب - هل من جديد؟

- اجلس - قدم له «التلميذ» كرسياً - أي معجزة حملتك إلى هنا؟

- منذ قرون لم تأت - قال فرانثيسكو.

- اشتقت لرؤيتكم - قال ميغيل بمودة - وأنا أعرف أنكم هنا. ما الذي يدهشكم؟ أم أنني لم أعد نسراً؟

اتخذ له مجلساً بين ميلانيس وتوبياس. وكان روبين قبالته. وصاح التلميذ:

- هات كأساً أخرى يا كونتشو. على ألا يكون قذراً جداً.

وعندما أحضر الكأس، ملأها التلميذ بالبيرة. وقال ميغيل «بصحة النسور» وشرب.

- كدتُ أبتلع الكأس أيضاً - قال فرانثيسكو - يا للتهور!

- أراهن أنك ذهبت إلى قداس الساعة الواحدة - قال ميلانيس وهو يثني أحد جفونه برضا، مثلما يفعل عادة وهو يبدأ مكيدة - أليس كذلك؟

- لقد ذهبت - قال ميغيل - ولكن لكي أرى أنثى وحسب.

نظر إلى روبين بعينين متحديتين، لكن هذا لم يبدِ اهتماماً؛ كان يدق بأصابعه على المنضدة، ويصفر بخفوت، ولسانه بين أسنانه، لحن «الصبية اللعوب»، لبيرث برادو.

- جيد - قال ميلانيس - جيد يا دون جوان. قل لنا، أي أنثى هي؟.

- هذا سر.

- لا وجود لأسرار بين النسور - ذكّره توبياس - هل نسيت ذلك؟ هيا، من هي؟.

- وما يعنيك ذلك - قال ميغيل.

- يعنيني كثيراً - قال توبياس - عليّ أن أعرف من ترافق لكي أعرف من أنت.

فقال ميلانيس لميغيل:

- ردّ الآن، واحد مقابل صفر.

- أراهن أني أستطيع معرفتها - قال فرانثيسكو - ألا تعرفونها أنتم؟

– أنا أعرف من هي – قال توبياس.

– وأنا أيضاً – قال ميلانيس. والتفت إلى روبين، مبدياً البراءة في عينيه وصوته:– وأنت أيها الصهر، أتعرف من هي؟

فقال روبين ببرود:

– لا. ولا يهمني أن أعرف.

– أشعر بلهيب في معدتي – قال التلميذ – ألن يطلب أحدٌ بيرة؟

فقال ميلانيس بتأثر وهو يمر بإصبعه على عنقه:

– I haven't money darling.

– سأدفع ثمن زجاجة – أعلن توبياس بإيماءة وقورة – ولنرَ من سيتبعني. لا بد أن نطفئ نيران هذا الأبله.

فقال ميغيل:

– كونتشو، أنزل نصف دزينة من بيرة «كريستال».

انطلقت صيحات حماس، وهتافات تعجب. وأكد فرانثيسكو:

– أنت نسر حقيقي.

– قذر، مقمل – أضاف ميلانيس – أجل يا سيدي، أنت نسر قلباً وقالباً.

أحضر كونتشو زجاجات البيرة. وشربوا. واستمعوا إلى ميلانيس وهو يحكي قصصاً جنسية، فجة، مغالية، محمومة. ونشبت بين توبياس وفرانثيسكو مناظرة حادة حول كرة القدم.

وروى التلميذ طرفة: كان قادماً من ليما إلى ميرافلوريس بالحافلة؛ نزل الركاب الآخرون في شارع أريكيبا. وعند شارع خابير برادو، صعد إلى الحافلة الحوت توماسو، ذلك الأمهق الذي صار طول قامته مترين، وما زال في المدرسة الابتدائية، ويسكن في كبرادا. ألا تعرفونه؟ وراح يوجه أسئلة إلى السائق، مبدياً اهتماماً كبيراً بالحافلة، وهو ينحني في أثناء ذلك على المقعد الذي أمامه، ويشق بسكين، جلد ظهر المقعد بنعومة.

– لقد فعل ذلك لأنني كنت هناك – قال التلميذ – أراد التظاهر.

– إنه متخلف عقلياً – قال فرانثيسكو – هذه الأشياء يقدم على عملها من هو في العاشرة. أما وهو في هذه السن، فليس في الأمر أي ظرافة.

– ما حدث في ما بعد فيه ظرافة – ضحك التلميذ – اسمع أيها السائق، ألا ترى أن هذا الحوت يخرب حافلتك؟

– ماذا؟ – قال السائق وهو يفرمل فجأة. فقفز الحوت توماسو، بأذنين مصطبغتين بالحمرة، وعينين مرعوبتين، محاولاً فتح الباب.

– بسكينه – قال التلميذ – انظر كيف فعل لك بالمقعد.

وأخيراً تمكن الحوت من الخروج. واندفع راكضاً في شارع أريكيبا، والسائق في إثره يصرخ: «أمسكوا هذا التعس».

– وهل أمسك به؟ – سأل ميلانيس.

- لا أعلم، فقد غادرت الحافلة، وسرقتُ مفتاح المحرك، كتذكار. ها هو.

وأخرج من جيبه مفتاحاً صغيراً مفضضاً، وألقى به على المنضدة. كانت الزجاجات قد فرغت. نظر روبين إلى ساعته، ونهض واقفاً. وقال:

- سأذهب. نلتقي في ما بعد.

- لا تذهب - قال ميغيل - أنا اليوم غني. وأدعوكم جميعاً إلى الغداء.

تهاوت زوبعة من التربيتات عليه، وشكره الصقور بصخب، وأثنوا عليه.

- لا أستطيع - قال روبين - لدي عمل.

- هيا انصرف، أيها الصبي الطيب - قال توبياس - وانقل تحياتي إلى مارتا.

- سوف نفكر فـــيك كثيراً أيها الصهر - قال ميلانيس.

فهتف ميغيل:

- لا. دعوتي للجميع أو لا أحد. فإذا رحل روبين، لن يكون هناك شيء.

- ها قد سمعت أيها النسر روبين - قال فرانثيسكو - عليك أن تبقى.

- عليك أن تبقى - قال توبياس - لا مجال للاستثناءات.

- إني ذاهب - قال روبين.

- كل ما هنالك هو أنك مخمور - قال ميغيل - وأنت تريد الذهاب لأنك تخشى أن تصير مضحكاً أمامنا، هذه هي الحقيقة.

- كم مرة اقتدتك إلى بيتك لأنك مخمور - قال روبين - وكم مرة ساعدتك على تسلق السور كيلا يضبطك أبوك؟ يمكنني أن أتحمل عشرة أضعاف ما تتحمله.

- كنتَ تتحمل - قال ميغيل - ولكن ذلك صار صعباً الآن. أتريد أن تجرب؟

- بكل سرور - قال روبين - فلنلتق ليلاً، هنا بالذات.

- لا. فليكن ذلك الآن - قال ميغيل ذلك والتفت نحو الآخرين، وهو يفتح ذراعيه:- إنني أعرض تحدياً، أيها النسور.

وتبين له، بسعادة، أن الصيغة لا تزال تحتفظ بقوتها دون تغيير. فوسط ضجة السعادة التي أثارها، رأى روبين يعود للجلوس وقد شحب وجهه.

وصاح توبياس:

- كونتشو! إلينا بقائمة الطعام. ومسبحين من البيرة. لقد عرض أحد النسور تحدياً.

طلبوا شرائح لحم مشوية، ودزينة من زجاجات البيرة. وضع توبياس ثلاث زجاجات أمام كل واحد من المتنافسين، ووزع الزجاجات المتبقية على الآخرين. تناولوا الطعام دون أن يتبادلوا

الكلام تقريباً. وكان ميغيل يشرب بعد كل لقمة، ويحاول إظهار حماسته؛ لكن الخوف من عدم قدرته على التحمل، كان يتزايد مع تزايد الطعم الحريف الذي تخلفه البيرة في حلقه. عندما أنهيا الزجاجات الست، كان قد مضى وقت لا بأس به على رفع كونتشو للأطباق.

- اطلب أنت - قال ميغيل لروبين.

- ثلاث زجاجات أخرى للرأس الواحد.

بعد الكأس الأول من الجولة الجديدة، أحس ميغيل بطنين في أذنيه؛ كان رأسه عجلة روليت شديدة البطء، وكان يشعر بأن كل شيء يدور. فقال:

- أريد التبول. سأذهب إلى دورة المياه.

وضحك النسور.

- هل تستسلم؟ -سأله روبين.

- إني ذاهب للتبول - صاح ميغيل - وليحضروا مزيداً من زجاجات البيرة، إذا كنت ترغب.

وفـــي دورة المياه، تقيأ. ثم غسل وجهه، بتمهل، محاولاً أن يمحو أي علامة يمكن لها أن تكشف حالته. كانت ساعته تشير إلى الرابعة والنصف. وعلى الرغم من شعوره الحاد بالإعياء، فقد أحس بالسعادة. لم يعد بإمكان روبين عمل أي شيء. وعاد إلى الآخرين.

– في صحتك – قال روبين وهو يرفع الكأس.

وفكر ميغيل: «إنه غاضب، ولكني هزمته.»

– تفوح رائحة جثة – قال ميلانيس – هناك شخص يموت بيننا.

– إنني بكامل نشاطي – أكد ميغيل، محاولاً السيطرة على التقزز والدوار.

وكرر روبين:

– في صحتك.

وحين أنهيا آخر زجاجة بيرة، أحس بأن معدته من رصاص. وكانت أصوات الآخرين تصل إلى أذنيه كخليط ضجيج مضطرب. وظهرت فجأة، يد تحت أذنه، كانت يداً بيضاء وطويلة الأصابع، أمسكت بذقنه، وأجبرته على رفع رأسه. كان وجه روبين قد كبر. بدا مضحكاً، بشعره المشعث وملامحه الغاضبة.

– هل استسلمت أيها الصبي ذو المخاط؟

نهض ميغيل دفعة واحدة، ودفع روبين، ولكن قبل أن يتطور الشجار، تدخل التلميذ.

– النسور لا يتشاجرون أبداً – قال وهو يجبرهما على الجلوس، ثم أضاف: كلاهما ثمل. انتهى الأمر. تصويت.

وافق ميلانيس وفرانثيسكو وتوبياس، باستياء، على التعادل.

فقال روبين:

- لقد كسبت. انظروا إليه، إنه عاجز حتى عن الكلام.

وبالفعل، كانت عينا ميغيل زجاجيتين، وفمه مفتوحاً، ومن لسانه يسيل خيط لعاب.

- اصمت – قال التلميذ – أنت لست بطلاً في شرب البيرة.

وأضاف ميلانيس:

- لست بطلاً في شرب البيرة. أنت بطل في السباحة فقط، إنك عفريت أحواض السباحة.

- من الأفضل لك، أنت، ألا تتكلم – قال روبين – ألا ترى أن الحسد ينز منك؟

- تعيش استر ويليامز في حي ميرافلوريس – قال ميلانيس.

- إنك عجوز فظيع ولا تعرف حتى كيف تسبح – قال روبين – ألا تريد أن أعطيك بعض الدروس؟

- إننا نعرف أيها البطل – قال التلميذ – لقد كسبتَ بطولة في السباحة. وكل الفتيات يهمن بك. أنت بطل صغير.

- هذا ليس بطلاً في أي شيء – قال ميغيل بصعوبة – إنه متبجح وحسب.

- إنك تشرف على الموت – قال روبين – هل تريدين أن أوصلك إلى البيت أيتها البنية؟

- لستُ مخموراً – أكد ميغيل – وأنت لست سوى متبجح.

- أنت ملسوع لأنني سألتقي بفلورا – قال روبين – إنك تموت من الغيرة. أتظنني لا أفهم الأمور؟

- مجرد متبجح – قال ميغيل – لقد كسبت في السباحة لأن أباك هو رئيس النادي. الجميع يعرفون أنه لجأ إلى الغش، واستبعد كونيخو بييّاران، ولهذا السبب تمكنت أنت من الفوز.

- ولكنني أسبح أفضل منك، على الأقل – قال روبين – فأنت لا تعرف حتى كيف تطفو على الأمواج.

- أنت لا تُحسن السباحة خيراً من أحد – قال ميغيل – ويمكن لأي شخص أن يتفوق عليك.

فقال ميلانيس:

- أي شخص. حتى ميغيل، وهو ليس سباحاً جيداً.

- اسمح لي أن أبتسم – قال روبين.

فقال توبياس:– إننا نسمح لك. ليس أقل من هذا.

- إنكم تلحون لأننا في الشتاء – قال روبين –. لولا ذلك، لكنت تحديتكم في الذهاب إلى الشاطئ، ولنر إن كنتم أشداء هكذا في الماء.

- كسبتَ البطولة بفضل أبيك – قال ميغيل – أنت متبجح وحسب. عندما تريد السباحة معي، عليك أن تخبرني فقط، وبكل ثقة. سواء في الشاطئ، أو في النادي، مثلما تشاء.

فقال روبين:– على الشاطئ. والآن بالذات.

– ما أنت إلا متبجح – قال ميغيل.

أشرق وجه روبين فجأة، وتحولت عيناه إلى العجرفة، فضلاً عما فــيهما من حقد. وقال:

– أراهنك على من يصل أولاً إلى موقع التيار.

– مجرد تبجح– قال ميغيل.

– أعدك، إذا أنت كسبت، بألا أقابل فلورا. وإذا أنا فزت، فعليك أن تعزف موسيقاك في مكان آخر.

فتلعثم ميغيل: «من تظن نفسك؟ يا للعنة، من تظن نفسك؟

– أيها النسور –قال روبين وهو يفتح ذراعيه – إنني أتحدى.

– ميغيل غير مستعد الآن – قال التلميذ – لماذا لا تلعبان «صورة أم شعار» على فلورا؟

– ولماذا تحشر نفسك أنت – قال ميغيل – إنني موافق. هيا بنا إلى الشاطئ.

– إنكما مجنونان – قال فرانثيسكو – أنا لن أنزل إلى الشاطئ في هذا البرد. تراهنا على شيء آخر.

– لقد قبل التحدي – قال روبين – هيا بنا.

– عندما يطرح أحد النسور تحدياً، فعلى الجميع أن يدسوا ألسنتهم في جيوبهم – قال ميلانيس – هلموا بنا إلى الشاطئ. وإذا لم يتجرأا على النزول إلى الماء، فسوف نلقي بهما إليه.

- كلاهما مخمور – ألح التلميذ – وهذا التحدي غير ملائم.

- اصمت أيها التلميذ - زمجر ميغيل - إنني كبير، ولستُ بحاجة لمن يعتني بي.

- لا بأس - قال التلميذ وهو يهز كتفيه – خوزق نفسك مثلما تشاء.

خرجوا. وكان ينتظرهم في الخارج جوٌّ ساكن ورمادي. وتنفس ميغيل بعمق، وشعر بتحسن. مضى فرانثيسكو وميلانيس وروبين في المقدمة، ومن ورائهم ميغيل والتلميذ. كان هناك بعض المشاة العابرين في جادة غراو، معظمهم خادمات يرتدين ملابس صارخة في يوم عطلتهن. رجال رماديون، ذوو شعور سميكة وسبطة، يحومون حولهن ويرمقونهن بجشع؛ فيضحكن مظهرات أسنانهن الذهبية. ولم يولهن النسور اهتمامهم. فقد كانوا يتقدمون بخطوات واسعة، وقد أخذ الانفعال يستحوذ عليهم، شيئاً فشيئاً.

- هل بدأت تتحسن؟ قال التلميذ.

- أجل - ردّ ميغيل - الهواء حسّن حالتي.

انعطفوا عند ناصية جادة برادو. كانوا يسيرون منتشرين مثل فصيلة عسكرية، في الرتل المتتالي نفسه، تحت أشجار الفيكوس، على بلاط الرصيف المنتفخ في بعض الأماكن، بسبب جذور الأشجار الضخمة التي تبرز إلى السطح أحياناً، كأنها

خطافات. ولدى نزولهم في الشارع المحوري، مروا بفتاتين. فانحنى روبين باحتفالية.

- مرحباً يا روبين - غردتا معاً.

فقلدهما توبياس منغماً صوته:

- مرحباً يا روبين، أيها الأمير.

ينتهي الشارع المحوري إلى منحدر خفيف، يتفرع إلى اتجاهين؛ فيتعرج من جهة مع الكورنيش، المعبّد واللامع؛ بينما هناك، في الجهة الأخرى، منحدر يلتف حول الرابية، ويصل إلى البحر. وكان يسمى «نزلة الحمامات»، وهو مرصوف بحجارة متساوية، تلمع من آثار عجلات السيارات وأقدام المستحمين عبر أصياف عديدة.

- فلنبدأ التحمية أيها الأبطال - صاح ميلانيس، وانطلق في الجري. وحذا الآخرون حذوه.

كانوا يركضون بعكس اتجاه الريح والضباب الخفيف الذي يتعالى من جهة البحر، مستغرقين في دوامة من الانفعالات المؤثرة. كان الهواء يتغلغل إلى رئاتهم عبر آذانهم وأفواههم وأنوفهم، ويشيع في أجسادهم إحساساً بالراحة كلما ازدادت حدّة المنحدر، إلى أن أتت لحظة، لم تعد فيها أقدامهم تنصاع إلا إلى قوة غامضة تأتي من أعمق أعماق الأرض. نزل النسور المنحدر بأقصى سرعة؛ أذرعهم تدور كأنها المراوح، وأنفاس مالحة تطغى على ألسنتهم، إلى أن بلغوا المنصة الدائرية،

المطلة على مباني حجيرات الشاطئ. كان البحر يختفـــي على بعد حوالي خمسين متراً من الشاطئ، في سحابة كثيفة، يبدو أنها توشك أن تنسكب على صخور الجرف الساحلي، تلك الهياكل الحجرية السامقة، المغروسة على امتداد الخليج.

- فلنرجع - قال فرانثيسكو - إنني أشعر بالبرد.

على حافة المنصة الدائرية، هناك حاجز ملطخ بقطع من الطحالب. وثمة فتحة فـــيه تشير إلى بداية السلّم، شبه العمودي، الذي ينزل حتى الشاطئ. وتأمل النسور من هناك، تحت أقدامهم، شريطاً ضيقاً من المياه الحرة، سطحها المهجور، المزبد، يغطيه زبد الأمواج.

- سأرجع إذا استسلم هذا - قال روبين.

- من الذي يتكلم عن الاستسلام - ردّ ميغيل.

نزل روبين السلّم قافزاً، وهو يفك أزرار قميصه.

- ارجع يا روبين! - صاح التلميذ - هل جننت؟ ارجع!.

لكن ميغيل والآخرين نزلوا أيضاً، فلحق التلميذ بهم.

فـــي الصيف، كان هناك منحدر من صخور رصاصية، يتشمس الناس عليه، يمتد من شرفة المبنى الطويل الضيق المستند إلى الجبل، حيث الحجرات التي بدّل فـــيها المستحمون ملابسهم، حتى حدّ البحر المنحني. كان الشاطئ الصغير يفور بالحيوية، من الصباح حتى الغروب. أما الآن فالمياه تغمر

المنحدر الصخري، ولا وجود لمظلات ذات ألوان فاقعة، ولا لفتيات ذوات أجساد مرنة ومحمصة، ولا تتعالى صرخات الأطفال والنساء الميلودرامية، كلما تمكنت موجة من رشهم قبل أن تتراجع ساحبة معها حجارة وحصوات مفرقعة، ولم يكن يظهر ولو مجرد خيط رفـــيع من الشاطئ الرملي، لأن التيار يغمر حتى الحيز الضيق بين الأعمدة التي تحمل البناء. وعند ارتفاع المدّ، لا تكاد تظهر السلالم الخشبية والدعائم الإسمنتية الموشاة بالنوازل والطحالب والأعشاب البحرية.

- من غير الممكن رؤية التيار - قال روبين - ماذا نفعل؟

كانوا في الجناح الأيسر، في القطاع المخصص للنساء. وكانت ملامح الجدية بادية على وجوههم.

- انتظرا إلى الغد - قال التلميذ - ففـــي الظهيرة يكون الجو صافـــياً. وعندئذ يمكننا مراقبتكما.

- فلننه الأمر الآن، بما أننا قد وصلنا إلى هنا - قال ميلانيس - ويمكن لهما أن يراقبا نفسيهما بنفسيهما.

- لا مانع لدي - قال روبين - وأنت، ما قولك؟.

فقال ميغيل:

- لا مانع لدي أيضاً.

عندما تعريا، سخر توبياس من الأوردة الزرقاء التي تنتشر على بطن ميغيل الأملس. نزلا. كانت أخشاب درجات السلم التي

تلحسها المياه، دون توقف، منذ عدة شهور، قد صارت زلقةً، وناعمةً جداً. وأحس ميغيل، وهو يتمسك بالدرابزين الحديدي كيلا يسقط، بقشعريرة تصعد من باطن قدميه إلى دماغه. وفكر في أن الضباب والبرد سيكونان، بطريقة ما، في مصلحته، وأن الفوز لا يتوقف على المهارة، وإنما على الصمود قبل أي شيء آخر. وكانت بشرة روبين تميل إلى الزرقة أيضاً، مقشعرة في ملايين التجعدات الدقيقة. وتحته بدرجة على السلم، انحنى جسد روبين المتناسق؛ متوتراً، ينتظر تراجع الموجة ومجيء الموجة التالية، لأنها تأتي دون صخب، دافعة أمامها، بزهو، سرباً من الزبد. وعندما صارت قمة الموجة على بعد مترين من السلم، قفز روبين: ذراعاه كرمحين، وشعره مشعث من قوة الاندفاع، وشق جسده الهواء بصورة مستقيمة، وسقط دون أن يلتوي، ودون أن يُخفض رأسه أو يثني ساقيه. طفر وسط الزبد، غطس قليلاً، واستغل الجزر لينزلق إلى الأمام؛ كانت ذراعاه تظهران وتغطسان وسط دوامات فقاعات محتدمة، وساقاه ترسمان أثراً دقيقاً وسريعاً. وبدوره، نزل ميغيل درجة أخرى وانتظر الموجة التالية. كان يعرف أن القاع هناك ضحل، وأن عليه أن يلقي بنفسه مثل لوح من الخشب، قاس ومتيبس، دون أن يحرك عضلة واحدة، وإلا فإنه سيصطدم بالصخور. أغمض عينيه وقفز؛ لم يصل إلى القاع، ولكن جسده تلقى الصدمة من الجبهة حتى الركبتين، وأصابه ألم حاد بينما هو يضرب بذراعيه بكل قواه، كي يعيد إلى أعضائه الدفء الذي انتزعه الماء منها فجأة.

كان في ذلك القطاع الغريب من بحر ميرافلوريس، المجاور للشاطئ، حيث تكثر الأمواج والمدّ، وتوجد دوامات وتيارات متضادة. وكان الصيف قد ابتعد كثيراً، إلى حدّ نسي معه ميغيل كيف يتجاوز تلك المنطقة دون بذل مجهود كبير. فهو لا يتذكر أنه لا بد من الاسترخاء والانقياد، مسلِّماً نفسه بانصياع للتيار، وألا يضرب بذراعيه إلا عندما يجتاز موجة ويكون في قمتها، على ذلك السفح السائل الذي يحرس الزبد، ويطفو فوق التيارات. لا يتذكر أن عليه أن يتحمل بصبر، وبشيء من المكر، هذه الملامسة الأولى مع البحر الهائج عند الضفة، الذي يشنج الأعضاء، ويدفع دفقات من الماء إلى الفم والعينين. يجب عليه ألا يقاوم، وأن يتحول إلى قطعة من الفلين، وأن يقتصر على استنشاق الهواء كلما اقتربت منه، والغطس – قليلاً إذا كان تكسر الموجة بعيداً ودون قوة، أو الوصول إلى القاع إذا كان قريباً –، والتمسك بصخرة والانتظار، بتيقظ، مرور دويها الأصم، ثم الخروج إلى السطح فوراً، باندفاعة واحدة، ومواصلة التقدم، بصبر، إلى أن تواجهه عقبة جديدة، فـيسترخي عندئذ، ولا يصارع ضد الدوامات، بل الدوران طواعية وببطء في دائرة حلزونية، ثم الهرب فجأة، في اللحظة المناسبة، بضربة خاطفة من ذراعه. وبعد ذلك، سيصل فجأة، إلى حيث يكون سطح الماء هادئاً، تحركه اهتزازات لا تستحق الذكر؛ فمياه ساكنة، مستوية، تمكن في أماكن منها رؤية الصخور البحرية الداكنة.

توقف ميغيل منهوكاً، بعد أن اجتاز المنطقة الهائجة، وتنفس بعمق. رأى روبين على مسافة قريبة، يتطلع إليه. كان شعره يتهدل في خصلات على جبينه، وكان يضغط على أسنانه.

– هل نتقدم؟

– هيا بنا.

بعد لحظات من السباحة، أحس ميغيل بالبرودة، وكانت قد تلاشت مؤقتاً، لكنها داهمته من جديد، فسرع من حركة ساقيه، لأن الساقين، وخاصة ربلتيهما، هما الموضع الذي يكون فيه تأثير الماء أشد فعالية، فيفقدهما الحساسية أولاً، ثم يصيبهما بالتيبس. كان يسبح ووجهه غاطس في الماء، وكلما خرجت ذراعه اليمنى خارجاً، يدير رأسه لينفث الهواء المحتبس ويستنشق مؤونة أخرى، يُغطِس بها جبهته وذقنه في الماء، قليلاُ، كيلا تخففا من تقدمه، وتشكلا بالمقابل، حدا يشق به الماء، ويسهل انسيابيته. ومع كل ضربة من ذراعه، كان يرى بإحدى عينيه روبين الذي يسبح على السطح، بنعومة، دون جهد، ودون أن يثير الآن زبداً من حوله، وبخفة وسهولة نورس يطير. حاول ميغيل أن ينسى روبين والبحر والتيار (وهذا لا يزال بعيداً، لأن الماء يبدو صافياً، وهادئاً، وهما لا يمران إلا ببعض الخضخضات العابرة). فهو لا يريد أن يتذكر إلا وجه فلورا، وزغب ذراعيها الذي يلمع في الأيام المشمسة مثل غابة خيوط ذهبية دقيقة، ولكنه لم يستطع الحيلولة دون أن تلي وجه الفتاة،

صورةٌ أخرى، ضبابية، مُقصية لغيرها، مرعدة، تهوي على فلورا وتخفــيها، صورة جبل من المياه الهائجة، ليس مياه التيار بالضبط (تلك التي بلغها مرة، منذ صيفــين، وكانت أمواجها زخمة، ذات زبد مائل إلى الاخضرار والسواد، لأن الصخور تنتهي في ذلك الموضع تقريباً، ويبدأ الطين الذي تُخرجه الأمواج إلى السطح وتخلطه بأعشاش الطحالب والنباتات البحرية، فتصبغ البحر)، وإنما هي أقرب إلى أقيانوس حقيقي، تهيجه عواصف داخلية، وترتفع فــيه أمواج هائلة، يمكن لها أن تلف سفــينة بكاملها وتقلبها بسرعة مذهلة، مطوحة في الهواء بالركاب، والزوارق، والصواري، والأشرعة، والأطواف، والبحارة والرايات.

توقف عن السباحة، وغاص جسده حتى صار في وضع رأسي. رفع رأسه، ورأى روبين يبتعد. فكر في أن يناديه متذرعاً بأية حجة، كأن يقول له «لماذا لا نستريح قليلاً؟»، ولكنه لم يفعل. بدا أن كل برودة جسده تتركز في ربلتي ساقيه، وأحس بعضلاته تتصلب، وبجلده يتوتر، وبقلبه يتسرع. حرك قدميه بصورة محمومة. كان في وسط دوامة مياه قاتمة، يطوقه الضباب. حاول أن يرى الشاطئ، أو أشباح جروفه الصخرية على الأقل، غير أن ذلك البرقع الضبابي الآخذ بالانقشاع، مع تقدمه، لم يكن شفافاً. لم يعد يرى سوى رقعة ضيقة جداً من سطح البحر، خضراء ضاربة إلى السواد، وغلالة من السحب،

فوق سطح الماء. عندئذ أحس بالخوف. وداهمه تذكّر البيرة التي شربها، وفكر «أظن أن ذلك قد أضعفني». وفي الحال، بدا كما لو أن ذراعيه وساقيه قد اختفت، فقرر العودة. ولكن، بعد بضع ضربات من ذراعيه باتجاه الشاطئ، استدار ثانية، وسبح بأشد ما يستطيعه من خفة. وكان يقول لنفسه «لن أتمكن من الوصول إلى الشاطئ وحيداً. من الأفضل أن أبقى قريباً من روبين، فإذا ما استنفدت قواي، أقول له: يكفي، أنت الفائز، فلنرجع». لقد صار يسبح الآن دون أسلوب، رافعاً رأسه إلى أعلى، ضارباً الماء بذراعين متيبستين، ونظره مثبت على الجسد غير المبالي الذي يتقدمه.

أزال الانفعال والجهد، الخدرَ من ساقيه، واستعاد جسده بعض الدفء. وتقلصت المسافة التي تفصله عن روبين، فطمأنه ذلك. وبعد قليل لحق به؛ ومد ذراعه، وأمسك بقدمه. وفي الحال، توقف. كانت عينا روبين شديدتي الاحمرار، وفمه مفتوحاً.

- أظن أننا انحرفنا - قال ميغيل - يبدو لي أننا نسبح بموازاة الشاطئ.

كانت أسنانه تصطك، ولكن صوته كان واثقاً. فنظر روبين في كل الاتجاهات. وكان ميغيل يراقبه، متوتراً.

- لم يعد الشاطئ مرئياً - قال روبين.

- لم يعد مرئياً منذ وقت طويل - قال ميغيل - ثمة ضباب كثيف.

– لم ننحرف – قال روبين – انظر. لقد صار الزبد مرئياً.

وبالفعل، كانت تصل إليهما بعض الأمواج المزينة بإطار من الزبد، تتحلل، ثم تعود على الفور إلى التشكل من جديد. تبادلا النظرات، صامتين. وأخيراً قال ميغيل:

– نحن قريبان من التيار إذن.

– أجل. فقد سبحنا بسرعة.

– لم أر قط، مثل هذا الضباب الكثيف.

– هل أنت متعب جداً؟ – سأله روبين.

– أنا؟ أنت مجنون. فلنواصل.

وندم في الحال لأنه قال ذلك، ولكن الوقت قد فات. إذ كان روبين قد قال: «حسن، فلنواصل».

تمكن من عدّ عشرين ضربة بذراعه قبل أن يقول لنفسه إنه لم يعد قادراً على المزيد؛ فهو لا يكاد يتقدم، وساقه اليمنى شبه مشلولة من البرد. ويشعر بأن يديه تتخبطان وتتثاقلان. فصاح لاهثاً: «روبين!». لكن هذا واصل السباحة. «روبين، روبين!». صاح ثانية، ثم استدار وبدأ يسبح باتجاه الشاطئ، أو أنه، بالأحرى، كان «يلعبط»، متخبطاً بيأس. وفجأة راح يتوسل إلى الله أن ينقذه، وسوف يكون طيباً في المستقبل.. سيطيع أبويه، ولن يتخلف عن قداس يوم الأحد. وعندئذ، تذكر أنه كان قد اعترف للنسور: «أنا أذهب إلى الكنيسة من أجل رؤية فتاة

وحسب»، وراوده يقين أشبه بطعنة خنجر: الرب سيعاقبه، سيغرقه في هذه المياه الهائجة التي يضربها بجنون، المياه التي تنتظره في أعماقها ميتة رهيبة. وربما يذهب، بعد ذلك، إلى الجحيم. وفـــي لحظات الغم تلك، برزت عبارة قالها يوماً الأب ألبرتو، في درس الديانة، حول الرحمة الإلهية غير المحدودة. وبينما هو يضرب البحر بذراعيه – وساقاه كما لو أنهما مثقلتان بكتل من الرصاص – حرك شفتيه متوسلاً إلى الله أن يكون رحيماً معه، لأنه لا يزال فتياً جداً، وأقسم إنه سينضم إلى المدرسة الإيكليرية ليصير راهبا، إذا هو نجا. ولكنه بعد ثانية واحدة، صحح ما قاله، وقد تولاه الرعب، فوعد بتقديم قرابين وأشياء أخرى، بدل أن يصير قساً، وأنه سيُعطي الصدقات. وعندئذ اكتشف أنه يمكن للتردد والمساومة، في مثل تلك اللحظة الحرجة، أن يكونا مهلكين. وما لبث أن سمع، عندئذ، صرخات روبين المجنونة، على مقربة شديدة منه، فأدار رأسه ورآه، على بعد حوالي عشرة أمتار، نصف وجهه غاطس في الماء، وهو يلوح بإحدى ذراعيه مستنجداً: «ميغيل، تعال يا أخي، إني أغرق. لا تذهب!».

ظل ميغيل حائراً، دون حراك، ثم بدا كما لو أن يأس روبين قد بدد يأسه؛ فشعر بأنه يستعيد الشجاعة، وبأن تصلب ساقيه يتراخى.

– لقد أصابني تشنج معوي – كان روبين يصرخ – لم أعد قادراً على الاستمرار يا ميغيل. أنقذني. أرجوك، أحلفك بأحب ما لديك، لا تتركني يا أخي.

طفا باتجاه روبين، وكان على وشك الوصول إليه، عندما تذكر أن الغرقى لا يوفّقون إلا بالتشبث، مثل كماشة، بمنقذيهم، وإغراقهم معهم. فابتعد. لكن الصرخات كانت ترعبه، وهجس بأنه إذا ما غرق روبين، فلن يتمكن هو أيضاً من الوصول إلى الشاطئ. فرجع. وعندما صار على بعد مترين عن روبين الذي تحول إلى شيء أبيض ومنكمش، يغطس ويطفو، صاح به: «لا تتحرك يا روبين. سوف أسحبك. ولكن لا تحاول التعلق بي. إذا تعلقت بي سنغرق معاً. روبين، عليك أن تبقى هادئاً يا أخي. وأنا سأسحبك من رأسك، فلا تلمسني». توقف على مسافة حذرة، ومد يده حتى أمسك بشعر روبين. بادر إلى السباحة بذراعه الطليقة، باذلاً كل ما في وسعه لمساعدة نفسه بساقيه. كان التقدم بطيئاً، ومؤلماً جداً. استجمع كل حواسه وركزها على مهمته، فكان يكاد لا يسمع روبين وهو يئن بصورة رتيبة، ثم يطلق فجأة صرخات رهيبة «إنني أموت، أنقذني يا ميغيل»، أو يقشعر من نوبات الغثيان. كان مستنفد القوى عندما توقف. وكان يمسك روبين بإحدى يديه، ويرسم باليد الأخرى دوائر على سطح الماء. أخذ نفساً عميقاً من فمه. وكان وجه روبين متشنجاً من الألم، وشفتاه مزمومتين في تكشيرة فريدة.

– لم يبق إلا القليل يا أخي – همس ميغيل –، تحمل قليلاً. أجبني يا روبين. اصرخ. لا تبق هكذا.

صفعه بقوة، ففتح روبين عينيه. حرك رأسه بضعف.

– اصرخ يا أخي – كرر ميغيل – حاول أن تشد جسمك. سوف أدلك معدتك. لم يبق إلا القليل، إياك أن تستسلم.

بحث بيده تحت الماء، وعثر على كتلة قاسية تبدأ عند سرة روبين، وتشغل جزءاً كبيراً من بطنه. دلّكها، عدة مرات، ببطء في أول الأمر، ثم بقوة بعد ذلك؛ فصرخ روبين: «لا أريد أن أموت يا ميغيل. أنقذني!».

بدأ يسبح من جديد، ساحباً روبين من ذقنه هذه المرة. وكلما فاجأتهما موجة، كان روبين يبتلع الماء، فيطلب منه ميغيل صارخاً أن يبصق. وواصل السباحة، دون أن يتوقف لحظة واحدة، مغمضاً عينيه أحياناً، ومتحمساً لأن نوعاً من الثقة انبثق في قلبه، شيئاً من الدفء والاعتزاز والتحريض راح يحميه من البرد ومن التعب. كشطت صخرة إحدى قدميه، فأطلق صرخة وزاد من سرعته. وبعد قليل تمكن من الوقوف وأحاط روبين بذراعيه. استراح مطولاً وهو يشده إليه، شاعراً برأس روبين مستنداً إلى أحد كتفيه. ثم ساعده بعد ذلك، على التمدد على ظهره، سانداً إياه بساعده، وأجبره على مدّ ركبتيه؛ ودلّك له بطنه إلى أن بدأت الصلابة تخف. لم يعد روبين يصرخ، بل صار يبذل جهوداً كبيرة لكي يتمدد تماماً. وأخذ يدلّك جسده بيديه أيضاً.

- هل أنت أحسن حالاً؟

- أجل يا أخي. إني بخير. فلنخرج من هنا.

كانت تغمرهما سعادة لا يمكن وصفها، وهما يتقدمان على الصخور، منحنيين إلى الأمام لمواجهة عنف الأمواج، غير آبهين بالقنافذ البحرية. وبعد قليل، رأيا نتوءات جرف الشاطئ الصخري، ومبنى الحمامات، وأخيراً، على مقربة من الضفة، رأيا النسور، عند أسفل جناح النساء، ينظرون إليهما.

- اسمع - قال روبين.

- نعم.

- لا تخبرهم بأي شيء. أرجوك، لا تخبرهم بأنني صرخت. لقد كنا صديقين حميمين على الدوام يا ميغيل. لا تفعل ذلك بي.

- وهل تظنني نذلاً - قال ميغيل -. لن أقول شيئاً، لا تقلق.

خرجا مرتجفــين. جلسا على السلّم، وسط صخب النسور. قال توبياس:

- كنا سنذهب لتقديم التعازي إلى أسرتيكما.

- إنكما في البحر منذ أكثر من ساعة - قال التلميذ - أخبرانا، كيف جرت الأمور؟

وتكلم روبين بهدوء، بينما هو يجفف جسده بقميصه، موضحاً:

- لا شيء. وصلنا إلى التيار ورجعنا. هكذا نتصرف نحن النسور. لقد فاز ميغيل عليّ. بمقدار شبر تقريباً. لو أن السباق جرى في حمام سباحة، لصرت أضحوكة.

وانهالت أكف التهنئة على ظهر ميغيل الذي ارتدى ملابسه دون أن يجفف جسده. وكان ميلانيس يقول له:

- لقد صرت رجلاً.

لم يرد ميغيل. ابتسم وهو يفكر في أنه سيذهب هذا المساء بالذات، إلى حديقة سالازار. وسيعرف حي ميرافلوريس بأسره، من خلال ميلانيس، أنه فاز في هذا الاختبار البطولي، وستكون فلورا في انتظاره، بعينين مشرقتين. لقد كان ينفتح أمامه مستقبل ذهبي.

مانويل روخاس(1)

Manuel Rojas

بندقية صيد وببغاء

Una carabina y una cotorra

ثمة كائنات لا تفعل أبداً، ما يستحق التأمل والتقدير. وفي أغلب الأحيان، لا يكون الذنب ذنبها: فهي لم تحصل على

---

(١) ولد التشيلي مانويل روخاس في الأرجنتين عام ١٨٩٦، وتوفي في سنتياغو دي تشيلي عام ١٩٧٣.مع بداية القرن العشرين، رجع روخاس، وهو في الرابعة من عمره، مع أبويه التشيليين، إلى سنتياغو. وبقي فيها حتى ١٩٠٣، عندما توفي أبوه، فعاد ثانية مع أمه، إلى بوينس آيرس، وبقي فيها حتى بلوغه العشرين من العمر، حيث رجع ليستقر نهائياً في تشيلي.اضطر منذ صباه إلى العمل في مهن متنوعة، لكي يخفف من وطأة «سنوات الفقر». وهكذا صار يتقن، بصورة متوسطة، أكثر من ثلاث مهن: النجارة، والخياطة، وصناعة السروج، إضافة إلى التمديدات الكهربائية. كما عمل، لبعض الوقت، مراسلاً، وحمالاً. ثم عمل في المسرح، نقاشاً، وعامل ديكور، وتوصل في هذا المجال إلى مشاركة فعالة في العروض المسرحية، مما أتاح له السفر في البلاد وخارجها.في عام ١٩٥١، انخرط في صفوف الحزب الاشتراكي.وفي العام نفسه، نشر روايته «ابن لص» التي شكلت منعطفاً في مسار الرواية التشيلية.أبرز أعماله:في الرواية:«مراكب في الخليج» (١٩٣٢)، «رحلة بحرية» (١٩٣٤)، «ابن لص» (١٩٥١)، «أفضل من النبيذ» (١٩٥٨)، «ظلال على خلفية البحر» (١٩٦٤).في القصة القصيرة:«رجال الجنوب» (١٩٢٦)، «الجانح» (١٩٢٩)، «مدينة القياصرة» (١٩٣٦)، «رجل الوردة» (١٩٦٣). في الشعر:«شعريات»، و«ترنمات عابر»، و«الوردة المهملة».الدراسات:«من الشعر إلى الثورة» (١٩٣٨)، «الشجرة خضراء دوماً» (١٩٦٠)، «موجز تاريخ الأدب التشيلي» (١٩٦٥).

الإعداد، ولا على الفرصة اللازمين لذلك، أو أن الحياة تمثلت لها بطريقة تكاد لا تتيح لها أن تناضل من أجل البقاء. هذا يعني، من أجل العمل، وهذا يعني، من أجل الصراع يومياً، وطوال ساعات، ثماني ساعات، عشر، اثنتي عشرة، بأغرب الوسائل وأكثرها تنافراً: بالطين، من يصنع اللبن؛ وبجلود الحيوانات المدهنة، العالقة بها نتف من اللحم الدامي، دابغ الجلود؛ وبالخشب والمسامير وأدوات صلبة، نجار المباني؛ وبقطع الجلد والأحذية القديمة النتنة، الإسكافـــي؛ وبمقود يجب تدويره دون كلل، أو بنفـــير يجب نفخه عشر مرات، مئة، ألف مرة في اليوم – وفـــي أكثر المرات بلا حاجة، وإنما لمجرد العادة – سائق العربات الآلية؛ وبحديد بارد، وعلب الشحم والزيت، الميكانيكي؛ بمكنسة كبيرة وصفـــيحة وعربة تتغل بالذباب، الزبال... ولِمَ المتابعة؟ فقائمة العاملين لا تنتهي، كما أنه لا ينتهي عدد المهن التي يعملون بها، أي زمن، أية فرصة؟ دون أن ننسى بأن الاتصال اليومي، طوال سنوات، مع الطين، الجلود، الخشب، المقود، الحديد، العربة الممتلئة بالزبالة، يتوصل إلى إكساب شخصيته حالة مشابهة للحالة التي عليها هذه العناصر.

بعضهم يتمكن، أحياناً، من تحقيق شيء ما. كيف؟ أمر غير معروف، ولا يمكن تفسيره، ولكنهم يفعلون ذلك. وهي في أغلب الأحيان ليست أعمالاً استثنائية. والاستثنائي هو أنه، مع معرفة ظروفه، استطاع تحقيق إنجاز ما.

وأنا أتذكر دائماً ما رواه لي أحدهم، عن الهندي الذي كان يأتي هناك، في «تييرا دي فويغو» بين فترة وأخرى، ليستعير بندقية.

– أعرني بندقيتك يا سيدي.

– خذها.

ويعطيه البندقية وخرطوشين، ويعود الهندي – خوان، دومنغو، أو سنتياغو، أو بلا أي اسم – بعد يومين أو ثلاثة أيام، وهو يحمل على ظهره العاري جلد غواناكو[1]، وردفاً من لحم الحيوان نفسه. ومعهما السلاح والطلقة الزائدة.

– خذ بندقيتك. غواناكو سمين، جلدٌ very well... ثم يوّدع: Good bye، يا سيدي.

كان يعرف الإنكليزية والإسبانية، مع أنه لا يعرف أيهما هي الإسبانية وأيهما الإنكليزية.

فـــي أحد الأيام، تعطلت البندقية بينما السيد يستخدمها. توقف مغلاقها عن العمل، تراخى شيء فـــيها، أو اشتد شيء، فالنتيجة نفسها: تفحصها السيد، وأعاد تفحصها، شدّها من هنا، ووضع فـــيها زيتاً هناك؛ ولكن دون جدوى. وعندما عاد الهندي، قال له السيد:

– لا توجد بندقية.

---

(١) نوع من الأبكة.

- غواناكو سمين يا سيدي.

- البندقية معطلة.

ورجع الهندي مرتين أو ثلاث مرات. وكانت نظرته تزداد حزناً في كل مرة.

- البندقية معطلة.

لم يكن لدى السيد متسع من الوقت، ليأخذها إلى أحد مصلحي الأسلحة في بونتا أريناس. وبعد عدة زيارات قام بها الهندي، لاحظ السيد أن ثمة أمرين يحدثان: الأول، أن الهندي بدأ يموت جوعاً. والثاني، أنه لا يفهم أن البندقية معطلة؛ ويظن، ببساطة، أنه لا يريد إعارته إياها. فآلمه ذلك، وفي الزيارة الأولى التالية، سلّمه البندقية، كالعادة، ومعها الخرطوشان. سيكون من الأفضل أن يقتنع بنفسه.

مضى الهندي وهو يكاد يجري، وعاد بعد يومين أو ثلاثة أيام، وكان يحمل جلدي غواناكو، وفخذاً من لحم الحيوان، والبندقية، والطلقة الزائدة.

- خذ بندقيتك. غواناكو سمينات، جلود عظيمة. Chao يا سيدي.

وكان يعرف قليلاً من الإيطالية أيضاً.

بقي السيد يومين أو ثلاثة أيام فاغراً فمه: فالبندقية تعمل كما لو أنها خرجت لتوها من المصنع. لقد أصلحها الهندي. كيف؟

ألديه معارف ميكانيكية أولية، دون أن تكون لديه أدنى أداة إصلاح؟ ربما كان لديه شص؛ ولكن من هو الذي تمكن يوماً من إصلاح بندقية بشص؟ وعندما رجع الهندي من جديد، سلمه السيد السلاح والطلقتين، دون أن يجرؤ على سؤاله شيئاً. كان متأكداً من أنه لن يعرف أن يشرح له كيف أصلحها. والهندي، من جانبه، لم يحاول ذلك. ربما لا يستطيع؛ فالصراع من أجل البقاء قد منعه من تعلّم التفكير والتفسير.

* * *

بيدرو ليرا لم يصلح في حياته بندقية قط، ولم يكن لديه شص يوماً. فكل شيء فيه، وفي بيته كان مختلاً: الكراسي مكسورة القوائم، الباب لا يُغلق، وهو بالكاد يفتح، النافذة بلا زجاج، السرير غير مرتب دائماً، أرضية الغرفة متسخة دوماً، وأواني المطبخ مكسرة. وكان هو مثل حجرته، وله إضافة إلى ذلك شارب... شارب يبدو دائماً، كأنه مشبع بالنبيذ. وكانت زوجته كصرة من الخرق التي تتحرك؛ صرة خرق تصنع الطعام، وتغسل الثياب وتتذمر عندما يوجه إليها بيدرو ليرا بعض العصي أو اللكمات، ربما لكي تؤكد أن هناك تحت صرة الخرق تلك، شيئاً أكثر من الخرق. مم كان يعيش؟ إنه تاجر: يشتري مكانس من مشغل للمكانس، ويبيعها في الشوارع.

وبالنقود التي يحصل عليها، يشتري مكانس من جديد، ويعود ليبيعها، وبالنقود...، إلى آخره. وكانت أرباحه تتيح له الإبقاء على قوائم الكراسي مخلعة، وعلى الباب نصف مفتوح ونصف مغلق، وعلى النافذة بلا زجاج، وعلى الأرضية متسخة، وعلى أواني المطبخ مكسرة. وعلى شاربه، كذلك، مضمخاً بالنبيذ، وعلى صرة الخرق في حركة. ولم يكن له أولاد.

الشيء الوحيد المعتبر في حجرته هو المنضدة. ولم تكن معتبرة بسبب غرابة طرازها، ولا بسبب نوعية خشبها، ولا بسبب طلائها. لقد كانت كذلك بسبب حجمها، إذ كانت تبدو كبيرة جداً بالمقارنة مع مساحة الحجرة، ولأنه فوقها، كان يتحرك الشيء الوحيد البديع في حياة بيدرو ليرا، وربما الشيء الوحيد الذي يبرر وجوده الحزين والمضطرب، كمشتري وبائع مكانس. ذلك الشيء هو ببغاء.

كان طول قامتي، في ذلك الحين، يتجاوز ارتفاع المنضدة ببضعة سنتيمترات، وكان ذلك يسمح لي أن أرى، وأنا واقف، ما الذي يجري على قطعة الأثاث تلك. أقول وأنا واقف، لأن بيدرو ليرا لم يدعُني للجلوس قط. ربما كان يظن أني لا أحب الجلوس، أو ربما كان يعتقد بأنني، مثله، لا أثق بكراسيه. فكنت أقف هناك وأنظر.

كان بيدرو ليرا يجلس على أحد الكراسي – وكان يعرف تلك الكراسي خيراً مني –، يبدأ بالنقر على المنضدة، بأظفاره

الطويلة السوداء، نقراً يشبه قرع الطبل. فتتوقف الببغاء عن التسكع في أرجاء الغرفة، أو في الفناء، باحثة عما تأكله، أو عن التقافز صاعدة ونازلة، دون توقف، على عيدان أو عريشة الدالية، تتوقف فجأة عن كل ذلك: إنه نداء... نداء موجه إليها وحدها. فإذا استمر النقر، وتصاعدت وتيرته، أو إذا ما انضم إلى النقر بالأظفار، نقرٌ بمفاصل الأصابع على المنضدة، فإنها تغادر كل شيء، العيدان أو العريشة، أو قطعة البطاطا المسلوقة التي تنقرها، وتركض نحو باب غرفة بيدرو ليرا، تتسل منه، وتدنو من المنضدة، وتتوقف إلى جانب إحدى فردتي حذاء البائع المتجول الباليتين. وتنتظر هناك. النقر يتصاعد بسرعة وكثافة. ويطرأ تحول على بيدرو ليرا. عيناه تلمعان، جسده يتصلب، ويكاد شاربه يجف، ناسياً الكراسي المخلعة، والمكانس المكومة في أحد أركان الغرفة، والنافذة التي بلا زجاج، والأرضية القذرة، وأواني المطبخ المكسرة، وناسياً كذلك حزمة الخرق. ويتجاهل الببغاء الواقفة هناك، عند قدميه، وهي ترفع رأسها الصغير، تنظر إليه بملامح طفل ينتظر من أبيه أو جده أو يتناوله بذراعيه ويرفعه. ومع ذلك، تصل اللحظة التي لا يعود ممكناً فـــيها الانتظار أكثر: فالنقر وصل إلى حد مرعب من الزخم. وبدأ قرع الطبل بالتحول إلى جلبة خيول تندفع للهجوم. ووسط وقع سنابك الخيل، يُسمع ما يشبه انفجار قذائف ثقيلة. ثم يعلو صوت يطغى على كل ذلك الصخب:

- انتباه!

وفـــي هذه اللحظة تخفض الببغاء رأسها، وتوجه نقرات قوية إلى حذاء بيدرو ليرا الذي يترك إحدى ذراعيه تهوي حتى تكاد تلامس الأرض، دون أن يحني رأسه، ودون أن ينظر إلى أسفل، وهو يمد الإصبع السبابة، في اليد القائمة. وعلى ذلك الإصبع، تتعلق الببغاء بسرعة من يقفز إلى قطار يتحرك. وترتفع الذراع وتستقر من جديد فوق المنضدة. وعلى المنضدة أيضاً تنزل الببغاء، وتبقى هناك دون حراك، متيبسة، تنتظر بتأهب.

يتوقف النقر فجأة. ويضم بيدرو ليرا، إلى جسده، ذراعيه اللتين كانتا تستقران على المنضدة، ويصرخ:

- انتباه! تأهب!

ينظر إلى البعيد، ساهياً عن كل شيء، خاضعاً أيضاً لذلك الصوت الذي يخرج منه بصورة مفاجئة، ذلك الصوت الحربي الجهوري، والمختلف تماماً عن الصوت الرتيب الذي يعرض به بضاعته: «ستحتاجين المكانس، مكانس جيدة، يا ربة البيت!».

كان الببغاء أكثر ثباتاً وتأهباً.

- أيها الجنود: المعركة غير متكافئة! العيش المجيد أو الموت بشرف! تقدموا! إلى الأمام...

ويسود النقر على المنضدة، ويبدو مرة أخرى، كقرع الطبل الذي يضبط إيقاع المسير، قرع يلونه بيدرو ليرا، الذي ينظر

الآن بثبات إلى الببغاء، بأصوات «راتابلان!، راتابلان! راتابلان!»، مُحدثاً بمعصمه، في الوقت نفسه، ضربات تحاكي القرع العميق على الطبل الأكبر. طبل، وطبلة، وطبل أكبر... لم يكن ينقص إلا البوق.

والببغاء المتأهبة أيضاً، في وضع منتصب، تبدأ استعراض الكتيبة المتخيلة التي ستُلقي بنفسها إلى الموت. تتابع خطواتها التي صارت أطول من المعتاد، إيقاع المارش العسكري، وهي الآن ذات لون أخضر فاتح، العنق، الصدر، البطن والذيل، مع بعض التموجات العذبة المائلة إلى الزرقة، متخللة بالصفرة هنا وهناك، والمنقار وردي، والقائمتان بلون لحمي، ولا يزيد ارتفاعها كله عن شبر كف إنسان، تبدو، وهي تسير فوق المنضدة الفسيحة، الممتلئة بالبقع، مثل تألق متحرك لأوراق حديثة الظهور. كانت تتعثر أحياناً، في تلك الأجزاء من المنضدة التي لا وجود لبقع عليها، فاقدة إيقاع خطواتها الذي لا تلبث أن تستعيده فوراً. وقبل سنتمترات من بلوغها حافة المنضدة، تفاجئها الصرخة:

- إلى اليمين، در! أمام سر!

تدور محاولة الحفاظ على مظهرها الوقور، وتتابع قدماً، إلى أن تأتيها الصرخة الأخرى:

- إلى اليمين!... سر!

فتتقدم مباشرة الآن نحو بيدرو ليرا، متوجسة من أن اللحظة المرهوبة، اللحظة التي يتوجب فيها على الجندي أن ينقض على العدو، سعياً إلى ميتة شبه مؤكدة على الدوام، وإلى شرف غير مضمون تماماً، ستحل بعد بضع خطوات. وتأتيها الصرخة الجديدة، وهي في منتصف المنضدة؛ ولكنها لم تكن صرخة، وإنما صوت بوق ينضم أخيراً إلى صوت الطبل الأكبر والطبل والطبلة:

- تاراري! تاراري!

تتوقف الببغاء متكهربة. ويتكلم بيدرو ليرا مرة أخرى بصوته الرهيب:

- أيها الجنود! العدو اندفع في الهجوم! لقد بدأت المعركة! إلى الأمام يا جنود الوطن!

يتوقف النقر، يصمت الطبل الأكبر، تخرس الطبلة، ويبدأ سيل من الرصاص بالأزيز في الفضاء.

- بوم! بيم! بام! راك! ترون! كاتابلون! تشن! تشن!

أصوات صفير، انفجارات، ضربات، تمزقات في الهواء... والببغاء وحيدة وسط ذلك الصخب، مهجورة لمصيرها في مواجهة عدو شرس وغير مرئي، تقاتل ببسالة: تتقدم، تتقهقر، تحني جسدها، تلوي عنقها إلى جانب ثم إلى آخر، أو تستدير إلى اليمين أو اليسار. ويستمر القتال لوقت قصير مع ذلك؛ فأحدهم، هناك في البعيد، يطلق الطلقة الحاسمة. يُسمع صوت

صفـــير. وفـــي اللحظة نفسها تبدأ ذراع بيدرو ليرا اليمنى، المشدودة إلى الوراء، بالارتفاع فجأة فوق رأسه، مقتربة من المنضدة. يزداد الصفـــير زخماً، متحولاً إلى دوي. وأخيراً، تهوي الذراع على المنضدة، وتضرب القبضة سطحها بكل ما تستطيعه من قوة:

- بام!

كانت ضربة جافة. والببغاء التي لمستها القذيفة، تسقط مصعوقة، متيبسة القائمتين، مغمضة العينين، والمنقار نصف مفتوح. صمت. يعود بيدرو ليرا إلى نفسه وينظر إلى الجندي الصغير الأخضر، مطروحاً في ميدان المعركة. يبتسم ويفرك يديه: عمله وعمل الببغاء متقنان. لم توجد قط فرقة عسكرية مثل تلك، ولا قائد مثله، ولم يوجد قط، في أزمنة الأزمنة، جندي مثل ذاك، بمثل إقدامه، وشجاعته، ووطنيته، وموته.

كنت أقف عندئذ على رؤوس أصابعي، وأنظر إلى الضحية الصغيرة. لقد أصابني كل ذلك بقشعريرة؛ فقد كان المشهد يبدو، بفضل بيدرو ليرا، حقيقياً. ولكن الساحر عاد إلى جديته ثانية: لا يزال هناك الفصل الأخير. سُمع صوت البوق مرة أخرى، يعزف لحناً مرحاً وخفـــيفاً:

- تاراري، تاراري، تاراري!

لم تتحرك الببغاء. وراح بيدرو يطلق، من جديد، صرخاته الحربية:

– أيها الجنود: لقد انتهت المعركة! لقد هُزم العدو! على الكتيبة أن تعود إلى ثكنتها! تاراري، تاراري!

يتجدد صوت قرع الطبل، والطبلة، والطبل الكبير، وفي أثناء ذلك، تبدأ الببغاء، الجندي الوحيد والجدير في تلك الكتيبة، بالخروج من دورها كجندي ميت، وتعود، أوفر حظاً من جنود آخرين، لتتولى دورها كجندي حي. فهي تبدأ النهوض على قوائمها الوردية، وتقف مستوية، وتتقدم بزهو، بخطوات الاستعراض، باتجاه بيدرو ليرا الذي ينظر إليها، وهي تتقدم نحوه، بعينين مشرقتين، ووجه متوقد، وشفتين رطبتين. فهذه الببغاء، الخضراء بالكامل، مع انعكاسات زرقاء عذبة، وومضات صفراء خفيفة، هي صنيعته، إنها الشيء الجميل الوحيد الذي توصل إلى إبداعه، على امتداد حياته المتنقلة، كبائع مكانس. وها هي تصل إليه، وتتوقف أمامه، منتظرة مكافأته: مداعبة حانية أو قطعة قش مسلوقة.

بعد سنتين أو ثلاث سنوات من انفصالنا عنه، علمنا أنا وأمي، أن بيدرو ليرا قد مات: كان مخموراً، وصدمه قطار، مع بضاعته. ما المصير الذي آلت إليه الببغاء؟ وما مصير زوجته؟ لقد كنا نجهل ذلك، وكنا بعيدين عنهم: مقاطعة بكاملها تفصل بيننا. لقد تحدثنا في مرات عديدة عن ذلك الرجل، وتلك الببغاء. كيف تمكن من تعليمها كل ذلك؟ كم من الوقت تطلب تعليمها؟ وهل يمكن لأي شخص، مع توفر الوقت والصبر، أن يحقق مثل

ذلك؟ كان يبدو لنا صعباً، وصرنا نسأل كلما رأينا ببغاء في أي مكان:

- هل تستطيع القيام بعمل ظريف ما؟

أجل، كانت الببغاوات قادرة على مدّ قائمتها للمصافحة، ونطق كلمة أو أخرى؛ ولا شيء سوى ذلك. ليس هناك في العالم كثيرون مثل بيدرو ليرا، ولا ببغاوات كثيرة مثل تلك. الطرافة شحيحة الوجود. غير أن أمي، كانت تقدر مع ذلك تلك الأعجوبة، أكثر مني، أنا الذي كنت لا أزال طفلاً، ولم تفقد الأمل في العثور يوماً، على شيء مشابه. وفـــي مساء أحد الأيام، عند عودتي من المدرسة، ولدى دخولي الغرفة التي كنا نسكنها، رأيت قفصاً معدنياً جديداً ونظيفاً، معلقاً إلى الجدار، بجانب الباب. وداخل القفص، كانت هناك ببغاء خضراء بالكامل، شبيهة ببغاء بيدرو ليرا، وربما بدت أكبر حجماً بقليل. نظرت إليّ بصمت. أمي لم تكن موجودة. تركت كتبي في الغرفة، وخرجت لأنظر إلى الطائر. هل يستطيع القيام بظرافة ما؟ هل يمدّ قائمته للمصافحة، يتكلم، يقوم بحركة خاصة ما؟ لم أتجرأ على مدّ إصبعي داخل القفص، ناهيك عن إخراج الببغاء منه. وسرعان ما جاءت أمي، وقالت لي:

- لقد اشتريتها يا بني. الرجل قال لي إنها شديدة الذكاء.

أثار ذلك دهشتي: فالسنة سنة فقر، وربما أشد فقراً من السنة السابقة – فسنوات الفقراء تنقض هكذا على الدوام؛ كل سنة أفقر من سابقتها –، وبدا لي ذلك التبذير مستغرباً. فأوضحت لي:

– إنها رخيصة الثمن. أضف إلى ذلك أنني لم أستطع مقاومة الإغراء. فقد كنت أرغب بشدة في اقتناء واحدة. ألا تتذكر ببغاء بيدرو ليرا؟

أدركتُ أن أمي تأمل في التوصل، سراً، إلى تعليم ذلك الطائر، فإذا لم يستطع تعلُّم كل ما يفعله الآخر، فإنه سيتعلم شيئاً ما على الأقل، شيئاً تفكر هي فــيه. وبعد أيام، لدى عودتي إلى البيت، وجدت أمي بوجه غريب عنها.

– ماذا أصابك؟

كان أحد أصابعها، سبابة اليد اليمنى، مضمداً.

– هل جُرحتِ؟

فأشارت إلى القفص. الببغاء الخضراء بالكامل، مع انعكاسات زرقاء عذبة، ولمسات صفراء هنا وهناك، قد عضتها بمنقارها عضة شرسة، عندما فتحت أمي الباب وقدمت لها إصبعها لتصعد عليه. وكاد منقارها القوي يمزق الجلد.

– أنا المخطئة. فالوقت لا يزال مبكراً.

وبدت الببغاء كأنها تستمع، وهي واقفة على العارضة المركزية في القفص. الوقت لا يزال مبكراً... ولكن أمي كانت عديمة

الصبر. وبعد أيام قليلة من ذلك، رأيتُ الضماد مجدداً على الإصبع نفسها: في المكان نفسه، وبالقوة المستغربة نفسها، من ذلك الكائن الأخضر الفاتح، ذي التدرجات الزرقاء، والانعكاسات الصفراء. فقد شق المنقار الجلد، وكان تمزق اللحم ظاهراً. جرح بطول ميلمترات. وكان الدم يتدفق. بينما الببغاء صامتة، تتطلع من فوق عارضة القفص.

وكانت أمي تنظر إليها، وتقول لها، بكل حنان، إنها قادرة على عمل شيء، وتملأ لها القفص بالبطاطا المسلوقة، وقطع الذرة الطرية، وأوراق الخس. وكانت الببغاء تأكل مثل أسد. ولكن، كان فيها شيء لم يكن موجوداً في ببغاء بيدرو ليرا، شيء ناء ومعزول، ربما هو أشبه بإحساس خاص بالعزلة.

بعد عدة أيام من ذلك، أثناء تناول الغداء، لاحظت أنني آكل شيئاً غريباً في أيام الفقر تلك: حساء فيه، فضلاً عن الرز والبطاطا، قطع من اللحم الأبيض الطري.

- ما هذا يا أماه؟

وبصمت، أومأت برأسها إلى القفص. نظرتُ، كان خاوياً. ثم نظرت بعد ذلك إلى سبابة يد أمي اليمنى. كان هناك ضماد، أكبر حجماً من سابقيه، وكانت تغطيه لطخة من الدم.

استغربتُ ذلك، ولكنني استطعت إيجاد تفسير له، ليس على الفور: فغرفتنا، على الرغم من الفقر المدقع، كانت نظيفة ومرتبة على الدوام: الملاءات تلمع ببياض ناصع، والأرض لا

وجود فـــيها لبقع ولطخات، وكل شيء مرتب في مكانه، وبحالة جيدة. كانت أمي تفعل كل شيء، كل شيء بالمطلق. لا يمكن تأنيبها على شيء. وربما كان تعليم الببغاء حركة ظرافة ما، يتطلب زمناً وإهمالاً لأمور أخرى، ولم يكن يتوفر لديها أي من الأمرين.

لقد كسبت الببغاء المعركة، ولكنها خسرت حياتها. فالحرية والاستقلال يتطلبان، كما يبدو، ثمناً قاسياً. أما أمي فخسرت وهماً. بينما كسبت أنا، مجاناً، حساء باللحم.

هوراسيو كيروغا[1]

Horacio Quiroga

وسادة الريش

El almohadón de ploma

كان شهر عسلها قشعريرة طويلة. إنها شقراء، ملائكية، خجولة. وقد جمَّد طبع زوجها الصارم أحلامها الطفولية

---

(١) ولد هوراسيو كيروغا في مدينة إل-سالتو (الأروغواي) عام ١٨٧٨.يتضمن نتاجه الأدبي الرواية، والقصة القصيرة، والمسرح، والشعر، والدراسة الأدبية، ولكنه برز بصورة خاصة في القصة القصيرة، بفضل أسلوبه التجديدي في هذا الجنس الأدبي، حتى صار يعتبر أحد المؤسسين الحقيقيين لفن القصة القصيرة الحديثة في أميركا اللاتينية.عاش كيروغا سلسلة متواصلة من المآسي: فقد مات أبوه برصاصة طائشة، وكان هوراسيو ما يزال طفلاً، ثم انتحر زوج أمه بعد سنوات من ذلك. ومات أحد أصدقائه المقربين فيما بعد في حادث إطلاق نار غريب تسبب به كيروغا نفسه. ثم مات أخواه في شبابهما، وانتحرت زوجته. وكان لهذه الأحداث كلها تأثير على نتاج الكاتب الأدبي.انتقل عام ١٩٣٠ إلى مقاطعة ميسيونيس، واشترى هناك أرضاً ليزرعها قطناً. لكن تجربته أخفقت وألحقت به كارثة مالية. إلا أن إقامته في ميسيونيس (حيث الطبيعة البكر القاسية) عمقت علاقته بالطبيعة، ساهمت في صقل تجربته الأدبية، حتى صار الكاتب الأول في أميركا اللاتينية الذي يتناول الإنسان وعلاقته بالطبيعة وبيئة البراري.مات منتحراً في بوينس آيرس عام ١٩٣٧، بعد أن عرف أنه مصاب بداء عضال لا شفاء منه.من أبرز أعماله:في الرواية:«قصة حب مضطرب» (١٩٠٤)، «حب عابر» (١٩٢٩).في القصة القصيرة:«جريمة الآخر» (١٩٠٤)، «المُطارَدون» (١٩٠٥)، «قصص الحب والجنون والموت» (١٩١٧)، «حكايات الغابة/ قصص للأطفال» (١٩١٨)، «المتوحش» (١٩٢٠)، «أنكندة وقصص أخرى» (١٩٢١)، «الصحراء» (١٩٢٤)، «الدجاجة المذبوحة وقصص أخرى» (١٩٢٥)، «المنفيون» (١٩٢٦)، «الأرصفة المرجانية» (١٩٠١).في المسرح:«القرابين» (١٩٢٠)، دراسات أدبية:
«دليل القصاص المحكم» (١٩٢٥)، «المهنة الأدبية» (١٩٢٨)، «بلاغة القصة القصيرة» (١٩٢٨).

كعروس. كانت تحبه كثيراً، إنما كانت تخالط حبها رعشة خفــيفة أحياناً، حين تنظر خلسة إلى "خوردان" الصامت منذ نحو ساعة، وهما عائدان ليلاً في الشارع. وكان هو من جهته، يكنّ لها محبة عميقة، ولكن دون أن يُظهر ذلك.

وخلال ثلاثة شهور - تزوجا في نيسان - عاشا سعادة خاصة.

لاشك في أنها كانت ترغب في قدر أقل من الصرامة، في سماء الحب المتيبسة تلك، وفـــي مزيد من الحنان المنطلق والصريح؛ ولكن مظهر زوجها الصارم كان يكبح رغبتها على الدوام.

ولم يكن تأثير البيت الذي يعيشان فـــيه قليلاً في الارتعاشات التي تنتابها. فبياض الفناء الصامت - أفاريز وأعمدة وتماثيل رخامية - كان يثير في نفسها انطباعاً خريفــياً لقصر مسحور. وفـــي الداخل، كان بريق المرمر والكلس الجليدي، دون أي خدش في الجدران العالية، يؤكد ذلك الإحساس بالبرودة الفظة. وعند الانتقال من غرفة إلى أخرى، تجد الخطى صدى لها في كل أرجاء البيت، وكأن هجراناً طويلاً قد شحذ حساسية وقعها.

فـــي عش الحب الغريب هذا، أمضت أليسيا الخريف كله. ومع ذلك، فقد انتهت إلى إلقاء حجاب على أحلامها القديمة، وصارت تبقى نائمة في البيت العدائي الذي تعيش فـــيه، لا تريد التفكير في أي شيء قبل أن يصل زوجها.

لم يكن هزالها مستغرباً. وقد أصيبت بنوبة أنفلونزا خفـــيفة امتدت لأيام وأيام، ولم تشف منها أليسيا على الإطلاق. وأخيراً، استطاعت في مساء أحد الأيام الخروج إلى الحديقة، مستندة إلى ذراع زوجها. كانت تنقل نظرها دون اهتمام من جهة إلى أخرى. وفجأة، مر خوردان براحة يده على رأسها ببطء وحنان عميق، فانفجرت أليسيا فوراً بالبكاء، وألقت بذراعيها حول عنقه. بكت طويلاً كل رعبها الدفـــين. وكان بكاؤها يشتد عند كل مداعبة رقيقة. ثم بدأ النحيب يتباطأ بعد ذلك، ولكنها بقيت ملتصقة بصدره طويلاً، دون أن تتحرك أو تتفوه بكلمة.

كان ذلك هو اليوم الأخير الذي نهضت فـــيه أليسيا من الفراش. فقد استيقظت في اليوم التالي منهوكة وشاحبة. فحصها طبيب خوردان باهتمام بالغ، وأمر بأن تلزم الفراش وتتوفر لها الراحة التامة. وقال لخوردان بصوت خافت وهما عند الباب الخارجي:

– لست أدري. لديها ضعف شديد لا أجد له تفسيراً. وهي لا تتقيّأ ولا تعاني شيئاً من هذا القبيل... إذا ما بقيت على هذه الحال حتى الغد، فاتصل بي فوراً.

وفـــي اليوم التالي، كانت أليسيا في حالة أسوأ. أُجريت لها فحوص طبية، وتبين أنها مصابة بفقر دم حاد يتفاقم باستمرار، دون أن يكون له أي تفسير. لم يعد يغمى عليها، ولكنها كانت تمضي نحو الموت بصورة مرئية. وكانت غرفة النوم تبقى

مضاءة طوال اليوم ويخيم عليها صمت مطبق. ساعات وساعات كانت تمر دون سماع أي صوت. كانت أليسيا تنام. وكان خوردان يقضي الوقت في الصالة التي أضيئت كل أنوارها أيضاً، يتنقل دون توقف من جانب إلى آخر، بعناد لا يلين. وكانت السجادة تكتم صوت خطواته. وبين الحين والآخر كان يدخل إلى حجرة النوم، ويواصل مشيته المترنحة على طول السرير، متوقفاً للحظة عند كل طرف من أطرافه لينظر إلى زوجته.

سرعان ما بدأت أليسيا تهذي، وكانت هذيانات مضطربة وطافــية في الفضاء أول الأمر، ثم ما لبثت أن هبطت بعد ذلك، إلى مستوى الأرض. ولم تكن المرأة الشابة تفعل شيئاً بعينيها المفتوحتين على اتساعهما، سوى النظر إلى السجادة عند نهاية السرير. وفــي إحدى الليالي تجمد نظرها فجأة، وفتحت فمها لتصرخ، وقد تلألأ أنفها وشفتاها بحبات العرق:

- خوردان! خوردان! صرخت متيبسة من الرعب، دون أن تتوقف عن النظر إلى السجادة.

أسرع خوردان إلى غرفة النوم. وما إن رأته أليسيا يدخل، حتى أطلقت صرخة رعب.

- هذا أنا يا أليسيا، إنني أنا.

نظرت أليسيا إليه بضياع، ونظرت إلى السجادة، ثم عادت تنظر إليه. وبعد تأمل طويل وذهول، استعادت الهدوء، فابتسمت

وأمسكت يد زوجها بين يديها وداعبتها لنصف ساعة وهي ترتعش.

بين هذياناتها الأكثر إلحاحاً، كانت ترى قرداً شبه إنساني يستند بأصابعه إلى الوسادة، وعيناه تحدقان بها.

عاد الأطباء لرؤيتها ولكن دون جدوى. فقد كانت أمامهم حياةً تذوي.. تفقد دماءها يوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة، دون أن يجدوا تفسيراً لذلك على الإطلاق. وفـــي الفحص الأخير كانت أليسيا ترقد في غيبوبة، بينما الأطباء يجسون نبضها ويتناقلون معصمها الخامد فـــيما بينهم. تملوها طويلاً بصمت، ثم مضوا إلى صالة الطعام. وهناك هز طبيب الأسرة كتفـــيه بيأس وقال:

- إنها مسألة جدية... ولا يمكننا أن نفعل إلا القليل.

فزمجر خوردان، وهو يضرب الطاولة بقبضته:

- هذا ما كان ينقصني.

كانت أليسيا تنطفئ في غيبوبة الأنيميا التي تتفاقم في وقت متأخر من الليل، ولكنها تتوقف دائماً في الصباح. فخلال النهار لم يكن مرضها يتقدم، ولكنها تستيقظ كل صباح ببشرة أشد زرقة، وشبه مغمى عليها. كان يبدو كما لو أن الحياة تغادرها ليلاً في دفقات جديدة من الدم. وكانت تشعر حين تستيقظ، كل صباح، كأنها خامدة على السرير، تحت ثقل مليون كيلوغرام. ومنذ اليوم الثالث، لم يعد هذا الخمود يفارقها أبداً. وكانت تكاد لا تستطيع تحريك رأسها. لم تكن تريدهم أن يلمسوا السرير، ولا حتى أن يسووا الوسادة.

لقد أصبح رعبها الغسقي يتخذ الآن شكل مسوخ يتجرجرون حتى السرير ويتسلقون ملاءاته بصعوبة.

بعد ذلك، فقدت الوعي تماماً. وفـــي اليومين الأخيرين، صارت تهذي بصوت خافت دون توقف. وكانت الأضواء تسطع دوماً، بضوء مأتمي، في غرفة النوم والصالة. ولم يكن يُسمع في صمت البيت الاحتضاري، سوى الهذيان الرتيب الصادر من السرير، والوقع الأصم لخطوات خوردان الأبدية.

وأخيراً توفـــيت أليسيا. وعندما دخلت الخادمة، وحدها، لترتب السرير، نظرت إلى الوسادة برهة، باستغراب. ثم نادت خوردان بصوت خافت:

- سيدي! توجد لطخات على الوسادة، تبدو كأنها بقع دم.

دنا خوردان مسرعاً وانحنى فوق الوسادة. وبالفعل، كانت على كيس الوسادة، عند جانبي الفجوة التي خلّفها رأس أليسيا، بقع صغيرة قاتمة.

تمتمت الخادمة بعد لحظة من التأمل:

- تبدو كأنها أثر لسعات.

فقال لها خوردان:

- ارفعيها إلى الضوء.

رفعت الخادمة الوسادة، ولكنها أفلتتها على الفور، وظلت تحدق بها مرتجفة وشاحبة. وأحس خوردان بأن شعره ينتصب، دون أن يدرك السبب.

دمدم بصوت أجش:

- ماذا حدث؟

تلعثمت الخادمة وهي ما تزال ترتعش:

- إنها ثقيلة جداً.

حمل خوردان الوسادة؛ كانت ثقيلة بصورة غير معقولة. خرجا بها. وفوق طاولة صالة الطعام، شق خوردان غطاء الوسادة وكيسها بضربة سكين. فطار الريش، وأطلقت الخادمة صرخة رعب، بفم مفتوح إلى أقصاه، وهي ترفع يديها المتشنجتين. ففي قاع الوسادة، بين الريش، كانت تتحرك ببطء قوائم مغطاة بزغب، وكان هناك حيوان مسخ... كرةٌ حية ولزجة. وكان ذلك المسخ منتفخاً إلى حد يكاد لا يظهر معه فمه.

فليلة إثر ليلة، ومنذ أن سقطت أليسيا طريحة الفراش، كان ذلك الكائن يغرس فمه - أو إبرته بكلمة أدق - في صدغها ويمتص دمها. كان موضع اللدغة غير مرئي تقريباً. ولابد أن ترتيب الوسادة اليومي كان يحول في البدء دون تطوره. ولكن حين لم تعد الشابة قادرة على الحركة، أصبح الامتصاص سريعاً جداً. وفـــي خمسة أيام وخمس ليال، أفرغ أليسيا من الدم تماماً.

هذه الطفيليات الطيارة الدقيقة جداً في الظروف العادية، تكتسب في بعض الأحيان، وفي ظروف معينة، أبعاداً ضخمة. ويبدو أن الدم البشري خاصة، يساعدها في ذلك. وليس من المستبعد، العثور عليها في وسائد الريش.

المحتويات

الصفحة

الطبعة الأولى / ٢٠١٢م
عدد الطبع ٢٠٠٠ نسخة

كلمة الغلاف

هذه قصص لأعلام الأدب في أمريكا اللاتينية نضعها بين يدي قراء **آفاق ثقافية** راجين أن تجد لديهم اهتماماً، فهي تقدم نبذة مصغرة من إبداعات هؤلاء الكتاب، الذين لا نفتأ نعجب بأدبهم كلما قرأنا لهم، فمن الذي لم يقرأ ماركيز فاغراً فاه مدهوشاً بالعوالم التي ينقله إليها هذا المبدع؟ ومن الذي لم تصبه رجفة المسحور أمام عوالم بورخيس الغامضة؟

أدب أمريكا اللاتينية، يمنح المطالع انطباعات شديدة الصدق، فقصص غابرييل غارسيا ماركيز وأليخو كاربينتر وخورخي لويس بورخيس وغيرهم ممن نقرأ لهم في هذا الكتاب تعلمنا أن هذا الفن الرقيق الجميل يستطيع فعلاً أن يتجاوز العوائق ليحلّق عالياً وينتثر مع كل التيارات الهوائية التي تلف الأرض ليدخل معها إلى كل بيت ، ويسحر القراء فيجعلهم يسيرون مع شخصيات القصص في شوارع بيونس أيرس أو يعيشون في حي شعبي من أحياء كارتاخينا دي انديأس أو حتى يسجنون مع المعذبين في سجن يعلو الصدأ أقفاله. ولابد أن يشعروا برائحة الأطعمة المتبلة الحارة مع الفقر والتبغ وجمال الخلاسيات والسمروات، ويتذكروا ضحكة ماركيز المتحشرجة، وكل كلمة من كلماته التي يمكن ان تسكن أرواحهم وذواكرهم أمداً طويلاً.

آفاق ثقافية

هذه قصص لأعلام الأدب في أمريكا اللاتينية نضعها بين يدي قراء آفاق ثقافية راجين أن تجد لديهم اهتماماً، فهي تقدم نبذة مصغرة من إبداعات هؤلاء الكتاب، الذين لا نفتأ نعجب بأدبهم كلما قرأنا لهم، فمن الذي لم يقرأ ماركيز فاغراً فاه مدهوشاً بالعوالم التي ينقله إليها هذا المبدع؟ ومن الذي لم تصبه رجفة المسحور أمام عوالم بورخيس الغامضة؟

أدب أمريكا اللاتينية، يمنح المطالع انطباعات شديدة الصدق، فقصص غابرييل غارسيا ماركيز وأليخو كاربينتر وخورخي لويس بورخيس وغيرهم ممن نقرأ لهم في هذا الكتاب تعلمنا أن هذا الفن الرقيق الجميل يستطيع فعلاً أن يتجاوز العوائق ليحلّق عالياً وينتثر مع كل التيارات الهوائية التي تلف الأرض ليدخل معها إلى كل بيت، ويسحر القراء فيجعلهم يسيرون مع شخصيات القصص في شوارع بيونس أيرس أو يعيشون في حي شعبي من أحياء كارتاخينا دي اندياس أو حتى يسجنون مع المعذبين في سجن يعلو الصدأ أقفاله. ولابد أن يشعروا برائحة الأطعمة المتبلة الحارة مع الفقر والتبغ وجمال الخلاسيات والسمراوات، ويتذكروا ضحكة ماركيز المتحشرجة، وكل كلمة من كلماته التي يمكن أن تسكن أرواحهم وذواكرهم أمداً طويلاً.

الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة
www.syrbook.gov.sy
٢٠١٢م

السعر (٥٠) ل.س